أَعْيَا الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى   لِلقُرْبِ وَالبُعْدِ فِيهِ غَيْرَ مُنْفَحِمِ

كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ   صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ   قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالحُلُمِ

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ   وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرامُ بِهَا   فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا   يُظْهِرْنَ أَنْوارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

شَرْحُ الْغَرِيبِ

أَعْيَاه الأمر : إذا لم يضبطه. وتقدّمت المادّة في البيت قبله.

والورى : الخَلْقُ. يُقال : ما أدري أيُّ الوَرى هو؛ أيْ أيُّ الخَلْقِ هو[1].

والفَهْم : المعرفة. وقال الجوهريّ : «فَهِمْتُ الشّيء فَهْماً وفَهامِيَةً: عَلِمته. وفلانٌ فَهِمٌ. واسْتَفْهَمَني الشّيء فأَفْهَمْتُهُ، وفَهَّمْتُهُ تَفْهيماً. وتَفَهَّمَ الكلامَ : فَهِمَهُ شيئاً بعد شيء»[2].

ومَعْناه : حاله.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2522/6. مادة ورى.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2005/5. مادة فهم.

ويُرى : يحتمل أنْ يكون من رُؤْية العين، فيتعدّى إلى واحد، أو بمعنى العِلم، فيتعدّى لاثنين، وفروع المادة اللّغوية كثيرة.

والقُرب والبُعد : يتقابلان تقابل الضدّين.

وقَرُب الشّيء - بالضمّ - يَقْرُب قُرباً : دَنَا. وقَرِبته – بالكسر – أقْرَبَهُ قُرْباناً : دنَوْت منه. و : ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]؛ ذُكرت الرّحمة على معنى الإحسان، ولأنَّ ما لا يكون تأنيثه حقيقيًا يجوز تذكيره. وقال الفَرَّاء : «قَرِيبُ المسَافةِ، يُذكّر ويُؤنّث، وقَرِيبُ النّسبِ، يُؤنّث بلا خلاف، فالمرأة قَرِيبتي؛ أيْ ذات قَرَابتي»[2].

وبَعُدَ : بالضمّ فهو بَعِيدٌ؛ أيْ تَباعَدَ. وأَبْعَدَهُ غيره، وباعَدَهُ، وبَعَّدَهُ تَبعِيداً. والبَعَدُ : جمع باعِدٍ؛ كخادم وخَدَم. مِن ضدّ القُرب، ومن الهلاك. واسْتَبْعَدَ : تَبَاعَدَ. واسْتَبْعَدَهُ : عَدَّهُ بَعِيداً. وتَنَحَّ غير بَعِيدٍ : كنْ قَريباً. وما أنتم بِبَعِيدٍ، للواحد والجمع. وكذا بِبَعَدٍ. وبيننا بُعْدَةٌ من الأرض والقَرابةِ. وأَبْعَدَ الله الآخَرَ؛ ولا يُقال للأنثى منه شيء. وهو من قُرْبانِه، وبُعْدانِهِ، جمع فَعِيل؛ كرُغْفَان[3].

ومُنْفحِمٍ : اسم فاعل من انْفَحَمَ؛ إذا سكت ولم يجب، وهو مطاوع أَفْحَمْته. وكلّمته حتّى أَفْحَمْته؛ إذا أسكتّه في خصومة أو غيرها. وأَفْحَمْتُه أيضاً : وجدته لا يقول الشِّعر[4].

(1) سورة الأعراف : من الآية 56.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 198/1. مادة قرب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 448/2. مادة بعد.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2000/5. مادة فحم.

والشّمس : معروفة، وجمعها شُموسٍ؛ كأنّهم جعلوا كلَّ ناحية منها شَمْساً، كما فعلوا في المَفارِق. وتصغيرها شُمَيْسَةٌ؛ قاله الجوهري[1].

وشَمَسَ يَوْمُنا يَشْمُسُ وَيَشْمَسُ : كان ذا شَمْسٍ. وأَشْمَسَ أيضاً كذلك[2]. وللشّمس عدّة أسامٍ كثيرة، كلّها مؤنّثة[3].

قيل : «وسُمّيت شمساً لبُعدها وسرعتها، والتّشْمِيس : النّفور والتّباعد. ومحلّها الفلك الرّابع، ولدى أهل الهيئة أنّ جرمها بقدْر الأرض مائة ونيّفاً وستّين مرّة»[4].

وعن ابن عبّاس وعكرمة[5] : «كقدْر الدّنيا وزيادة ثلاث».

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 940/3. مادة شمس.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 940/3. مادة شمس.

(3) قوله "كلها مؤنثة" ليس على إطلاقه، قال النويري : «وللشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها : ذكاء، والجارية، والجونة، والغزالة، إلاهة، والضّحى، والضّحّ، ويوح (بالياء المثناة والباء الموحدة) ، والشّرق، وحناذ، والعين، والمؤوّبة، والسّراج». انظر كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب : 48/1.

(4) انظر مفتاح دار السعادة. ابن قيم الجوزية : 566/2.

وحسب علماء الفلك المعاصرين فإن الشمس ممكن أن تأخذ 1,300,000 كرة أرضية بداخلها، و بالنسبة للكتلة؛ فإن كتلة الشمس أكبر من كتلة الأرض بحوالي ثلث مليون ضعف، كما يبلغ قطر الشمس 1,392,684 كم ، أيْ ما يعادل 109 أضعاف قطر كوكب الأرض.

(5) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله (25 - 105هـ= 645 - 723م). تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل. وخرج إلى بلاد المغرب، وعاد إلى المدينة، فطلبه أميرها، فتغيب عنه حتّى مات. وكانت وفاته بالمدينة. انظر الأعلام. الزركلي : 244/4.

وتظهر : مِن ظهَر الشّيء – بالفتح – ظهورًا : تبيّن. والظّاهر خلاف الباطن، واستظهرت الشّيء : تبيَّنته[1].

ومن بُعْد : هو ضدّ القُرب، إلاّ أنّه حَرَّك العين بحركة الباء اتّباعاً؛ لإقامة الوزن، وأصلها السّكون، ووقع في ذلك خَبْط لبعض الشّارحين.

وصغيرة : من الصِغَر، وهو ضدّ الكِبَر. وصَغُرَ، فهو صَغيرٌ وصُغارٌ – بالضم – وأَصْغَرَهُ غيرُهُ، وصَغَّرَهُ تَصْغيراً. واستصْغَرْتُ[2] القِرْبَةَ : خرزْتها صَغيرَةً. واسْتَصْغَرَهُ : عَدَّهُ صَغيراً. وتَصاغَرَتْ إليه نفسه : تحاقَرَتْ. وجمع الصَّغير في الشِّعر صُغَراءَ. والصُغْرى : تأنيث الأَصْغَرِ. والجمع الصُغَرُ. قال سيبويه : «لا يُقال صُغَرٌ، وأَصاغِرُ، إلاَّ بالألف واللاّم. كذا سمعنا العرب تقول الأَصاغِرُ، وإنْ شئتَ قلتَ الأَصْغَرونَ»[3].

وكَلّ الشّيء : أَعْيَى، وأَكَلَّه غيره. فالشّمس تُكَلُّ الطّرف؛ أيْ تُعييه، وكَلَلْتُ مِن المشي أكِلُّ كلالاً وكَلالَةً : أعْيَيْتُ. وكذا البعير. وكلَّ السيفُ والريحُ والطرفُ واللّسانُ، يَكِلُّ كَلاً وكِلَّةً وكَلالَةً وكُلُولاً. وسيفٌ كَلِيلُ الحدِّ، ورجلٌ كَلِيلُ اللّسانِ والطرفِ. وقيل : كَلاَّء البَصْرَةِ غير مصروف فَعْلاءَ منه؛ لأنَّه موضعٌ تَكِلُّ الرّيح فيه من عملها[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 730/2. مادة ظهر.

(2) هكذا في جميع النسخ الخطية، وفي المطبوع من الصّحاح للجوهري : "أَصْغَرْتُ" بدل "استصْغَرْتُ"، وهو الصواب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 713/2. مادة صغر.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1811/5. مادة كلل.

والطَّرْف : العينُ، ولا يُجمع؛ لأنّه في الأصلِ مصدر، فيكون واحداً أو جماعةً. قال تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾[1].[2] وفسّره بعضهم هنا بالبصر[3].

والأَمَمُ : القُرْب، يُقال : أخذتُ ذلك مِن أَمَمٍ؛ أيْ قُرْبٍ. وداري أَمَمُ دارِهِ؛ أيْ مُقابِلَتُها. والمُؤَامُّ : المُقارِبُ. والأَمَمُ : بين القريب والبعيد، وهو من المقارَبَة. والأَمَمُ : الشّيء اليسير؛ يُقال : ما سألتُ إلاّ أَمَماً[4].

ويُدْرِكُ : من الإدْراكُ : وهو اللُحوقُ. مشيتَ فأَدْرَكْتُهُ. وأَدْرَكْتُ زمانه. واسْتَدْرَكْتُ ما فات وتَدارَكْتُهُ بمعنىً. وتَدارَكوا : تَلاَحَقوا. وأَدْرَكَ الغلامُ أو الثّمرُ : بلغ. وتَدارَكَ الثرَيانِ : أَدْرَكَ ثَرى المطرِ ثَرى الأرضِ. والدَريكَةُ : الطريدةُ[5]. ويبعد من أنْ يكون من : أَدْرَكته ببصري؛ أيْ رأيته.

والحقيقة : ويُقال أيضاً الحَقَّةُ؛ أصلُ الشّيء وذاتُه[6].

والقَوم : اسم جمع للرّجال دون النّساء، ولا واحد له مِن لفظه. وربَّما دخل فيه النّساء بالتبَع، لأنّ قوم كلِّ نبيّ رجالٌ ونساء. وجمعه أقوامٌ. وجمع جمعه أقاوِمُ. وقال ابن السّكيت : «يقال : أقايِمُ وأقاوِمُ».

---

(1) سورة إبراهيم : من الآية 43.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1393/4. مادة طرف.

(3) منهم الإمام القرطبي. انظر تفسيره : 377/9.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1863/5. مادة أمم.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1582/4. مادة درك.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 1460/4. مادة حقق.

والقَوْمُ يذكَّر ويؤنث. وكذا كلّ اسم جمع لآدمي؛ قال تعالى : ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾[1]، و﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾[2]. ولا تدخل الهاء في تصغير ما يكون لغير الآدميين؛ كإبِل للزوم تأنيثه[3].

ونيامٌ : جمع نَائِم. ويُقال : نُوَّمٌ على الأصل؛ لأنّه من النَّوم. ونُيَّمٌ على اللّفظ. ونامَ يَنامُ. ويا نَوْمانُ؛ للكثير النَّوْم، ولا يُستعمل في غير النّداء. وأنَمْتُهُ ونَوَّمْتُهُ بمعنًى. وأخذه نُوَامٌ: جعل النّومُ يعتريه. وتَناوَمَ؛ أيْ أرى مِن نفسه النّوم وليس به. ونُمْتُه بالضمّ : غلبتَه بالنَوْم[4].

سَلاَ عنه : يَسْلُو سُلُوّاً. وسَلِيْتُ عنه – بالكسر - سِلِيّاً : تركته عن طيب نفس. وتَسَلّى مثله، إلاّ أنّ فيه طلباً. وسَلاَّه من همّه تَسْلِيَةً وأَسْلاَه : كشفه عنه. وانْسَلَى عنه الهمُّ وتَسَلَّى: انكشف. والسُلْوانَةُ بالضمّ : خَرَزَةٌ إنْ صُب عليها ماءُ المطر، فشرِب منه عاشقٌ سَلاَ؛ قال[5]:

شَرِبْتُ عَلَى سُلْوانَةٍ مَاءَ مُزْنَةٍ فَلاَ وجَدِيدِ العَيْشِ، يَا مَيُّ، مَا أَسْلو

ويُقال : سَقَيْتَ منّي سَلْوَةً وسُلْواناً؛ أيْ طَيَّبْتَ نفسي عنك. وقيل : السُلْوانُ دواءٌ يُسقاه الحزينُ فَيَسْلو، يُسمّيه الأطبّاء المُفرِّح[6].

---

(1) سورة الأنعام : من الآية 66.

(2) سورة الشعراء : من الآية 105.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2016/5. مادة قوم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2046/5. مادة نوم.

(5) ورد البيت في كتب المعاجم من غير نسبة. انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 395/14.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 2380/6. مادة سلا.

والحُلُمُ : بالضمّ؛ ما يراه النّائم. تقول : حَلَمَ – بالفتح – واحْتَلَمَ. وحَلَمْتُ بكذا، وحَلَمْتُهُ[1].

ومَبْلغ العِلم : بَلاَغه؛ أيْ غايته. من بَلَغْتَ المكان بُلوغاً : وَصَلت إليه، أو شارفتَ عليه. وبَلَغَ الغلامُ : أدرك. والإِبْلاغُ والتَبْليغُ : الإيصالُ. والاسمُ البَلاغُ. وهو أيضاً : الكفايةُ. وبالِغٌ : جيِّدٌ. وبَلَغَ في الجودة مَبْلَغاً. وأمرُ اللهِ بَلْغٌ بالفتح : بَالِغ. واللّهمّ سَمْع لا بَلْغ، بفتح السّين والباء وكسرهما وبالنّصب أيضاً؛ أيْ يسمع به ولا يَتِمّ. ويقال أيضاً في الخبر يُكرَه. وأَحْمَقُ بِلْغٌ بالكسر : يَبْلُغُ ما يريد مع حماقته. ويُقال : بِلْغ مِلْغ[2] [3].

والبَشَر : الإنسان. يقع على الواحد والجمع. وقال الجوهري : «الخَلْقُ»[4].

والخَلْق هنا : المَخْلوق. ويُقال : خَلْق الله، وخَلِيقَةُ الله. وهو في الأصل مصدر. وتقدّم.

وأيْ : جمع آية، وهي العلامة، وتقدّمت.

وأَتَى : جاء. والإِتْيانُ : المجيء. وأَتَيْتهُ أَتْياً، وأَتَوْتهُ أَتْوَةً. و : ﴿وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[5]؛ إمّا : آتِيًا؛ نحو : ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[6]؛ أيْ سَاتِرًا، أو

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1903/5. مادة حلم.

(2) رجل بِلغ مِلغ، بكسرهما : خبيث.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1316/4. مادة بلغ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 590/2. مادة بشر.

(5) سورة مريم : من الآية 61.

(6) سورة الإسراء : من الآية 45.

مَأْتَوِيًا؛ لأنّ ما أتاك من أمر الله، فقد أَتَيْته، ثمّ أُعلّ. وأَتَيْتُ الأمر من مَأْتاتِهِ؛ أيْ مَأْتَاه، وهو وجهه الّذي يُؤتَى منه؛ كما أحسنَ معناة هذا؛ أيْ معناه[1].

والرُّسُل : جمع رَسُول. **والكِرَام** : جمع كَرِيم. وقد تقدّما.

واتَّصَلَت : مُطاوع وَصَل. تقول : وَصَلْت الشّيء بالشّيء، فاتَّصَل به، كذا قيل. ويحتمل أنْ يكون من وَصَلْتُ الشّيءَ وَصْلاً وَصِلَةً. ووَصَلَ إليه وُصُولاً؛ أيْ بلغ. وأوْصَلَهُ غيره. وأصل اتَّصَلْت اوْتَصَلْت، فأُبدل من الوّاو تاء، وأُدغمت في مثلها[2].

وانظر ما معنى افْتَعَل هذا.

والنّور : الضّياءُ، والجمع أنْوارٌ. وقيل : شُعاع الضّياء[3]؛ عُزي "**للمحكم**"[4]. وانظر الفرق بين القولين[5]. والظّاهر أنّ مقابلته للظّلمة من تقابل الضدّين، لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[6]، واختُلِف فيه،

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2261/6. مادة أتا.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1842/5. مادة وصل.

(3) أيْ أَن الضوءَ فَرْعُ النور، وهو الشُّعاع المُنتشِر.

(4) هوكتاب "المحكم والمحيط الأعظم "لأبي الحسن علي بن سيده الأندلسي. ونص كلامه فيه هو : «النُورُ : الضَّوْءُ أيّا كانَ، وقِيلَ هو شُعاعُه وسُطُوعُه، والجمعُ أَنْوارٌ ونيرانٌ». انظر المحكم والحيط الأعظم : 319/10.

(5) القول الأوّل : يفيد أن النور والضياء مترادفان، والقول الثاني يفيد أن الضياء يتفرع عن النور.

(6) سورة الأنعام : من الآية 1.

فقيل جَوْهر، وقيل عَرَض[1]. وأنارَ الشّيءُ واسْتَنارَ : أضاء. والتَنْويرُ : الإنارةُ، والإسْفارُ، وإزْهارُ الشّجرةِ[2].

قيل : «وتَجوَّز بالنّور هنا، فاستعمله في ظهور آياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّها بحيث لا تلتبس، ولا تخفى على أحد».

الفَضْل : والفَضِيلة؛ ضدّ النّقص. وخَصّت العرب استعماله في المدح غالباً. وتقدّم.

والكَوَاكب : جمع كَوْكَب، ويُقال كَوْكَبَة؛ كعجوز وعجوزة، وبياض وبياضة. وكَوْكَب الروضَة : نَوْرُها. وكَوْكَب الحديد : بريقه وتوقُّده[3].

---

(1) قال الصاوي : اعلم أنّ الشعاع الفائض من الشمس؛ قيل جوهر، وقيل عرض، والحق أنّه عرض؛ لقيامه بالأجرام. انظر حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : 86/2.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 838/2. مادة نور.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 213/1. مادة ككب.

[تقسيم الكواكب وحجمها]

وتقسيم الكواكب إلى الثّابتة والسيّارة، وسبب تسميتها بذلك، وتعيين محالها من الأفلاك، وأعداد ما في كلّ فلك منها على ما ذكره أهل الهيئة، وتبيين حركتها، لا يليقُ ذكره بهذا المحلّ. وزعموا أنّ أصغرها فيما يُرى بمقدار الأرض ثمان مرّات، وأكبرها بمقدارها عشرين مرّة، وكلّ ذلك يحتاج إلى توقيف، إذ أدلّتهم في هذا الباب الحزر والتّخمين، وقد علمتَ كثرة خطأهما في القريب، فكيف في البعيد، وبعضُهم يُخَطِّئُ بَعضًا خَطَأً لا يُمكِنُ الجَمعُ مَعَه. وفي معنى قولهم قال الله تعالى : ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ.. ﴾ الآية[1].

وما أحسن قول الشّاعر مخاطبا لهم[2] :

عُلُومُ الأَرْضِ لَمْ تَصِلُوا إِلَيْهَا فَكَيْفَ بِكُمْ إِلَى عِلْمِ السَّمَاءِ

---

(1) سورة الكهف : من الآية 51. والآية بتمامها : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

(2) ينسب هذا البيت للإمام علي رضي الله عنه، ولكن بلفظ :

كُنُوزُ الْأَرْضِ لَمْ تَصِلُوا إِلَيْهَا فَكَيْفَ وَصَلْتُمُو عِلْمَ السَّمَاءِ

وقال قبله :

أَيَا عُلَمَا النُّجُومِ أَحَلْتُمُونَا عَلَى عِلْمٍ أَرَقَّ مِنَ الْهَبَاءِ

ونسب صَلَاحُ الدِّينِ الصَّفَدِيُّ البيتين لابن عبد البر، ولكن بلفظ :

أَمُنْتَحِلِي النُّجُومَ أَحَلْتُمُونَا عَلَى عِلْمٍ أَرَقَّ مِنَ الْهَبَاءِ
عُلُومُ الْأَرْضِ مَا أَحْكَمْتُمُوهَا فَكَيْفَ بِكُمْ إِلَى عِلْمِ السَّمَاءِ

انظر غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب. السفاريني : 248/1.

والنّاس : أصله أُنَاس، فحُذفت همزته على غير قياس، وليست «أل» عوضاً من الهمزة، وإلاّ لِما اجتمعا في قوله[1] :

إنَّ المَنايـــــا يَطَّلِعْـــــــــ ـــــنَ علـــى الأُنـــاسِ الآمِنينـــا

قال الجوهري : «وقد يكون من الإنس والجنّ»[2].

والظُلَم : جمع ظُلْمَة. وتقدّم.

---

(1) هو ذو جدن الحميري الملك. وقيل : البيت لعبيد بن الأبرص الأسدي يخاطب امرأ القيس. انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 288/2.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 904/3. مادة أنس.

التَّفْسِيْرُ

[فضائل الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تتناهى أنواعها]

قوله : "أَعْيَا الوَرَى.." البيت؛ يقول : إنّ الخلق أعياهم فهم معناه؛ أيْ فهم تفصيل أحواله السَّنِيّة وصفاته العليّة، هذا مراده بمعناه، بدليل قوله : "فَهوَ الّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ". ثمّ قال : "فَلَيسَ يُرَى" من الخَلْق - المفكّرين في إدراك تلك الأحوال، الرّائمين طلب الإحاطة بها، سواء عند القُرب منه، أو عند البُعد - غير منقطعٍ عن إدراك ذلك المرام، ومصدود عن بلوغ ذلك المقام. وهذا البيت ردٌّ لقوله : "فإنّ فَضلَ رَسولِ اللهِ.." البيت. فإذا كانت فضائله لا تتناهى أنواعها، فكيف يُطمع في الإحاطة بها، إذ لا بدّ من الانقطاع دونها.

ويحتمل أنْ يريد : أَعْياهم فَهْم حقيقة ما يمدحونه به، فقصُرت عباراتهم عن ذلك، لأنّ ما لا يُفهم، لا يُعبّر عنه، فليس يُرى منهم عند القرب منه، أو عند البُعد لمن يُشاهده - إمّا لبعد المسافة وإنْ عاصره في الزّمان، أو لبعد الزّمان، وهذان إنّما يُدرِكان ما أدركا من أحواله بالوصف، كحال أبي ذر مع أخيه في أوّل الأمر[1]، وفي حُكمهما مَن

(1) وتفاصيل الخبر ما رُوي عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قَالَ : «لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَأْتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي، فَانْطَلَقَ الأَخُ حتّى قَدِمَهُ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَكَلاَمًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ..». رواه البخاري في مناقب الأنصار. بَابُ إِسْلاَمِ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شاهده، ولم تطل صحبته له؛ أعني في بُعْد الإحاطة بمعناه - إلاّ منفحمٌ؛ أيْ ساكت عجزًا عن التّعبير، لعدم فهم ما قصد التّعبير عنه؛ فعلى الوجه الأوّل : يكون قد أخبر بقوله : "فإنّ فضل.." البيت عن عجز اللّسان عن التّعبير، وفي هذا البيت عن عجز العقل عن الإدراك، فإنّ ما لا يُعبّر عنه اللّسان قد يتصوّره العقل.

لا يُقال : إخباره في البيت المتقدّم عن عجز اللّسان عن التّعبير، إنّما كان لكون فضله لا نهاية له، والعقل عاجز عن إدراك ذلك، فالبيتان سواء.

لأنّا نقول : لا يعجز العقل عن إدراك ما لا يتناهى آحادُه، إذا عاين أمثال تلك الآحاد الجائزة الوقوع بلا آخر، إلاّ عن الإحاطة بعدد آحاده، وأمّا عن تصوّر أمثال ما وقع منها فلا، ومراده هنا بيان أنّ ذلك العجز عن إدراك أنواع صفات مَدْحه، فإنّها لا تتناهى، لا أنّ المراد أنّها نوع واحد لا يتناهى آحاده.

وعلى الوجه الثّاني : يستوي البيتان، إذْ عجز العقل إنّما هو عن الإحاطة بعدد الآحاد كما ذكرنا، وإنّما لم يقتصر على قوله : "غَيْر مُنْفَحِم"؛ لئلاً يُتوهّم تخصيص هذا العام بحالة البُعد؛ لأنّ القريب عادةً لا يعجز عن إدراك ما قَرُب منه؛ فلِذا قال : "القَرْب والبُعْد". قيل : ونظيره : ﴿يُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[1]. ولم يقل في كلّ حال؛ لئلاّ يُتوهّم تخصيصه بغير حالة المهد.

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 46.

وعند بعضهم: إنّ لفظ النّاظم "في القُرْب والبُعْدِ"، وقال : «المُراد أنّ من النّاس مُقرّب ومُبعد في الإحاطة بمعناه. ويعني بالمقرّب العارف بطرق الاستدلال، لا أنّه قُرْبٌ من الإحاطة؛ أيْ ليس من قَرُب منه عليه السّلام أو بَعُد إلاّ منفحِماً، ويجوز أنْ يكون القُرب والبُعد مِن الفهم، وعليه يعود المجرور بـ "مِن"، أو مِن معناه، ويعود الضّمير عليه، وليس المراد القُرب والبُعد في المكان، بل في الإدراك، استُعير القُرب مِن فهم المعنى والبُعد عنه من معنيَيْهما باعتبار المسافة، ووجه الشّبه ظاهر». انتهى ملخّصاً، وهو في كلامه مفرّق. وتأمّل تنزيله على كلام النّاظم والرّواية "للقُرْب"، و"فيه" لا "منه" كما مرّ.

ثمّ شبّه النّاظم عدم الإحاطة بكُنه معناه مع القُرْب أو البُعد بالشّمس، فإنّها تظهر - كما قال - للعينَين من البُعد صغيرة، وإن كانت في نفس الأمر أَعظم من الأرض بكثير على ما تقرّر في علم الهيئة، وقام البرهان فيه على ذلك، وهي من أَمَم؛ أيْ من قُرب، تُكِلّ الطَّرف؛ أيْ تُعيِيه، وهذا يحتمل وجهين: إمّا أن يكون إعياؤها الطّرف عن الإحاطة بجملتها لعِظم جُرْمها؛ فإنّه إذا ثبت أنّها أعظم من الأرض، فكما لا يحيط الطّرف بجملة الأرض، فكذا لا يحيط بجملة ما هو أعظم منها لو قُدّر له الكشف عن ذلك، بل أحرى. وإمّا أن يكون إعياؤها الطّرف عن الإحاطة بها مع القُرب؛ من أجل قوّة شعاع نُورها، فإنّه يردّ البصر خاسئاً كليلاً، فإذًا الشّمس لا تخلو عن حالين، إمّا في غاية البُعد كحالها عند الطّلوع أو الغروب، وهو حينئذٍ - وإنْ أَمكن إدراكها لقلّة ما يظهر لنا مع شعاعها مع البعد - فلا يمنع رؤيتها، لكنّها لا تُدرك إلاّ على خلاف

حقيقتها، فإنّها تُدرَك صغيرةً، وهي في نفسها كبيرة. وإمّا في غاية القُرب، وهي حينئذٍ لا يكاد يُدرَك شيءٌ منها؛ لِبَهْر شعاعها الأبصارَ من كثرة ما ظهر لنا منه، ويترجّح الأوّل لمقابلة قوله: "صغيرة"، ولم يقل يُدرَك منها شيءٌ لقلّة الشّعاع، ويترجّح الثّاني؛ لأنّه أَقْوى في المدح مِن حيث ذِكر سبب عدم الإدراك، فهو كادّعاء الشّيء ببيّنة. ووجه التّشبيه على الأمرين أنّ البعيد منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواحد من وجوه البُعد، إنّما يتحصّل له من أحواله النزر اليسير بالوصف، فهو يقف عند ذلك القدْر، فقد أدركه على خلاف ما هو به، كمُدرِك الشّمس مع البُعد، والقريب منه المشاهد لأنواره وآياته الّتي تُبهِر عينَيه الباصرة والبصيرة عن الإحاطة بجملة معناه؛ لعظم قدْره، أو عن إدراك الشّيء ما مِن أحواله على الحقيقة لقوّة نوره، ومن هنا أيضاً كان الوجه الأخير أمدح.

وقوله : "وَكَيْفَ.." البيت؛ يقول : بعيد أنْ يُدرِك في الدّنيا - أو لا يُدرِك فيها حقيقة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قومٌ موصوفون بأنّهم نِيَام، تَسَلَّوا بالحُلم؛ أيْ بنومهم المفهوم من قوله : "نِيَام"، على النّظر في حقيقته؛ أيْ تركوها عن طِيب نفسٍ منهم؛ لزهدهم في الارتقاء إلى معارج الكمال من الطرق الأخروية، وإخْلادهم إلى الشّهوات الدّنيوية، فأَنَّى تتجلّي لمرايا قلوبهم - وقد غمرها رَانُ دَرَنِ المعاصي؛ باختيارهم الفاني على الباقي - حقائقُ خصائصه ومعاني صفاته؛ الّتي هي أخروية محضة، فالضدّان لا يجتمعان، والمتقابلان لا يتّحدان.

فإنْ قلتَ : إنْ كان مراده بهؤلاء القوم العُصاة والكفّار، فالتّفسير متمكّن، غير أنّه تصير دعواه عامّة، ودليله خاصّاً؛ لأنّ هذا

البيت أتى به في مَعْرض الاستدلال على قوله : "أَعْيَا الوَرَى"، فإنّ الظّاهر أنّ المراد بـ "الورى" العموم؛ مَن تقدّم منهم عن وجوده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ممّن عَلم صفته من الكتب والوحي كالأنبياء عليهم السّلام وغيرهم، ومَن تأخّر. وهو بعدما شبّه بالشّمس - تقريباً لفَهْم عدم تصوّر حقيقته مع القُرب والبُعد - أردف ذلك بذكر هذا الاستدلال، وكان الّذي قبله من التّشبيه بخطابٍ خطابيٍّ وهذا استدلاليّ، وإن كان المراد بهؤلاء القوم ما أُريد بـ "الورى"، حتّى يتطابق الدّعوى والدّليل، فهو مشكل؛ لأنّ إطلاق القول في الأنبياء عليهم السّلام - بل فيمن دونهم من الأولياء، بأنّهم تسلّوا عن النّظر في حقيقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالحُلُم لا يليق.

قلتُ : يحتمل أنْ يريد العصاة وتخصيص عموم الورى بهم، لا سِيَّما الكفّار، فإنّهم لم يدركوا حقيقة نبوّته، فكذا لم يتّبعوه، خصوصاً إنْ قلنا بعدم تصوّر الكفر عنادًا، وعلى هذا فالدّعوى والدّليل متطابقان. نعم؛ يبعُد هذا الوجه من قوله بعدُ: "فَمَبْلَغُ العِلْمِ.." البيت، فإنّ الظّاهر عمومه؛ باعتبار كلّ أحد، وأيضاً الكفّار لا يسلّمون أنّه خير خَلْق الله كلّهم، فالظّاهر أنّ المراد بـ "قَوْم" العموم، وهو وإن كان نكرة في سياق الثّبوت صورة، إلاّ أنّه في سياق النّفي تحقيقاً؛ لأنّ المراد بالاستفهام النّفي كما تقدّم، وفي معناه الاستبعاد؛ أيْ لا يُدرك حقيقته كلّ قوم صفتهم ما ذُكر.

لا يُقال : يتخصّص على تقدير تسليم عمومه بقوله : "نِيَام".

لأنّا نقول : هو وصف لازم لا مخصّص، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**»[1]. وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[2]. والمعنى أنّ مَن في الدّنيا لا يدرك الحقائق المتمحّضة للآخرة؛ لأنّ نفس الدّنيا حجاب بينه وبينها، كما يحجب النّائمَ النوّمُ عن إدراك أحوال اليقظة، وكذا هو حال جميع الورى؛ لا يشاهدون حال تفضيل محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر الخَلْق معاينة وتفصيلاً، كما أدركوه بالخبر جملة إلاّ يوم القيامة حيث يبعثه الله المقام المحمود الّذي يغبطه فيه الأوّلون والآخرون، وحيث يُؤتى الوسيلة، وهي الدّرجة الّتي لا ينالها عبد من عباد الله غيرُه، فالمراد بكونهم نياماً؛ أيْ أحياء في دار الدّنيا، وشبّههم بالنِّيَام لِما قرّرنا.

وقوله : "تَسَلَّوا عَنْهُ بِالحُلُم"، شبّه عجزهم عن إدراك حقيقته - بسبب الحُلُم؛ الّذي هو نفس كونهم في الدّنيا - بترك الشّيء عَن طيب نفس؛ لأنّ ما لا يكون من المقدور لا يتأسّف الإنسان على فَقْده، بل تطيب نفسه بذلك، هذا هو التّحقيق في هذا المقام، فعليك به يغنيك عمّا وقع فيه من تخليط الشرّاح.

وقوله : "فَمَبلَغ العِلْم.." البيت؛ أيْ منتهى عِلم الورى فيه أنّه بشر خصّه الله بالرّسالة؛ أيْ إلى خَلْقه. وأنّه خير خَلْق الله كلّهم، هذا منتهى عِلمهم فيه على الجملة.

---

(1) لم يثبت هذا الأثر لا مرفوعا ولا موقوفا، وإنما ثبت من قول سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وغيره. انظر حلية الأولياء. أبو نعيم : 52/7.

(2) سورة ق : من الآية 22.

وقوله : "خَلْقِ اللهِ"؛ أيْ مخلوقاته؛ لأنّ هذا المصدر المراد به المفعول، نحو قولهم : درهمٌ ضَرْب الأَمير، وثوب نَسْجُ اليمن؛ أيْ مَضْروبه ونَسْجه، ولا يصحّ أنْ يكون المراد بالخَلْق هنا النِّسْبة على القول بذلك فيه؛ لقوله : "كُلِّهم"، فأعاد الضّمير على معنى المَخلوق، وأيضاً النِّسْبَة لا آحاد لها، حتّى تؤكّد بـ "كلّ".

وكون الخَلْق المخلوق هو المعروف مِن مذهب الشّيخ أبي الحسن الأشعري[1].

وزعم شهاب الدّين القرافي[2] : «أنّ ذلك مذهبه باعتبار الخارج عن الذّهن، وأمّا باعتبار الذّهن، فهو نِسْبة»[3].

ومن قوله : "كلّهم" يُفهم أنّه أراد بالمخلوقات العقلاء؛ لأنّه ضميرهم، ويدخل فيه الملائكة والإنس والجنّ، كما هو مذهب أكثر

---

(1) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري (260 - 324هـ= 874 - 936م). مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد. انظر الأعلام. الزركلي : 263/4.

وهو الصحيح من مذهب الأشاعرة. انظر تفسير مفاتيح الغيب. الفخر الرازي : 671/27.

(2) هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي (.. - 684 هـ = .. - 1285 م) من علماء المالكية نسبته إلى قبيلة صنهاجة (من برابرة المغرب) وإلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي) بالقاهرة. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات جليلة في الفقه والأصول، منها (أنوار البروق في أنواء الفروق)، و(الإحكام في تمييز الفتاوي عن الأحكام وتصرف القاضي والإمام) و (الذخيرة) في فقه المالكية. انظر الأعلام. الزركلي : 263/4.

(3) قال القرافي ذلك في كتابه نفائس الأصول في شرح المحصول. انظره : 682/2.

السنّيين في تفضيل الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام على الملائكة، وقد تقدّم بما فيه[1].

فإنْ قلتَ : ظاهر قوله: أنّ نهاية العلم فيه لا يزيد على ما ذُكر. فمِن أين عُلِم أنّه رسول؟

قلتُ : هو من حذف الصّفة للعِلم بها، فالتّقدير : بَشَر رسول، فإنّه أثبت له الرّسالة فيما قبل بقوله : "فإنّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ". وأمّا أنّ قوله : "خَيْرَ خَلْقِ اللهِ" يستلزم كونه رسولاً، ففيه نظر.

ولا يُقال : رتبة الرّسالة ممّا دون نهاية العِلم، فلا يخرج من كلامه. لأنّا نقول : رتبة البشرية دونها، مع أنّه جعلها نهاية العِلم.

ولا يُقال : إنّ قوله : "وأنّه خَيْر.." قيدٌ في البشريّة، فليست هي منتهى العِلم بمجرّدها، بل بقيدها.

لأنّا نقول : الرّواية بفتح "أنّ"، ولا يكون قيدًا إلاّ لو كانت مكسورة، حتّى يكون في موضع الحال، وفي التّنزيل : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2]. ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[3]. ونظير حذف الصّفة للعِلم بها : ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾[4]؛ أيْ البيّن، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[5]؛ أيْ نافعاً. وإنّما

---

(1) وذلك في شرح قول الناظم : وَكَيفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنيا...

(2) سورة الإسراء : من الآية 93.

(3) سورة إبراهيم : من الآية 11.

(4) سورة البقرة : من الآية 71.

(5) سورة الكهف : من الآية 105.

أتى بقوله: "بَشَر" زيادة في الاحتراس ممّا حذّر عنه في قوله : "دَعْ مَا ادّعَتهُ النّصَارَى"، أو لئلاً يُتوهّم أنّه من الملائكة؛ بناء على أنّه لا يكون خَير الخَلْق إلاّ منهم، كقول النّسوة : ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1]، وقوله[2] :

فلَسْــتَ لإِنْسِــيّ ولكــنْ لِمَــلأَكٍ تَنَــزَّلَ مــن جــوِّ السَّــماءِ يَصُــوبُ

لأنّ هذا شاع في عُرف النّاس؛ أنّ مَن فاق في المحاسن يُنسب للملائكة.

---

(1) سورة يوسف : من الآية 31.

(2) أنشده أَبو عُبَيْدَةَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْس جَاهِلِيٍ يَمْدَحُ بَعْضَ الْمُلُوكِ؛ قِيلَ هُوَ النُّعْمَانُ، وَقَالَ ابْنُ السِّيرَافِيِ : هُوَ لأَبي وَجْزة يَمْدَحُ بِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. انظر لسان العرب. ابن منظور : 10/496.

[أنوار الرّسل عليهم السّلام مِن نور محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وقوله : "وَكلُّ آيٍ".. البيت؛ أيْ أنّ كلّ معجزة أتى بها كلّ واحد من الرّسل الكرام؛ أيْ ظهرت على يديه لصدق دعوته، فإنّما اتّصلت بأولئك الرّسل - أيْ بكلّ واحد منهم - من نور محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم أجمعين. وما أحسن قوله : "اتَّصلتْ مِن نُورِهِ بِهِمِ"؛ فإنّه يُعطي أنّ نوره لم يزل قائماً به، ولم ينتقص منه شيء، ولو قال : فإنّما هي من نوره، لتُوهّم أنّه وزّع عليهم، وقد لا يبقى له منه شيء. والبحث فيه يقرب من الّذي تقدّم من قوله : "مِنْ نقْطَةِ العِلْمِ.." و"غَرْفًا مِنَ البَحْرِ..".

ويدلّ على قصده لهذا المعنى قوله : "فإنّه شَمْسُ فَضْلٍ.." البيت؛ أيْ إنّما كانت آيات كلّ واحد من نوره؛ لأنّه شمسُ فَضل، هم كواكب تلك الشّمس، يُظهرن - أيْ تلك الكواكب - أنوارَ تلك الشّمس للنّاس في الظّلم، ولمّا كانت الكواكب على ما تقرّر في علم الهيئة أَجْراماً غير مضيئة بذاتها، لكنّها صقيلة، تقبل الضّوء، وكان جرم الشّمس أكبر من الأرض، فهي إذا كانت تحتها حال غيبوبتها، يفيض نورها عن جوانب الأرض، فيطلب الصّعود؛ لكونه نورانيًا يطلب مركز العلوّ، فيصادف أجسام الكواكب الصّقيلة القابلة له، فيرتسم فيها، فتُضيء في الظّلمة، وتظهر أنوارُ الشّمس للنّاس فيها، من غير أن ينتقص من نور الشّمس شيء. ويظهر هذا المعنى ظهورًا محسوساً في القمر، فإنّه كلّما قابل شيء منه جُرْم الشّمس أضاء، وإنْ انحرف عنه اسْوَدَّ. فجميع أنوار الكواكب إنّما هو من نور الشّمس. شبّه نور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بنور الشّمس، وما ظهر على أيدي الرّسل - عليهم السّلام - سِوَاه من الأنوار، فإنّما هو من نوره الفائض، من غير أنْ ينتقص من نوره شيء.

ولمّا كانت الرّسل إنّما تأتي حال ظهور الكفر وعلوّه، وذلك هو الظّلام الحقيقي. قال: يُظهرن - أيْ تلك الكواكب؛ الّتي هي كناية عن الرّسل - أنوارَ تلك الشّمس - الّتي هي كناية عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الظّلم؛ أيْ حالة غلبة عَمَى الجهل وظلمة الكفر، وكما أنّ الشّمس إذا بدت، لم يبق أثرٌ للكواكب، وإنّما يظهر أثرها حال غيبتها، وهو حال الظُّلَم، فكذلك آياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشريعته، لمّا بدت، نَسَخَت غيرها من سائر الشّرائع، ولذا شبّهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشّمس؛ الّذي هو كوكب نهاريّ، يعمّ ضوءه سائر الأفق؛ كعموم هدايته ودعوته سائر الخَلْق، ولمّا كانت دعوة غيره خاصّة ببعض الخَلْق، شبّههم بالكواكب؛ الّتي لا يعمّ نورها، بل يختصّ ببعض الجهات؛ كاختصاص هداية غيره، ودعوته ببعض النّاس.

ولمّا أخذ الله - سبحانه وتعالى - الميثاق على سائر النّبيّين؛ لئن بعث النّبيّ الأميّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أحياء ليؤمننّ به، ولينصرنّه، وأخذ الميثاق على قومهم بذلك، كانت كلّ شريعة لا يتمّ أمرها إلاّ بالإيمان به إنْ أدركوه؛ قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ .. ﴾ الآية[1]. فصحّ تشبيههم بالنّجوم؛ في أنّه لا يعمّ ضوءها، وفي أنّ كلّها أو بعضها مستمد من نور الشّمس، وأنّ نورها لا يبدو إلاّ عند غروبها.

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 81. والآية بتمامها : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فإنْ قلتَ : هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النّبيّين، وآخر المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأنوار كلّ منهم متقدّمة في الزّمان، ونوره متأخّر، فكيف تكون أنوارهم من نوره؟

قلتُ : نوره متقدّم وإنْ تأخّر وجود ذاته، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُنْتُ نَبِيًّا، وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**»[1]. فهو وإنْ غابت ذاته الكريمة، فأنواره حاضرة، لا قبل وجوده، ولا بعد مماته، كما أنّ الشّمس غائبة تحت الأرض، وأنوارها في الأفق، واعتبرْ بالإرهاصات التّي تتقدّم وجود الأنبياء - عليهم السّلام - إيذانًا بوجودهم على إثْرها، وقد كان نوره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جبهة آدم عليه السّلام، ثمّ كان ينتقل إلى أنْ بلغ أباه على ما هو معلوم[2].

---

(1) قال العجلوني : لم نقف عليه بهذا اللفظ فضلا عن زيادة: وكنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين. وقال الحافظ ابن حجر في بعض أجوبته عن الزيادة: إنّها ضعيفة والّذي قبلها أقوى. وقال الزركشي: لا أصل له بهذا اللفظ. قال السيوطي في الدرر: وزاد العوام ولا آدم ولا ماء ولا طين، لا أصل له أيضاً. وقال القاري: يعني بحسب مبناه، وإلاَّ فهو صحيح باعتبار معناه، وروى الترمذي أيضاً عن أبي هريرة أنهم قالوا : يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال : وآدم بين الروح والجسد. انظر كشف الخفاء. العجلوني : 129/2.

(2) يقصد الأثر الذي رواه ابن عباس رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: فداك أبي وأمي! أين كنت وآدم في الجنة، فتبسم حتّى بدت نواجذه، ثم قال : «كنت في صلبه، وركب بي السفينة في صلب أبي نوح، وقذف بي في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق أبوايّ قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما..» قال المتقي الهندي : رواه ابن عساكر، وقال : هذا حديث غريب جدًا. انظر كنز العمال : 427/12.

فإنْ قلتَ : تَقَدُّم نوره - كما تقدّم - إنّما هو باعتبار تعلّق عِلم الله تعالى بإيجاده، وكذلك نور غيره.

قلتُ : نعم، فَهُم - حينئذٍ وبعد الإيجاد - أنوارُهم من نوره. ثمّ المراد بهذه الأنوار ما ظهر على أيديهم من المعجزات والآيات، وقد قدّمنا في حديث عمر ما يعلم منه أنّ جميع ذلك اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم[1].

وقال بعضهم : «إنّ كلام النّاظم يوهم أنّ الأرض كُرِيّة، كما هو مذهب أهل الهيئة، وهي عند جمهور أهل السنّة بسيطة[2]، والسّماء منطبقة عليها، وإنّما لزمه ذلك؛ لجعله أنوار الكواكب مستفادة من نور الشّمس، وذلك أنّه لمّا ثبت أنّها أكبر من الأرض بكثير، فحال غيبتها تحتها، يفيض نورها من كلّ ناحية، وكلّما ارتفع، قَرُب بعضه من بعض، حتّى تلتقي أبعاضه، وينقطع ظلّ الأرض قبل لحوق النّور الفلك المكوكب، وهو الثّامن، ومن ثمّ لا ينكشف شيء من كواكبه، ولمّا كان القمر في سماء الدّنيا، فيصله مخروط الظلّ قبل انقطاعه، ظهر فيه الكسوف، حتّى يحُول جُرْم الأرض بينه وبين نور الشّمس حال المقابلة التامّة». انتهى.

---

(1) أورده ابن مرزوق في شرح قول الناظم: "فإنّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ.." البيت. وهو قول عمر: بأبَوَي أنت، لئِن أُعطِي موسى حجرًا يتفجّر منه الأنهار.. إلى آخر الأثر.

(2) وهذا طبعا بحسب ما اسعفتهم به علوم عصرهم، وأمّا الحقيقة الثابة علميًا هي أنّ الأرض كروية.

ولا يخفى عليك أنّ ما قاله النّاظم لا يختصّ بأنّها كُرِيّة ولا بسيطة، بل جارٍ في الجميع على أنّه قصد التّشبيه لا التّحقيق، حتّى يكون أعمّ من التّخييلي، كقوله[1] :

وَكــأنّ مُحْمَــرَّ الشَّقِيـــ ـــقِ إذا تَصَوَّب أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْــلامُ يَــاقُوتٍ نُشِـــرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

ولزم من تشبيهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشّمس أنْ تكون آياته أعظم الآيات، وقد أشار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا المعنى بقوله : «**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلاّ وأوتي مثل مَا آمَنَ عَلَيه الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُتِيتُهُ وَحْيًا، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

وقول النّاظم : "فإنّه شَمْسُ فَضْلٍ.." مأخوذ من قول النّابغة[3] :

أَلَـمْ تَـر أَنَّ اللهَ أَعْطـاكَ سُـورَةً تَـرَى كـلَّ ملْـكٍ دُونَهـا يَتَذَبْـذَبُ

فإِنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَواكِب إِذا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهنَّ كَوْكَبُ

وقيل : إنّ غير النّابغة سبق إلى هذا المعنى فقال[4] :

---

(1) البيت ينسب للصنوبري الشاعر. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 284/11.

(2) رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في فضائل القرآن. بَاب كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ. ورواه غيره.

(3) انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 386/4.

(4) البيت ينسب لشاعر قديم من شعراء كِندة يمدحُ عمرو بن هند. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 182/3.

تكادُ تَمِيدُ الأرضُ بالنّاسِ أنْ رأَوْا   لَعمْرِو بن هندٍ غُضْبَةً وهُو عَاتبُ
هو الشّمسُ وافتْ يومَ سعدٍ فأفضَلتْ   على كلِّ ضَوْءٍ والملوكُ كواكبُ

قلتُ : وقد استُعمِل هذا المعنى في مدح كتاب "التّسهيل" في النّحو لابن مالك، فقيل:

أَلاَ إِنَّ تَسْهِيلَ الفَوَائِدِ فِي النَّحْوِ   كِتَاب جَلِيلٌ كُلَّ نَادِرَةٍ يَحْوِ
هَلْ الكُتُب إِلاَّ أَنْجُمٌ وَهُوَ شَمْسُهَا   سَنَاهُنَّ يُمْحَى إِنْ بَدَتْ أَيُّمَا مَحْوِ[1]

(1) البيتان لأبي حيان.

تقديم المفعول في "الورى" ليُعلم أوّلاً مَن يُوصف بالإعياء عن فَهم معناه، و«أل» فيه للعموم كما تقدّم. وتعريف "معناه" بالإضافة لإفادة الاختصاص والاختصار. والفاء الدّاخلة على "ليس" لكون ما بعدها نتيجة ما قبلها. وتقديم "للقُرب" و "البُعد" للإحاطة بعموم الانفحام أوّلاً وللقافية أيضاً. وتنكير "مُنْفَحِم" للنّوعية؛ أيْ نوعاً من الانفحام، ولو عرّفه لتُوهّم: كلّ الانفحام، وهو ينافي قوله : "فَمَبلَغ العِلم". و«أل» في "الشّمس" لتعريف الحقيقة، و"في" للظّرفية، وفي[1] "للعينين" للجنس، وتنكير "بُعُد" و"أَمَم" للنّوعية؛ لأنّهما إضافيان، وكذا تنكير "صغيرة". وجملتا "تظهر.." و"تكِلِ.." بيان لِما وقع التّشبيه فيه، فهما من الاستئناف البياني، كأنّه قيل : ما للشّمس؟ وفيهما على تقدير إعرابهما حالَين احتراس، لئلاّ يُتوهّم عموم التّشبيه بالشّمس، حتّى في حال كسوفها، وهو غير مقصوده. والاستفهام بـ "كيف" للاستبعاد أو للنّفي، وهذا أولى كما تقدّم.

وفي قوله : "في الدّنيا" احتراس، ولذلك قدّمه على "حقيقته". وتنكير "قوم" لإفادة الجنس أو النّوعية أو التّحقير.

وقال بعضهم : «إنّما نكّره زيادة في التّقبيح؛ لأنّ وصفهم بـ "قوم" يقتضي أنّهم عقلاء، فالأولى اتّصافهم بضدّ ما هم عليه، فترْكهم ذلك - مع التمكّن - زيادة في القبح، ولذا يُقال في الّذين أخطأوا الطّريق الحُسنى : قَومٌ جَهَلَة، ولا يُقال ذلك في البقر مثلاً».

---

(1) أيْ "أل".

قلتُ : وهو مبني على أنّ المراد الكفّار والغافلين، وقد تقدّم ما فيه، ثمّ لا بدّ من ذكره، إذ لا تُقام الصّفة هنا مقام موصوفها لعموم الصّفة. وتقديم "عنه" على "بالحُلُم"؛ لأنّه أهمّ أو للقافية.

وتنكير "بَشَر" للتّعظيم، وهو الأظهر، أو للنّوعية أو للجنس.

وقال بعضهم : «إنّه احتراس؛ إمّا عن توهّم كونه من الملائكة؛ لمّا وصفه بأنّه خير خَلْق الله. وإمّا توهّم التّخصيص في خَلْق الله بالبشر. لأنّه قد يُقال : خير خَلْق الله من البشر، فلمّا ذكر أنّه بشرٌ وأنّه خير خَلْق الله، عَلِم أفضليته على الملائكة». وفي هذا الثّاني تعسّف.

وقوله : "وكلّ آي.." البيت؛ جعله بعضهم من عطف الخاص على العام؛ لتفضيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البيت قبله على سائر الخَلْق، وفي هذا على النّبيّين، ففي البيتين الإطناب. قال : «وأيضاً لم يذكر في الأوّل سبب التّفضيل، وذكره في هذا؛ لقوله : "فإنّما اتّصَلَت.."؛ فهو من تقييد المطلق، وليس به؛ إذ تفضيله لا ينحصر في كون معجزاتهم ما اتّصلت بهم إلاّ من نوره».

قلتُ : وليس ما ذكرَ مقصودَ البيت؛ لأنّ ما ذكر مُستفاد من قوله : "فَاقَ النّبيّين.." البيت. وإنّما مقصد هذا البيت أنّ آياتهم من آياته، وأنّه توطئة لقوله : "فإنّه شَمْسُ فَضْلٍ..".

قال : «وقوله : "وكُلّ آيٍ" كقولك : كلُّ رِجَالٍ جَاءُوا فَأَكْرِمْهُمْ. كما لا يقتضي المثال لزوم إكرام رجل إنْ جاء أو رجلان، فكذا لا يقتضي البيت أنْ لو لم يكن إلاّ رسولٌ جاء بآية أو آيتين، أو رسولان جاء كلّ منهما بآية واحدة، أنّ غيره ما اتّصلت المعجزة به، إلاّ من نوره،

فلو قال : وكلّ معجزة مِن مُرسل ظهرت أو نحوه، لشمل هذا الفرض وغيره. وأجاب: بأنّ هذا الفرض لم يكن، والواقع أنّهم رسل كثيرون أتوا بآيات كثيرة، وأيضاً لو قال كما ذكر السّائل لفات مدح الرّسل، بأنّهم كِرام؛ المستلزم مدحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بأنّه كريم على الله؛ لأنّ ما يستمِدّ منه الكرام أحرى أنْ يكون كريماً». انتهى.

قلتُ : وهو مبني على أنّ المراد بـ "كلّ" المجموعي، والظّاهر أنّ المراد الإفرادي، واتّكل على الواقع كما ذَكَر، ولأنّ "أتى الرّسل" صفة لـ "آي".

و «أل» في "الرّسل" يحتمل الجنس والعهد، وتنكير "آي" للتّعظيم. والمحصور بـ "إنّما" في البيت هو "مِن نوره"؛ أيْ ما اتّصلت بهم إلاّ مِن نوره، والقاعدة أنّ المحصور بها من المعمولات الواقعة بعدها هو المتأخّر، ما لم تقم قرينة، فيُعمل عليها كما هنا، فإنّ "بهم" متعلّق بـ "اتّصلَت"، فلا ينفرد عن متعلّقه بالحصر، فهو في نية التّقديم، وإنّما أخّره للقافية والوزن، والمؤخّر تأخيرا تامًّا هو "مِن نوره". على أنّ في معنى "إنّما" واقتضائها الحصر اضطراباً بين العلماء[1]، إلاّ أنّ أهل المعاني

(1) قال الزركشي: إنَّمَا؛ هَلْ هِيَ تُفِيدُ الْحَصْرَ أَوْ لَا؟ قَوْلَانِ. وَإِذَا قُلْنَا: تُفِيدُهُ، فَهَلْ هُوَ بِالْمَنْطُوقِ؛ يَعْنِي أَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ مَعًا؛ أَيْ: لِإِثْبَاتِ الْمَذْكُورِ، وَنَفْيِ مَا عَدَاهُ، أَوْ لِلْإِثْبَاتِ خَاصَّةً، وَلِلنَّفْيِ بِطَرِيقِ الْمَفْهُومِ؟ قَوْلَانِ. وَبِالأَوّل قَالَ الْقَاضِي أَبُو حَامِدٍ الْمَرْوذِيُّ. وَبِالثَّانِي قَالَ الْقَاضِي وَالْغَزَالِيُّ. وقَالَ ابْنُ السَّيِّدِ: قَالَ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ: مَعْنَاهَا الِاقْتِصَارُ، كَقَوْلِكَ: إنَّمَا زَيْدٌ شُجَاعٌ، لِمَنْ ادَّعَى لَهُ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ. ومال الشَّيْخُ أَبُو حَيَّانَ إلَى إنْكَارِ إفَادَتِهَا الْحَصْرَ، وَقَالَ: إنَّهُ مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ. حَكَاهُ ابْنُ السَّيِّدِ عَنْ الْكُوفِيِّينَ. انظر كتابه البحر المحيط : 237/3 و 238.

متّفقون على اقتضائها الحصر. والفاء في "فإنّما" على أصلها من السّببية، إذ لا تدخل في خبر المبتدأ في المَحَال الّتي تدخل فيها معه إلاّ لذلك؛ لأنّ المبتدأ في معنى الشّرط. فقوله : كلّ رجل أتاني فله درهم. الإتيان سبب في الدّرهم.

لا يُقال : الأمر هنا بالعكس، لأنّ إتيانهم بالآيات مسبّب عن اتّصالها بهم مِن نوره، والاتّصال هو السّبب؛ إذ لم يأتوا بها إلاّ بعده.

لأنّا نقول : هذا باعتبار الخارج، وأمّا باعتبار الذّهن - وهو المراد هنا - فهي على الأصل، فإنّها لم تتّصل بهم، إلاّ ليأتوا بها ويُظهروها، فالإتيان متقدّم ذهناً، متأخّر خارجاً.

وتنكير "آي" للنّوعية. والتّوكيد بـ "إنّ"، والجملة الاسمية في قوله: "فإنّه.."؛ لأنّ المقام طلبي. وتنكير "فضل" للتّعظيم، وإضافة "شمس" إليها لتخصيصها بنوعه. وتقديم المسند إليه في قوله : "هم كواكبها" لإفادة التّقوّي؛ لأنّ كواكبها في معنى المشتق؛ أيْ منيرات، وليس تعريف المسندَين للحصر؛ لأنّ الأولياء - أيضاً والعلماء - كواكبها. و«أل» في "للنّاس"؛ الأظهر أنّها للعهد، وأمّا الّتي في "الظُّلَم"؛ فالأظهر جنسيتها.

اَلْبَيَانُ

إسناد "الإعياء" إلى "الفهم" من المجاز العقلي؛ أيْ أعياهم الله عن إدراكه. والتّشبيه في قوله : "كالشّمس"، من تشبيه المعقول – وهو إدراك معناه وفَهمه – بالمحسوس؛ وهي الشّمس؛ كقوله[1] :

وكالنَّارِ الحَيَاةُ فمِن دُخَان   أوائلهــا وآخِرُهــا رَمَــادِ

فشبّه الحياة المعقولة بالنّار المحسوسة. وهذا التّشبيه أيضاً من تشبيه الحالة الحاصلة من القُرب والبُعد فيه بالحالة الحاصلة من القُرب والبُعد في الشّمس باعتبار العينَين، فهو من تشبيه الجملة بالجملة. ويحتمل أنْ يكون من غير ذلك، فتأمّله. والأظهر أنّ وجه التّشبيه مركّب.

وقوله : "نِيام" استعارة للجاهلين بحقيقته، أو الجاهلين الغافلين عن النّظر في ذلك على التّفسرين. وقوله : "تسلّوا عنه بالحُلُم" ترشيح لتلك الاستعارة.

والإسناد في قوله : "اتّصَلَت" ليس بمجازيّ؛ لأنّه مطاوع "وصل" كما تقرّر.

وقوله : "فإنّه شَمْسُ فَضْل" من التّشبيه البليغ، وكذا "هُم كَوَاكِبها"، لحذفه الأداة والوجه، وليس باستعارة على الأظهر؛ لذكره

---

(1) لم أقف عليه بلفظه، والذي وقفت عليه لأبي العلاء المعرّي هو قوله :

وكالنارِ الحياةُ فمِنْ رَمادٍ   أواخرُها وأوَّلُها دُخـــان

انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 220/1.

الطّرفَين، وهو عند القصّار من الاستعارة. قال: «لأنّ كلّ ما علاقته التّشبيه، فهو استعارة».

قال : «ونُظِر في هذه الاستعارة إلى المستعار له؛ لأنّ الفضل من صفته، لا من صفة الشّمس، فهو كقول كُثيّر : غمْرُ الرِّداءِ.. البيت»[1].

قلتُ : وهذا الّذي ذكر اصطلاحٌ لبعض أهل أصول الفقه، وقد تقدّم تحقيق القول في ذلك عند البيانيين وكيفية جَعله من الاستعارة عندهم. تقدّم له نظائر[2].

---

(1) البيت بتمامه :

غمْرُ الرِّداءِ إذا تبسّم ضاحِكاً غلِقَتْ لضَحْكَتِهِ رِقاب المالِ

انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 54/7.

(2) انظر تحقيق الإمام ابن مرزوق في المسألة في شرحه لقول الناظم : فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًا..

اَلْبَدِيْعُ

الجَمع بين "الإعياء" و "الانْفحام"، وبين "الفَهم" و "المعنى"، وبين "القُرب" و "البُعد" كلّ ذلك مِن مراعاة النّظير. وفي "القُرب" و"البُعد" الطّباق. و"فَهْم معناه" من التّورية، وهي من المرشّحة، لقوله : "مُنفحِم". وفي هذا البيت التّوشيح.

[حقيقة التّوشيح]

وهو : «أَنْ يَكُونَ في الصَّدْرِ كَلِمَةٌ إِنْ عُرِفَ مَعْنَاها عُرِفَتْ القَافِيَةُ لِكَوْنِهِ مِنْ جِنْسِ مَعْنَى القَافِيَةِ أَوْ مَلْزُومًا لَهُ»[1].

سُمِّي بذلك؛ لأنّ دلالة ما في أوّل الكلام على آخره تُنزّل المعنى منزلة الوشاح، وأوّل الكلام وآخره بمنزلة العاتق؛ نحو : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ إلى ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]؛ فذِكر الاصطفاء أوّلاً يُشعر بذكر مصطفًى عليه، ومنه :

وَإِنْ وُزِنَ الْحَصَى فَوَزَنْتُ قَوْمِي وَجَدْتُ حَصَى ضَرِيبَتِهِمْ رَزِينَا[3]

وهو قريبٌ من التّسهيم، إلاّ أنّ التّسهيم لا يُشترط فيه أنْ يكون ما يدلّ على القافية أوّلاً[4].

وفي البيت اللّقبان؛ أمّا التّوشيح؛ فلأنّ لفظ "الإعياء" يدلّ على "مُنفحِم". وأمّا التّسهيم فاحتماله راجح. ويحتمل أنْ يكون من التّخيير.

وفي قوله : "الورى" و"يُرى" التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق.

وقوله : "كالشّمس.." البيت؛ إنْ قصد به الاستدلال على البيت قبله، فمِن المذهب الكلامي. وإنْ قصد به التّمثيل والتّقريب للفهم، فمِن أيضاًح المعنى.

---

(1) انظر تعريف التوشيح في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 137/7.

(2) سورة آل عمران : من الآية 33.

(3) البيت للرّاعي النّميري. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 138/7.

(4) انظر الفرق بينهما في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 142/7.

وقوله : "للعينَين" و"الطّرف" من التكرير؛ لأنّ الأصل: وَتُكِلُّهما، لكنّ أوقع الظّاهر موقع المُضمر، ووحّدهما بمعنى الجنس، وذلك جائز لقصد التّكرير، وفائدته أنّها مع البُعد تظهر لجملتها، ومع القُرب تُكِلّ حقيقة الطّرف الباصر، فما بالك بغيره منهما.

وقوله : "من بُعُد" و"أَمَم" من الطّباق.

وقوله : "صغيرة" و"تُكلّ" من الطّباق الخفي؛ لأنّ إكلالها الطّرف لعدم إحاطته بها كما تقدّم في أحد الوجهين.

وألفاظ "يُدرك" و"حقيقتَه" و"تسلّوا بالحُلُم" من الاعتبار المناسب؛ أيْ مراعاة النّظير؛ أمّا في لفظي "الإدراك" و "الحقيقة" فظاهر، وأمّا في جمعهما مع "تسلّوا بالحُلُم"؛ فلقولهم : "لاَ يُنَالُ العِلْمُ بِرَاحَةِ الجِسْمِ"[1]. ومن هنا لا يبعد أنْ يقصد النّاظم بهذا البيت عقد قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا اسْتَيْقَظُوا**»[2]. والبيت من المذهب الكلامي، أو من حسن التّعليل، والفرق بينهما اشتراط البرهان في الأوّل دون الثّاني.

وقوله : "فَمَبلَغ العِلْم.." البيت؛ من الكلام الجامع، ويشبه أنْ يكون من حصر الكلّي، وإلحاقه بالجزئي.

---

(1) رواه مسلم من قول يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ بلفظ : «**لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ**». انظر الصحيح في الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ. بَاب أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ.

(2) سبق تخريجه.

وقوله : "وكلّ آي.." البيت؛ فيه التّوشيح؛ لأنّ آيات الرّسل تدلّ على اتّصالها بهم، وفيه التّسهيم. والجمع بين "الآيات" و"الرّسل الكرام" و"النّور" من مراعاة النّظير، وكذا "الإتيان" و "الاتّصال".

وقوله : "فإنّه شَمْسُ فَضْل.." البيت؛ من المذهب الكلامي، أو من حسن التّعليل، وفيه التّوشيح؛ لأنّ من لوازم الشّمس إفادة الكواكب الأنوار، ومن لوازم كلّ ذلك إظهار الأنوار في الظّلم، وفيه الإرصاد أيضاً. وفي "الأنوار" و"الظُّلَم" الطّباق. وذكر "الشّمس" و"الكواكب" و"الأنوار" و"الظُّلَم" من مراعاة النّظير. والبيت أيضاً من حصر الكلّي، وإلحاقه بالجزئي. وتضمّن كلامه في هذا البيت الحُكْمَ على جميع الرّسل - صلوات الله وسلامه عليهم - باتّصافهم بالفضل، وحَكَم على نبيّنا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأنّه شمسه، وعلى غيره - عليهم السّلام - بأنّهم كواكبه، فهذا من النّوع المسمّى بـ "التفريق".

[حقيقة التّفريق]

وهو : «إِيقَاعُ تَبَايُنٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ فِي المَدْحِ أَوْ غَيْرِهِ»[1].

كقوله[2] :

مَا نَـوالُ الْغَمَـامِ وَقْـتَ رَبِيعٍ　　كَنَـوالِ الأَمِيـرِ يَـوْمَ سـخَاءِ

فنــوال الأَمِيــرِ بَــدْرَةُ عَـيْنٍ　　ونـوالُ الْغَمَـامِ قَطْـرَةُ مَـاءِ

وقوله[3] :

مَنْ قاسَ جَدواكَ بالغمامِ فمَا　　أَنْصَفَ في الحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْن

أَنـتَ إذا جُدتَ ضَاحِكٌ أبداً　　وهـوَ إذا جَـادَ هامـل[4] العَـينِ

فللّه درّ البوصيري مِن ناظم، تغمّده الله برحمته.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 334.

(2) هو رشيد الدين الوطواط الشاعر. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 300/2.

(3) هو أبو الفرج الوأواء الدّمشقي، وقالهما في سيف الدولة. انظر ديوانه : 223. وانظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 353/9.

(4) المحفوظ : "دامع" بدل "هامل". وهامل العين: هملت عينه: فاضت بالدمع. وقد وافق زكي الدين الجرجاني رواية الإمام ابن مرزوق. انظر الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. زكي الدين الجرجاني : ص 217.

الإعراب

أعيا : فعل ماضٍ. الورى : مفعول. فَهم : فاعل.

معناه : مضاف إليه. فليس : عطف على "أعيا"، واسمها ضمير الشأن.

يُرى : مضارع مبني للمفعول؛ وهو "غير".

ومنفحم : مضاف إليه، وهي بصَريّة في الأظهر.

وللقُرب، وفيه : متعلّقان بـ "يُرى". وضمير "فيه"؛ إمّا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لـ "معناه"، أو لـ "فَهم"، وأجاز القصّار تعلّق "فيه" بـ "منفحم".

قلتُ : وفيه تقديم معمول المضاف إليه على المضاف، لكن قدّمنا أنّ ذلك ممّا يختصّ به "غير" المراد بها النّفي، وأيضاً سهّله كونه مجرورًا.

واللاّم في "القُرب" بمعنى عنه أو مع، وذهب المبرّد[1] إلى أنّ من معاني اللاّم الإلصاق، ولا يبعد هنا بالاعتبارين في المتعلّق.

وجملة "يُرى.." إلى آخره مفسّرة ضمير الشأن، وهي خبر "ليس".

وقال بعضهم بعد كلام لم ننقله؛ لأنّه على خلاف روايتنا، وقد أشرنا إليه في التّفسير : «إنّه يجوز أنْ يكون اسم "ليس" "غير منفحم"، و"في القُرب" خبرها».

وقوله : "في القُرب" خلاف الرّواية أيضاً.

---

(1) انظر كتابه الكامل : 197/3.

قال : «و "يُرَى" اعتراضٌ أفاد به الاستدلال على خبره، حتّى كأنّه قال : أنت ترى ذلك. كما قيل في قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1]، أنّ الوقف على "عَمَدٍ"، و"ترونها" معناه : أنتم ترونها كذلك».

والكلام معه يستدعي جلب جملة كلامه، وذلك طول لا تحقيق معه.

وقال القصّار : «قول النّاظم كقولهم : "لَيْسَ خَلَقَ اللهُ مِثْلَه"، وأحد قولي الفارسي[2] أنّ "ليس" حرف نفي[3]. وهو ظاهرٌ في المثال».

قلتُ : ويجري مثله هنا "كالشّمس"، الأظهر أنّه خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ هو، أو حاله، وهذه الجملة مفسّرة لجملة "أَعْيا .."، ويبعد جعل الكاف حالاً من ضمير "معناه"، أو جَعل المجرور حالاً؛ لأنّه يُعطي بمفهومه تخصيص الإعياء عن فهم معناه بهذه الحال، إلاّ أنْ تُجعل هذه حالة له لازمة، لكن لزوم الحال على خلاف الأصل، ويجوز كون الكاف نعتاً لمصدر محذوف؛ أيْ أعيا كإعياء إدراك الشّمس.

و "تظهر.." : جملة مفسّرة للتّشبيه، أو حال من "الشّمس"، وعلى الأوّل لا محلّ لها.

و "للعينَين" و"من بُعد" : يتعلّقان بـ "تظهر".

وصغيرة : حال من فاعل "تظهر".

وجملة "تُكلّ.." : عطف على "تظهر.."، فحكمها حكمها.

---

(1) سورة الرعد : من الآية 2.

(2) أيْ أبو علي الفارسي.

(3) أيْ هي بمعنى "ما". انظر شرح تسهيل الفوائد. ابن مالك : 1/380.

والطّرف : مفعول "تُكلّ".

ومن أَمَم : متعلّق بـ "تكلّ"، ويجوز أنْ يكون حالاً من "الطّرف" أو من "الشّمس"، كما يجوز أنْ يكون "مِن بُعُد" حالاً منها أو من "العينَين". و"مِن" لابتداء الغاية.

وكيف : حال أو ظرف كما تقدّم غير مرّة، والعامل فيها وفي "في الدّنيا" "يُدرك"، ويجوز كَوْن "في الدّنيا" صفة لـ "قوم" في الأصل، فلمّا قُدِّم انتصب على الحال. وحقيقته : مفعوله. وقوم : فاعله.

ونيام : نعت "قوم".

و"عنه" و"بالحُلُم" : يتعلّقان بـ "تَسَلّوا"، وحركة لام "الحُلُم" اتّباع كعين "بُعُد".

وأصل "تَسَلَّوا" تسَلَّوْوْا، فقُلبت الواو ألفاً، وفُتح ما قبلها، ثمّ حُذفت لالتقائها ساكنة مع ضمير الفاعل؛ الّذي هو واو ساكنة.

وجملة "تَسَلَّوا.." إمّا صفة لـ "قوم" أو حال منهم؛ لأنّه قد وصفه قبلُ، والجملة معطوفة على الجملة التّشبيهية.

فمَبلغ العِلم : مبتدأ ومضاف إليه، والفاء للتّعقيب؛ لأنّه لمّا نفى أنْ يدرِك حقيقته أحدٌ من النّيام، عقّبه بما هو غاية المتيقّظ، ونهاية علمه فيه.

قلتُ : كذا قاله الأستاذ القصّار، وهو مبني على بعض التّفاسير.

وأنّه بشر : خبر مفرد، وقيل: هو على حذف مضاف؛ أيْ بلوغ العِلم فيه عِلم بشريته.

وأنّه خير خَلْق الله : معطوف على "أنّه بشر"؛ أيْ واختاره. هذا على ما هو الرّواية من فتح "أَنَّ"، ويجوز كسرها في الموضعين، ويكون

الخبر جملة، ولا يحتاج إلى رابط؛ لأنّها نفس المبتدأ؛ أيْ بلوغ العِلم فيه هذا المذكور.

ومبلغ : مصدر، وبه يتعلّق "فيه".

وكُلّهِمِ : تأكيد للخَلْق، وكُسر ميمه اتّباعاً لكسرة الهاء، وهو لغةٌ لا ضرورةٌ لئلاً يقع في الإقواء كما تَوَهّم بعضهم.

وكلّ أيْ : مبتدأ ومضاف إليه.

وجملة "أتى الرّسل الكرام بها" صفة لـ "آي".

وفاء "فإنّما" تقدّم ذكرها. وإنّما : إنّ وكافتها؛ ولذا دخلت على الفعل.

وفاعل "اتّصلت" : ضمير "الآي". و"من نوره" و"بهم" : يتعلّقان بـ "اتّصلت". و"من" لابتداء الغاية. والباء للإلصاق.

وجملة "وكلّ.." تحتمل الاستئناف، فلا محلّ لها، وتحتمل العطف على خبر "مَبْلغ"، فيكون في محل رفع، والرّابط على هذا ضمير "نوره". هم كواكبها : مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة صفة "شمس" لا حال منها؛ إذ لا عامل.

ويظهرن : خبر ثانٍ لـ "هم"، والرّابط الفاعل المؤنّث، وهو النّون؛ وإنّما عاد على "هم". وهم ضمير المذكورين؛ لأنّه واقع على الكواكب الّتي لفظها مؤنّث، والمبتدأ المذكّر إذا أُخبر عنه بمؤنّث، يجوز أنْ يُعاد عليه ضمير المؤنّث، فيُؤنّث لتأنيث خبره؛ كقوله[1] :

(1) هو أعشى تغلب؛ ربيعة بن تجوان، وكان نصرانياً. انظر الحماسة البصرية. أبو الحسن البصري : 98/1.

أَلَمْ يَكُ غَدْراً ما فَعَلْتُمْ بشَمْعَلٍ   وقَدْ خاب مَنْ كانتْ سَرِيرَتَهُ الغَدْرُ

فأنّثَ الغَدر بإلحاق فعله علامة التأنيث؛ لأنّه أخبر بسريرة المؤنّث، وله نظائر.

ولا يصحّ جعل "يُظهرن" صفة "كواكب"؛ لأنّه معرّف بالإضافة، اللّهمّ إلاّ عند من يرى أنّ المضاف إلى ضمير النّكرة لا يتعرّف[1]، فيصحّ، ولا يصحّ أيضاً جعله حالاً منه؛ إذ لا عامل، إلاّ على مذهب الأخفش؛ في أنّ الابتداء يعمل في الحال، فيصحّ ذلك[2]، ويصح أيضاً عليه أنْ تكون جملة "هم كواكبها" حالاً من "شمس" أو من اسم "إنّ"، ثمّ ضمير "يُظهرن" إنّما هو باعتبار الكواكب، وهو خلاف الأفصح، والأفصح "تُظهر"؛ لأنّ "فَعَلَت" ونحوه في جمع الكثرة أولى مِن "فَعَلْن" ونحوه في جمع القلّة، وجمع العاقلات مطلقاً بالعكس، قال تعالى : ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[3]؛ لمّا أُعيد على أثني عشر. ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾[4]؛ لمّا أُعيد على أربعة.

---

(1) قال المرادي : مما لا يتعرف بالإضافة : ما وقع موقع نكرة لا تقبل التعريف نحو : "رُبّ رجل وأخيه". "وكم ناقة وفصيلها" و"فعل ذلك جهده وطاقته"، ونحو : "لا أباك تخوفيني"؛ لأنّ "رُبّ" و"كم" لا يجرّان المعارف، والحال لا تكون معرفة، و"لا" لا تعمل في المعرفة. انظر توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك. المرادي : 195/1.

(2) وعلّل الأخفش ذلك بأنّ تقدّم الحال على جُزءٍ واحدٍ كلا تقدُّمٍ؛ لأنّه بعد المبتدأ، والمبتدأ يُطالب بخبره، وكأنّه في نيّة التقدّم. ومثاله : زيد قائما في الدار. انظر اللمحة في شرح الملحة. ابن الصائغ : 380/1.

(3) سورة التوبة : من الآية 36.

(4) سورة التوبة : من الآية 36.

وأنوارها : مفعول "يُظهرن". و "للنّاس" و"في الظّلم" يتعلّقان بـ "يُظهرن". ويجوز جَعل "في الظُّلم" حالاً من "أنوارها" ومن "النّاس"، وأمّا جَعل "يُظهرن" من الاستئناف البياني؛ حتّى يكون له محلّ من الإعراب؛ ليَسْلم من التّكلّفات المتقدّمة، فهو عين التّكلّف.

الْإِشَارَاتُ

[من خصائص أولياء الله]

مَن خصّه الله - سبحانه وتعالى - بالمعارف الإلهية، وبالتخلّق بالصّفات الربّانية، فهو بالنّظر إلى ذاته وخِلقته قريب مِن البشر، وبالنّظر إلى أخلاقه وأفعاله بعيد عن إدراك النّظر؛ لأنّه بالنّظر إلى أفعاله، والارتقاء إلى أحواله، خرج عن طورهم الموصوف، وارتفع عن تسفّل منزلتهم المعروف، وإنّما يحصل له ذلك بقطع العلائق الّتي تُشغله عن الله، فليس له نظرٌ إلاّ إلى ربّه، فإذا بلغ هذه المنزلة، تحيّر الورى الرّاكنون إلى غير الله من المخلوقين في أمره، فيقولون - لِما استُولي على قلوبهم من الغفلة - : ما لهذا المنقطع لا يسعى سعينا، وبأيْ شيء اختصّ عنّا، مع أنّه بشرٌ من جنسنا، فإنْ نظروا إلى بشريته - وهي حالة بُعده، باعتبار ما هو عليه - رأوه صغيرًا، وإنْ تفكّروا في خصائصه - وهي حالة قُربه، باعتبار حاله أيضاً - رجع طَرفهم إليهم خاسئاً حسيراً، وهذه صفة الواحد في الأنبياء، والواحد في الأولياء، فلا النّاظر على البشرية رام الطّريقة، ولا المتفكّر في الخصائص أدرك الحقيقة، فكلّهم منقطع، وجميعهم عن ذلك المقام مندفع، وحينئذ يُشبّه ذلك الواحد بالشّمس في الإدراكين المذكورين، وفي استفاضة أنواره على مَن دونه ممّا يشاركه في مطلق المنزلة، وهم كالكواكب المستمدّ نورها من نور الشّمس، وهو كقطب الدّائرة، وهم كالمحيط، فكلّ ما يظهر على مَن دونه ممّن تعلّق بمرتبته، فهو من بركته، فهذه الإشارات تضمّنها البيت الأوّل والثّاني والخامس والسّادس.

ثمّ قال : "وَكَيفَ يُدرِكُ في الدّنيا حَقِيقَتَه"؛ أيْ النّيام المُتَسَلُّون بالرّكون إلى الدّنيا، المتطلّعين إلى الأسباب، الغافلين عن مُسبّبها، لا يدركون حقيقة الموصوف أوّلاً؛ لأنّه وإيّاهم على طرفي النّقيض، وأنّى يجتمع النّقيضان، نعم، إذا صاروا إلى الآخرة، وانكشف لهم الغطاء، أدركوا تلك الحقيقة، وذلك حيث لا ينفعهم ذلك الإدراك؛ لأنّ ثمرته التخلّق بمقتضاه، وليس ذلك الوقت أوان ذلك التّخلّق، وحينئذٍ يقولون : ﴿ فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا .. ﴾ الآية[1].

وأمّا في الدّنيا، فمَبلغ عِلم المصدّق والغافل عن التّفكّر في حال الواحد الموصوف أنّه بشر، وأنّه خير خَلْق الله كلّهم، إمّا بالإطلاق كما في حق نبيّنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإمّا خَلْق الله الموجودين في زمانه، كما في حق القُطْب، وقد عَلِمتَ أنّ هذه الدّرجة في النّبوّة وفي غير النبوّة لا تُنال إلاّ بتخصيص الله تعالى، مع التّوفيق للعزلة ممّا الخَلْق خائضون فيه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[2].

(1) سورة السجدة : من الآية 12. والآية بتمامها : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

(2) سورة الأنعام : من الآية 91.

[العزلة وفضلها]

وهذه العزلة حسّية ومعنويّة، وفضل العزلة لا يخفى، فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعبّد بحراء، حتّى جاءه الحقّ، وفي الصّحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ من خَيْرِ النَّاسِ رَجُلا أخذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً**[1]**، طَارَ إِلَيْهَا، وَرَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ له فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ أَوْ بَطْنِ وَادٍ، يَعْبُدُ رَبَّهُ حتّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ فِي خَيْرٍ**»[2]. ثمّ لا بدّ للمريد منها في ابتدائه عن أبناء جنسه، وفي انتهائه؛ لتحقّق أُنسه، ثمّ يعتقد فيها سلامة النّاس مِن شرّه، لا سَلامته مِن شرّهم؛ لأنّ الأوّل استصغار، والثّاني استكبار.

وقيل لراهب: أنتَ راهب. فقال: «بَلْ حَارِسُ كَلْبٍ؛ لِئَلاَّ يَعْقِرَ النَّاسَ؛ وَهُوَ نَفْسِي»[3].

والعزلة الحقيقية: اعتزال الخصال المذمومة، ولذا قيل: "العَارِفُ كَائِنٌ بَائِنٌ"؛ أيْ كائن مع الخَلْق، بائِنٌ عنهم في السرّ[4].

وقال يحيى بن معاذ: «إِنْ كَانَ أنسُكَ بِالخَلْوَةِ، ذَهَبَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْهَا، وَإِنْ كَانَ أُنسُكَ فِيهَا بِاللهِ، اسْتَوَتْ عِنْدَكَ الأَمَاكِنُ»[5].

---

(1) الهيعة: الصوت تفزع منه وتخافه من عدو ونحوه، أو هي صوت الصارخ للفزع.

(2) رواه مسلم عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في الإمارة. بَاب فَضْلِ الْجِهَادِ وَالرِّبَاطِ. ورواه غيره.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 222/1.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 223/1.

(5) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 223/1.

وأوصى أبو بكر الورّاق[1] رجلاً فقال : «وَجَدْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي الخُلْوَةِ وَالقِلَّةِ، وَشَرَّهُمَا فِي الكَثْرَةِ وَالاخْتِلاَطِ»[2].

وقال ابن المبارك : «دَوَاءُ القَلْب قِلَّةُ المُلاَقَاةِ»[3].

ولله درّ القائل[4] :

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا سِوَى الْهَذَيَانِ مِنْ قِيلَ وَقَالَ

فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إلاّ لأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إصْلاحِ حَالِ

وَقِيلَ : «إنْ أَرَادَ اللَّهُ تعالى نقل عَبْد مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إلَى عِزِّ الطَّاعَةِ آنَسَهُ بِالْوَحْدَةِ، وَأَغْنَاهُ بِالْقَنَاعَةِ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوب نَفْسِهِ، فَمَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ، أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[5].

بصّرنا الله عيوبَ أنفسنا، ورزقنا الأنسَ به في اجتماعنا وخلوتنا، بمنّه وكرمه.

❁ ❁ ❁

---

(1) هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي أقام ببلخ. وصحب أحمد بن خضرويه، وغيره، وله تصانيف في الرياضيات. انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 97/1.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 223/1.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 226/1.

(4) ينسب البيتان لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحُمَيْديّ، ولمحمد بن فرج الغساني. انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقري التلمساني : 112/2.

(5) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 226/1.

أَكْـرِمْ بِخَلْـقِ نَبِـيٍّ زَانَـهُ خُلُـقٌ بِالحُسْـنِ مُشْـتَمِلٍ بالبِشْـرِ مُتَّسِـمِ
كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ وَالبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمِ
كَأَنَّـهُ وَهْـوَ فَـرْدٌ مِـن جَلالَتِـه فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ
كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ فِي صَدَفٍ مِـنْ مَعْـدِنَيْ مَنْطِـقٍ مِنْـهُ وَمُبْتَسَـمِ
لاَ طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَه طُـوبَى لِمُنْتَشِـقٍ مِنْـهُ وَمُلتَـثِمِ

شَرْحُ الْغَرِيْبِ

أَكْرِمْ بكذا : أيْ ما أَكْرَمه، صيغته أمر، ومعناه التعجّب.

زانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنىً؛ من الزِّينَة : وهو ما يُتَزَيَّنُ به. و"يوم الزِّينَةِ" : يومُ العيد. والزَّيْنُ : نقيض الشَّيْنِ. وتَزَيَّنَ وازْدانَ بمعون نًي : افْتَعَل من الزِّينة، ولِلَيْن مخرجِ التّاء لم توافق الزّاي؛ لشدّة مخرجها، فأُبدلت دالاً. فقالوا : مُزْدَان، ثمّ أدغموا فقالوا : مُزَان. وتصغيره مُزَيِّنٌ كمُخَيِّرٍ في مُخْتَار، ومُزَيِّين إذا عُوّضت. وفي الجمع مَزَاينُ ومَزَايين. وأَزْيَنَتِ الأرض بعشبها، وازَّيَّنَتْ مثله، وأصله تَزَيَّنَتْ، سُكّنت التّاء وأُدغمت، فاجتلبت همزة الوصل[1].

مُشْتَمِلٍ : من اشْتَمَلَ بثوبه؛ إذا تَلَفَّف فيه اشْتِمالاً[2].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2132/5. مادة زين.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1738/5. مادة شمل.

هذا حقيقة اللّفظ، وهو هنا مجاز؛ شبّه اتّصافه بالحُسن بثوب هو مُشْتَمِل به؛ أيْ صار الحُسن له كثوب مُشْتَمِل عليه، وكذا اشْتَمَل على أخلاق جنسه.

والبِشْر : طَلاَقة الوجه. وبَشَرَنِي فلان بوجه حَسن؛ أيْ لقيني. وهو حَسن البِشْر؛ أيْ طلقُ الوجه[1].

ومُتَّسِمِ : مِن اتَّسَمَ الرّجل، فهو مُتَّسِم؛ إذا جعل لنفسه سِمَةً يُعْرَفُ بها، وأصل التاء واوٌ؛ لأنّه مِن وسَمهُ وَسْماً وسِمَةً؛ إذا أثّر فيه بسِمَةٍ وكيّ. والهاء عوض من الواو. والوَسِمَةُ، بكسر السّين : العِظْلِمُ يُختضَب به، وتسكينها لغة. ولا تُضمّ واوها. والآمر منه : تَوَسّم. والوَسْمِيُّ : مطر الرّبيع الأوّل؛ لوَسْمِه الأرض بالنّبات - وقيل فيه غير هذا - فهي مَوْسومَةٌ. ومَوْسِمُ الحاجّ : لأنّه مَعْلَمٌ يَجتمِع إليه. ووَسَّمَ النّاسُ؛ إذا شهِدوه، كما يُقال في العيد : عَيَّدوا. وهو مَوْسُومٌ بالخير، وتَوَسَّمْتُه فيه؛ أيْ تَفرَّست[2].

والزَّهر : جمع زَهْرَة، بسكون الهاء؛ وهو نَوْر النّبات، والزَهَرَةُ بالتّحريك كذلك. وَأزْهَرَ النَّبتُ : ظَهَرَ نَوْرُهُ. وقيل : النّور : النّبت الأبيض، والزَّهْر : الأصفر؛ يكون أبيض، ثمّ يصفرُّ. وزَهْرَةُ الدُنْيا – بالتّسكين – : غَضارَتُها وحُسْنُها[3]؛ شبّه نعيمها بزَهْرة النّبات في ذلك، وفي سرعة التّغيّر.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 590/2. مادة بشر.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2051/5. مادة وسم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 674/2. مادة زهر.

التَّرَف : التَنَعُّم . وتقدّم ما فيه في "مُتْرَف الأَدَمِ".

والبدر : القمر عند تمامه؛ سُمِّيَ بذلك لمبادرته الشّمسَ بالطّلوع، كأنَّه يُعَجِّلها المَغِيبَ، وقيل : لتمامه وامتلائه، كلّ شيء تمّ فهو بدر، وسُمِّيت البَدْرَةُ - وهي عشرة آلاف درهم - لتمام عددها. وللقمر أسماء كثيرة، ولا يُسَمَّى قمرًا إلاّ بعد ثلاث، وهو قبلها هلال، وليلةُ البدرِ : ليلةُ أربعَ عشرةَ. وأَبْدَرْنا، فنحن مُبْدِرُونَ : طلع لنا البَدْرُ[1].

والشّرف : عَلْيُّ المنزلة. وتقدّم.

الدّهر : الزّمان؛ قال[2] :

إنَّ دَهْـراً يَلُـفُّ شَـمْلي بِجُمْـلٍ   لَزمـــانٌ يَهُـــمُّ بالإِحْســـانِ

وجمعه دُهورٍ. والدَهْرُ : الأَبَدُ. ودَهْرٌ داهِرٌ، كقولهم : أَبَدٌ أَبيدٌ. ودَهْرٌ دَهارِيرُ؛ أيْ شديدٌ، كلَيْلَةٌ لَيْلاءُ، ونَهارٌ أَنْهَرُ، ويَومٌ أَيْوَمُ، وسَاعةٌ سَوْءاءُ؛ قال[3] :

وَبَيْنَما المَرْءُ في الأَحْياءِ مُغْتَبِطٌ   إذا هُو الرَمْسُ تَعْفوهُ الأَعاصيرُ

حتّى كأنْ لـم يكـنْ إلاّ تَـذَكَّرُهُ   والـدَهْرُ أَيَّتَمـا حـالٍ دَهـاريرُ

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 586/2. مادة بدر.

(2) هو حسان بن ثابت. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 81/7.

(3) يُنسب البيتان لحُرَيث بن جَبلة العُذْري، ولجَبلة العُذْري، ولعِثْيَرِ بن لَبِيدِ العُذْرِيّ، ولأَبي عُيَيْنة المُهَلَّبي، والأصمعي، ويُنسب البيت الأوّل منهما للشريف الرضي. انظر البيتين في زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 108/3.

ولا آتيك دَهْرَ الدَاهرين؛ أيْ أبداً. وفي الحديث : «**لا تَسُبُّوا الدَهْرَ، فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللهُ**»[1]؛ كانوا يُضيفون الحوادث إليه، فيسبّونه، فقيل لهم : فاعلَ ذلك هو الله؛ أيْ الّذي يؤثّر إنّما هو الله. والدُهْريُّ بالضمّ : المُسِنُّ. وبالفتح : المُلْحِدُ[2].

والهِمَم : جمع هِمَّة. يُقال : هو بعيدُ الهِمَّةِ بكسر الهاء وفتحها؛ وهي الإرادة.؛ من هَمَمْتُ بالشّيء أهُمُّ هَمًّا : أردته. ويُقال: لا مَهَمَّةَ لي بالفتح، ولا هَمَامِ كقَطام؛ أيْ لا أَهُمُّ، ولا أفعله. والهُمَامُ : الملِك العظيم الهِمَّةِ[3].

وقيل : «الدّهر : الأبد الممدود، وقد تُفتح هاؤه». وقيل : «مدّة الأشياء السّاكنة، والزّمان : مدّة المتحرّكة». وقيل : «الزّمان مدّة اللّيل والنّهار. والدّهر فيه أزمنة كثيرة»[4].

الفَرْدُ : الوِتْرُ، والجمع أَفْرادٌ. وفُرَادَى شاذ، كأنّه جمع فَرْدَانَ. وثورٌ فَرْدٌ وفارِدٌ وفَرِدٌ وفَريدٌ؛ أيْ مُنفرِدٍ. وظَبيةٌ فارِدٌ : انقطعت عن القطيع؛ وكذا السِدْرَةُ المنفردة. والفَريد : الدُرُّ إنْ نُظِمَ وفُصِل بغيره. وفَرائِدُ الدرِّ: كبارها[5]. وفروع المادة كثيرة.

---

(1) رواه مسلم عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في الْأَلْفَاظِ مِنْ الْأَدَب وَغَيْرِهَا. بَاب النَّهْيِ عَنْ سَب الدَّهْرِ. ورواه غيره.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 661/2. مادة دهر.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2061/5. مادة همم.

(4) وسيعود الإمام ابن مرزوق – رحمه الله – إلى التفصيل في حقيقة الدهر لاحقاً.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 518/2. مادة فرد.

والجَلاَلة : العَظَمة، وجَلالُ اللهِ : عظَمَته. والجَلِيلُ : العظِيمُ، وكذا الجُلاَلُ بالضمّ. والجُلاَلَةُ : النّاقةُ العظيمةُ. ويُقال : جَلَّ فلان يَجِلُّ – بالكسر – جَلاَلَةً؛ أيْ عَظُمَ قَدْرُهُ، فهو جَلِيلٌ. والله الأَجَلّ؛ أيْ الأعظم[1].

والعَسْكَر : الجيش الكثير، مأخوذ من العَسْكَرَة؛ وهي الشِدَّةُ. وهي لغة فارسية عُرّبت.

قال ابن الأعرابي : «العَسْكَر : الكثير من كلّ شيء»[2].

وعَسْكَرَ الرجلُ فهو مُعَسْكِرٌ. والموضع : مُعَسْكَرٌ، بفتح الكاف[3].

وقيل : أقلّ العَسَاكِرِ الجَرِيدَةُ[4]، ثُمَّ السَّرِيَّةُ؛ مِنْ خَمْسِينَ إلى أَرْبَعْمائةٍ، ثُمَّ الكَتِيبَةُ؛ مِن [أَرْبَعمائةٍ][5] إلى أَلْفِ، ثُمَّ الجَيْشُ؛ مِنْ أَلْفِ إلى أَرْبَعَةِ آلافِ[6]، ثُمَّ الخَمِيسُ؛ مِنْ أَرْبَعَةِ آلاَفِ إلى آثْنَىْ عَشَرَ أَلْفاً، والعَسْكَرُ يَجمَعُهَا[7].

والحَشَم : خَدَمَةُ الرّجل، ومَن يغضب له، سُمُّوا بذلك؛ لأَنّهم يغضبون له. وتقدّمت المادة.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1657/4. مادة جلل.

(2) انظر قول ابن الأعرابي في المحكم. ابن سيدة : 2/ 416.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 746/2. مادة عسكر.

(4) وهي قطعة جردت من سائرها لوجه.

(5) في كلّ النسخ الخطية "مائة" بدل "أربعمائة". والصواب ما أثبته.

(6) وكذلك الفيلق والجحفل.

(7) انظر الكليات. أبو البقاء الكفومي : ص 1088.

واللُّؤْلُؤ واللآلئ؛ جمع لُؤْلُؤَة؛ وهي الدُرَّةُ. قال الفَرَّاء : «سمعتُ العرب تقول لصاحب اللؤْلؤِ : لأَّل، والقياس لأَّءٌ»[1].

قيل : «ولا يصحُّ في القياسِ ما أنكرَ ولا مَا أثبتَ؛ لأنّ اللُّؤْلؤ رباعيّ، و"فَعَّال" ثلاثيّ»[2].

وقيل[3] : «اللُّؤْلُؤ : الأحجار النّفسية المُستخرَجة من البحرَين، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[4]». وقيل[5] : «إنّما يُستخرج الدرّ مِن المالِح». وقيل[6] : «اللّؤلؤ كبار الحَبّ، والمُرجان صغاره». قيل : «وسُمِّي لُؤلؤًا لإضاءَته»[7].

والمَكْنون : المَصُون. كَنَنْتُ الشَّيء فهو مَكْنُون؛ أيْ صُنْته وسَترتُه. والكِنُّ : السُترة؛ والجمع أَكْنَانٌ. والأَكِنَّةُ : الأغطية، واحدها كِنَانٌ. وأكْنَنْتُهُ في نفسي : أسْرَرته. أبو زيد : «كَنَنْتُهُ وأكْنَنْتُهُ بمعنًى؛ في الكِنّ وفي النّفس». تقول : كَنَنْتُ العِلم وأَكْنَنْتُهُ، فهو مَكْنونٌ ومُكَنٌّ. وكَنَنْتُ الجارية وأَكْنَنْتُها، فهي مَكْنونَةٌ ومُكَنَّةٌ. والكُنَّةُ بالضمّ :

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 70/1. مادة لألأ.

(2) انظر المحكم. ابن سيده : 392/10. مادة لألأ.

(3) نقله الأخفش عن قوم، ورجحه الإمام الثعالبي. انظر تفسير الجواهر الحسان. الثعالبي : 350/5. وانظر فيض القدير. الشوكاني : 161/5.

(4) سورة الرحمن : الآية 22.

(5) يعزى لمُقَاتِل. انظر فيض القدير. الشوكاني : 161/5.

(6) يعزى للفراء، ويعزى لمُقَاتِل وَالسُّدِّيّ وَمُجَاهِد العكس. انظر فيض القدير. الشوكاني : 161/5.

(7) يُقال : أبصرت لَألْاَء السراج : أيْ ضوءه. انظر أساس البلاغة. الزمخشري : 153/2.

سَقيفة تُشْرَعُ فوق باب الدّار، والجمع كُنَّاتٌ. والكِنانَةُ : ما يُجعل فيه السّهم. واكْتَنَّ واسْتَكَنَّ : استتر[1].

وصَدَفُ الدُرّةِ : غِشاؤها، الواحدة صَدَفَةٌ[2].

والمَعْدِن : بكسر الدّال مِن عَدَنْتُ البلد : تَوطَّنته. وعَدَنْتُ الإبلَ بمكانِ كذا : لزِمته. وجَنّات عَدْنٍ؛ أيْ إقامة. وسُمّي المَعْدِنُ؛ لأقامة النّاس فيه الصّيف والشّتاء. ومركزُ كلِّ شيء : مَعْدِنُه. والعادِنُ : النّاقة المقيمة في المرعى[3].

والمَنْطِق : الكَلامُ. ونَطَقَ نُطْقاً، وأنْطَقَهُ غيره، ونَاطَقَهُ واسْتَنْطَقَهُ؛ أيْ كلّمه. والمِنْطيقُ: البليغُ[4].

والمُبتَسَم : بالفتح؛ موضع الابْتِسَام.

قال الجوهري : «والتَبَسُّمُ : دون الضحك. يقال : بَسَمَ – بالفتح – يبسِمُ بَسْماً فهو باسِمٌ، وابْتَسَمَ وتَبَسَّمَ. والمَبْسِمُ : الثّغر؛ كالمجلس. ورجلٌ مِبسَامٌ وبَسّامٌ : كثير التَبَسُّم»[5].

والطِّيب : قال الجوهري : «ما يُتَطَيَّب به»[6]. وبالجملة ما له رائحة طَيّبة.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2188/6. مادة كنن.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1384/4. مادة صدف.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2162/6. مادة عدن.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1559/4. مادة بسم.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1872/5. مادة بسم.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 173/1. مادة طيب.

ويَعْدِلُ بالكسر : أيْ يُماثِل. قال الأخفش : «العِدْلُ بالكسر : المِثْلُ، وبالفتح أصله مصدر عَدَلتُ به عَدْلاً حسناً، تجعله اسماً للمِثْلِ؛ لتفرّق بينه وبين عِدْلِ المتاع». وقال الفَرَّاء: «بالفتح ما عادَلَ من غير الجنس؛ كالقيمة مثلاً، وبالكسر : المِثْلُ. وربّما كَسر الأوّل بعضُ العرب، وكأنَّه غلطٌ. وأجمعوا على كسر واحد الأَعْدَال[1]». والعَديلُ : من يُعادِلُكَ في الوزن والقَدْر. ويُعادِلُ أمره ويُقَسِّمُهُ؛ أيْ يُمَيِّلُ بين أمرين أيّهما يأتي[2].

والتُّرْب : التُرابُ، ويُقال أيضاً : تَوْرَاب وتَوْرَب وتَيْرَب وتُرْبَةٌ وتَرْباءُ وتَرِيب وتِرْيَبٌ، وجمع التُرَاب أَتْرِبَةٌ وتِرْبَانٌ. والتَرْباءُ : الأرضُ نَفْسُها. وتَرِب الشَيْءُ بالكسر : أصابه التُرابُ. ومنه تَرِب؛ أيْ افتَقَرَ، كأنَّهُ لَصِقَ بالتّرابِ. وتَرِبَتْ يَداك؛ أيْ لا أَصَاب خيراً. وتَرَّبْتُ الشَيْءَ فَتَتَرَّبَ : تَلَطَّخَ بالتّرابِ. وأَتْرَبْتُه : جعَلْتُه عليه. وفي الحديث : «**أَتْرِبُوا الكِتَاب فَإِنَّهُ أَنْجَحُ لِلْحَاجَةِ**»[3]. وأَتْرَب الرَجُلُ : استَغْنَى؛ أيْ صار ماله بقَدْرِ التّرابِ. ومِسكينٌ ذو مَتْرَبَةٍ : لاصِقٌ بالتّرابِ. وريحٌ تَرِبَةٌ : جاءَتْ بالتّرابِ[4].

---

(1) أيْ : مفرده عِدْلٌ. وفي المطبوع من الصحاح للجوهري: "الأَعْدُلِ" بدل "الأَعْدَال". وما أورده ابن مرزوق موافق لِما في لسان العرب لابن منظور. انظر: 433/11.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1760/5. مادة عدل.

(3) أصل الحديث عند الترمذي عن عَنْ جَابِرٍ مرفوعا في الاستئذان والآداب. بَاب مَا جَاءَ فِي تَتْرِيبِ الْكِتَابِ. وقال : هذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 90/1. مادة ترب.

وضَمَّ : جَمَع. وضَمَمْتُه إليه فانْضَمَّ، وضَامَّهُ وتَضَامُّوا : انْضَمَّ بعضهم إلى بعض. واضْطَمَّت عليه الضلوعُ : اشتملتْ. والإضْمَامَةُ : الجماعةُ، والجمع الأضَامِيم. والضِمَامُ بالكسر : ما تَضُمُّ به شيئاً إلى شيء. وأسدٌ ضَمَاضِم : يَضُمّ كلّ شيء[1].

وأَعْظُمَه : جَمْع عَظْم. وجَمْعه في الكثرة عِظَام.

وطُوبى : قيل يحتمل أنْ يكون مصدر طَابَ يَطِيب؛ كالبُشْرَى والزُّلْفَى.

وقال الجوهري : «طُوبَى : فُعْلى من الطِّيب، قلبوا الياء واواً للضمّة قبلها[2]. ويُقال : طُوبَى لك، وطُوبَاكَ بالإضافة. قال يعقوب[3] : "ولا تقل طُوبِيك بالياء". وقيل : هي شَجَرةٌ في الجَنَّةِ»[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1972/5. مادة ضمم.

(2) أيْ أصْلُها طُيْبَى.

(3) هو ابن السكيت، وقد سبقت ترجمته.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 173/1. مادة طيب.

[معاني طوبى]

وقيل[1] : أرضُ الجَنَّةِ. وقِيلَ[2] : اسْمُ الجَنَّةِ بالحَبَشية، وقيل[3] : بالهِنْدِيَّةِ. وقيل : البستان بلغة اليمن. وقيل[4] : فَرَحٌ تقرّ به العين. وقيل[5] : شجرة في الجنّة مَسِيرة مائة عام، يخرج من أكمامها ثياب أهل الجنّة. وقيل[6] : هي في جنّة عَدْن، وأصلها في داره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس في الجنّة موضع إلاّ وفيه غصن منها، وفيها من كلّ لون وزهرة - خَلَق الله سبحانه - إلاّ السّواد، وفيها من كلّ فاكهة خُلِقت، ينبع من أصلها عينان؛ الكافور والسّلسبيل[7].

وسأل أعرابي النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَفِي الجنّة فاكهة؟ قال : «**فيها شَجَرَةِ طُوبَى**». قال : أيّ شجر أرضنا تُشبه؟ قال : «**إنّما تشبه شَجَرَةً بالشّام تُدعى : الْجَوْزَ، عَلَى سَاقٍ وَاحِدٍ، ويَنْتَشِرُ أَعْلاَهَا**». قال : ما عِظَمُ أَصْلِهَا؟ قال : «**لو ارْتَحَلَتْ جَذَعَةٌ مِنْ إبل أَهْلِكَ، مَا أَحَاطَت بِأَصْلِهَا حتّى تَنْكَسِرَ تُرْقُوَتُها هَرَمًا**»[8].

---

(1) القائل ابن عباس، وروي عنه أنها أرض الجنة بالحبشية.

(2) القائل ابن عباس في رواية أخرى، رواها عنه سَعِيد بْن جُبَيْر.

(3) نسب لسعيد بن مسجوع وللربيع.

(4) مروي عن ابن عباس.

(5) مروي عن أبي هريرة.

(6) مروي عن عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرِ.

(7) انظر تفسير القرطبي : 316/9.

(8) رواه أبو نعيم عن عتبة بن عبد السلمي في كتابه صفة الجنة : الحديث رقم 370.

وقال الفَرَّاء : «هي من الطِّيب»[1].

فطُوبَى لك؛ أيْ أصبتَ خيرًا[2]، وقيل : داوم الخير، وجاءت الواو لضمّ الطّاء. ويُقال فيها أيضاً طِيْبَى. وقيل : معناها غِبطة. وقيل : نِعْمَ ما لهم[3]. وقيل : كرامة من الله[4]. وقيل : العيش الطَيِّب. وقيل : خير[5]. وقيل فيها غير ذلك[6].

ومُسْتَنْشِق : اسم فَاعل مُسْتَفْعِل من اسْتَنْشَق. هكذا هو عند شيخنا أبي العبّاس القصّار رحمه الله. وعند كثير "مُنْتَشِق"؛ مُفْتَعِل من نَشَقَ.

فالأوّل : من قولهم : اسْتَنْشَقْتُ الريح : شَمِمْتُها، واسْتَنْشَق الماء وغيره : أدخلتَه في الأنف[7].

والثّاني : يشبه أنْ يكون من نَشِقْتُ منه ريحاً طيّبةً بالكسر؛ أيْ شَمَمْت. وريحٌ مكروهَةُ النَشَقِ؛ أيْ الشَمّ. والنَشُوقُ : سَعوطٌ يُجعلُ في المنخرين. وقد أَنْشَقْتُهُ إِنْشَاقاً. فالمُسْتَنْشِق أو المُنْتَشِق : الشَامّ والمُشْتَمّ[8].

---

(1) قالوا : (طُوبَى) فُعْلَى مِنَ الطِّيبِ؛ كَانَ فِي أَصْله طِّيبَى، فقَلَبُوا الْيَاءَ وَاوًا لِضَمَّةِ مَا قَبْلَهَا : انظر الصحاح. الجوهري : 173/1. وانظر قول الفراء في تفسير البغوي : 316/4.

(2) مروي عن قتادة.

(3) مروي عن عكرمة.

(4) مروي عن إبراهيم.

(5) مروي عن إبراهيم.

(6) انظر معاني طوبى في كتاب صفة الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم. ابن أبي الدنيا : ص 80 وما بعدها. تفسير البغوي : 316/4.

(7) انظر الصحاح. الجوهري : 1558/4. مادة نشق.

(8) انظر الصحاح. الجوهري : 1558/4. مادة نشق.

والمُلتَثِم : اسم فاعل من الْتَثَمَ. قيل : المُقبِّل.

وقال شيخنا أبو العبّاس القصّار : «هو من الْتَثَمَ يَلْتَثِم؛ إذا شدَّ اللِثامَ، وهو النِقاب».

والمعنى : طُوبى لمن عفّر وجهه بتُربه، فصار له مثل اللّثام، يجوّز به في هذا المعنى.

قال : «ولا يصحّ أنْ يكون من التَّقْبيل؛ لأنّه لا يُقال في معناه الْتَثَمَ، بل لَثِم بالكسر والفتح. قال[1]:

فلَثِمْــتُ فاهــا آخِـذاً بِقُرُونِهـا　　شُرْب النَّزِيفِ ببردِ مَاءِ الحَشْرَجِ

قلتُ : وهذا لا يتمّ؛ إلاّ إذا نصّوا على أنّه لا يُشتقّ من "لَثَمَ" – بمعنى قبّل – افْتَعَل.

ولَثَمَ البعير الحجارة بخُفِّه يَلْثِمُها : كسرها. وخُفٌّ مُلَثَّمٌ : يصكّ الحجارة. ولَثَمَت الحجارةُ خُفَّه بالكسر : أصابته وأدْمَته. وخُفٌّ مُلْثومٌ؛ كمَرْثُومٍ. واللُثْمُ – بالضمّ – جمع لاَثِمٍ. قال الفَرَّاء : «اللِثَامُ : ما كان على الفم من النِقاب، واللِفَامُ : ما كان على الأرنبة». ولَثَمَتِ المرأةُ تَلْثِمُ لَثْماً، والْتَثَمَتْ وتَلَثَّمَتْ : شدَّت اللِثَامَ. وهي حسنةُ اللِثْمَةِ واللَّثْمُ: القُبْلَةُ[2].

---

(1) ينسب هذا البيت لعُبَيْد بن أوْس الطَّائِيّ، وقاله في أخْت عَدِيّ بن أوْس. كما ينسب أيضاً لعمر ابن أبي ربيعة، ولجميل. انظر البيتين في زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 92/2.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2026/5. مادة لثم.

التَّفْسِيْرُ

[بعض الصّفات الموجبة لخيرية الرّسول عليه السّلام وأدلّتها]

لمّا ذَكَر – قبلُ – أنّ الورى أعياهم فهم معناه على التّمام والكمال، وأنّ مَبلغ عِلمهم فيه أنّه بشرٌ، وأنّه خير خَلق الله كلّهم، أَخَذَ يذكر بعض ما اتّصف به ممّا أوجب لهم الحُكم بأنّه خير خَلْق الله، على أنّ اعتقاد ذلك الحُكم إنّما هو بإخباره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وخبرُه صِدقٌ؛ لدلالة المعجزة، إلاّ أنّ العِلم باشتماله على الأوصاف المذكورة، ممّا يزداد به الإيمان بصِدق خبره؛ ولِذا قال الأئمّة من أهل عِلم الكلام رضي الله عنهم : البرهان على صحّة النّبوّة يكون "لِمِيا" و"إنّيا"[1]؛ ويعنون بـ "اللِّميّ" الّذي يُشكّ فيه بـ "لِمَ"، فيُقال : لِمَ كان نبيّا..؟ فيُقال : لأنّ المعجزة ظهرت على يديه. وكأنّه استدلال بالعِلّة على المعلول، والسّبب على المُسبَّب. ويعنون بـ "الإِنّيّ" الّذي يُقال فيه : "إنّما" كان نبيّا؛ لأنّ مِن خَلْقه كذا، ومن أَخْلاقه كذا، وتلك صفة الأنبياء. وكأنّه عكس الّذي قبله؛ لأنّ فيه الاستدلال بالنّتيجة على الدّليل، والمعلول على العلّة، والمُسبَّب على السَّبَب. ومنه قول النّاظم بعدُ : "كفاكَ بالعِلْمِ.." البيت. وهذا الّذي أَخَذ يُقرّر هنا منه، وذَكَره هنا أيضاً لئلاّ يُتوهّم أنّ ما أخبر عنه بـ "مَبلغ العِلم.."؛ إنّما يُعتقد اعتقادًا جُمْلِيًّا كُليًّا، ولا يُحاط بشيء من تفاصيله وجزئياته.

---

(1) انظر معناهما في ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ص 418.

فمعنى "أَكْرِمْ بِخَلْقٍ.." البيت؛ أنّه لمّا أخبر عنه بأنّه "شَمْس فَضل" كما تقدّم، استحقّ أنْ يُتعجّب مِن كرامة خَلْقه، فيُقال : ما أَكْرم خَلْق نبيّ؛ أيْ صورة نبيّ موصوفة بأنّها شمس فضل، وبلا شكّ أنّه عُهد تشبيه الصّورة الفائقة في الجمال بالشّمس، فما بالك بجمال ما يشبه شمسَ الفضل، ثمّ مع ذلك الجمال الصّوري زان ذلك النّبيّ المشبّه بها - أو زان ذلك الخَلق؛ لأنّ المراد به المَخلوق، فهو هو - خُلُقٌ؛ أيْ أخلاق.

وقوله : "بالحُسْنِ مُشْتَمِل" من صفة نبيّ أو خَلْقٍ؛ أيْ نبيّ مشتمل بالحُسن، متّسم بالبِشر، أو خَلْق كذلك، إذ الغرض أنّه بمعنى المخلوق. ويحتمل أنْ يكون "مُشتمِل" و"مُتّسم" مرفوعين صفةً للخُلُق، وهذا وجه حسنٌ، لولا ما فيه من الإِقْواء في خفض "مُتّسم" المرفوع، ووجه حُسن هذا الوجه قُربه من التّجريد؛ كأنّه بَلَغ من غاية حُسن أخلاقه أنْ جُرِّد منه شيء يُسَمَّى الخُلُق. مُشتمِل بالحُسن؛ أيْ صار الحُسن له كالثّوب، فهو مُشتمِل به. ومُتّسم بالبِشر؛ أيْ مُعَلَّم بطلاقة الوجه. ويُروى "بالبِرّ"؛ أيْ مَعَلَّم بالصّدق، أو به وبغيره من سائر أعمال البرّ. وهذا أَمْدَح لعمومه. ويحتمل أنْ يكون "مُشتمِل" مرفوعاً؛ صفةً لـ "خُلُق"، و"مُتّسم" مخفوضاً؛ صفةً لـ "نبيّ" أو لـ "خَلْق"، وجملة "زَانَهُ خُلُقٌ مُشْتَمِلٌ بالحُسْنِ" اعتراضية بين الصّفة والموصوف.

وقال بعضهم : «اقتضى لفظه التّعجّب من خِلْقته، وحقيقته غير مرادة، فإنّ الكَرَم ليس من أوصاف الخِلقة، فمراده : مِن جَمال خِلْقته. لقوله : "بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ". ولو قال : أحسن بخَلق نبيّ، لانزاح السّؤال». انتهى.

قلتُ : إنْ بُنى هذا الكلام على أنّ الخَلْق التّأثير، فلا يُوصف بالكرم، فيقول حينئذٍ: إنّه خلاف ما قُرّر في قوله : "وأنّه خَير خَلْقِ اللهِ"، فإنّه قال : هذا المصدر مخالف لسائر المصادر، فإنّها كلّها معناها التّأثير القائم بالفاعل المغاير له وللمفعول، وأمّا الخَلْق فنفس المفعول، فينبغي له هنا الجَرْي على ذلك السَّنَن، ولا يرِد السّؤال. ثمّ ولئن سُلِّم أنّ الخَلْق التّأثير، فلا نُسلّم امتناع وصفه بالكَرَم، باعتبار متعلّقه، ثمّ ما أَلْزَم يلزمه أيضاً على تقديره، فإنّ قوله : جمال خِلْقته هو من إضافة الصّفة إلى الموصوف؛ أيْ الخِلْقة الجميلة، فإنْ امتنع وصفها بالكرم، امتنع بالجمال، وإنْ صحّ الجمال فيها، باعتبار أنّها المخلوق، فكذا الكرم.

وقوله : ولو قال أَحْسِنْ.. لانزاح السّؤال. إنْ كان مَبنَى البحث ما قلناه، فلا فرق بين العبارتين من تلك الحيثية، وإنْ بَنَى كلامه على الفرق بين مادة "كرم" و"حسن"، أو على معنى آخر، فلم أفهمه، فتأمّله.

ويحتمل أنْ يكون قوله : "بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ" راجعاً إلى خَلْق، و"بالبِشر متّسم" راجعاً إلى خُلُق، ويؤيّد هذا قوله في البيت بعده : "كالزَّهرِ"؛ أيْ خَلْقه الّذي هو ذاته كالزّهر.

ويحتمل أنْ يريد جميع ما يُسَمَّى زهرًا من النَّوْر العطِر الرّائحة الغضّ النّبات. ويحتمل أنْ يريد بعض ذلك؛ ممّا غلب عليه ذلك الاسم عندنا بالمغرب، حتّى صار عَلَما فيه، وهو نَوْر "شجر النَارَنْج"[1] وشبهه كالأترج وغيره ممّا أشبهه.

---

(1) هو شجر من نوع الحمضيات، ومنتشر في الجزائر وغيرها من بلدان حوض المتوسط.

وقوله : "فِي تَرَف"؛ أيْ في تَنَعّم؛ من نضارة جسم، وطِيب رائحة، وهذه صفة الأزهار؛ غضّة الجسم رطبة، طَيّبة الرّائحة، ويزيد نَوْر النَارَنْج بياض اللّون؛ الّذي هو ليس بالأمهق كما هو بياض نبيّنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبذلك وصفه بعض الصّحابة رضي الله عنهم، فقال : «رأيتُ سَاقَه فِي غَرَز الرّكاب، كَأَنَّه جُمَّارَةٌ»[1]. يعني في بياض اللّون والطّراوة.

وقوله : "والبَدْر"؛ أيْ وتلك الذّات الموصوفة بأنّها كالزَّهْر فيما ذُكر، هي أيضاً في الشّرف وحسن البهجة؛ كالبدر، وقد قدّمنا أنّه لا يُسَمَّى كذلك إلاّ ليلة أربعة عشر، وذلك أتمّ أحواله وأشرفها، وهذان الوصفان؛ أعني كالزَّهْر والبدر؛ ممّا يرجعان إلى الصّورة والخَلْق المُشتمِل على الحُسن.

وقوله : "وَالبَحْرُ"؛ أيْ وهو باعتبار أَخلاقه المتّسمة بالبِشر والطّلاقه كالبحر فيما يرجع إلى الكرم منها، وكرم البحر لا خفاء به، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ.. ﴾ الآية[2].

فهذا من كرم البحر، فما بالك بكرم مَنْ البحر نقطة من جوده: "فإنَّ من جُودِكَ الدّنيا وضَرَّتها.." البيت. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرّف وكرّم.

---

(1) رواه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم المدلجي : 133/7. رقم الحديث : 6602.

(2) سورة النحل : من الآية 14.

وقوله : "والدَّهْر"؛ أيْ وهو كالدّهر فيما يرجع مِن الأخلاق إلى الهمم؛ أيْ إلى إرادته الّتي يريدها من إعطاءٍ ومَنْعٍ، وضرٍّ ونفعٍ، وهذا باعتبار ما جرت به عادة الأُدباء، من تشبيه الهِمَم بالدّهر، حتّى قال قائلهم[1] :

لـه هِمَـمٌ لا مُنْتَهَـى لِكِبَارِهَـا وَهِمَّتُه الصُّغْرَى أَجَلُّ من الدَّهْرِ

ووجه هذا التّشبيه : أنّ الحادثات الدّقيقة والجليلة إنّما تقع في الدّهر، فنسبوها إليه، فالدَّهري الجاهل يعتقد إسناد الفعل إليه، والموحّد المؤمن يعتقد أنّ المؤثّر في جميع الكائنات هو الله تعالى، فإذا أسندَ إلى الدّهر فعلاً، فعلى سبيل المجاز؛ لأنّه واقع فيه، كقولهم نهاره صائم، وليله قائم؛ أسند الصّوم إلى النّهار والقيام إلى اللّيل مجازًا؛ لوقوعهما فيهما.

(1) ينسب هذا البيت لبكر بن النّطّاح الحنفي، وقاله في وصف أبي دُلف العجلي. وينسب أيضاً لحسان بن ثابت، وابنُ أَبِي زُرُعَةَ. انظر الكامل. المبرد: 95/3. الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي: 34/9. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 208/1.

[حقيقة الدّهر]

والدّهر في الحقيقة لا وجود له في الخارج عند المتكلّمين؛ لأنّه عندهم عبارة عن مقارنة حادث لحادث، والمقارنة أصل اعتباريّ عدميّ، وكذا ينبغي في التّحقيق أنْ يكون عند مَن حدّه من الحكماء : بمقدار حركة الفلك. وأمّا مَن عرّفه منهم : بأنّه حركة الفلك. فإنّه وإنْ كان وجوديًا، إلاّ أنّه لا يصلح للتأثير(1).

ومن نسبة الهمّة إلى الدّهر قول معاوية رضي الله عنه : «نَحْنُ الزَّمَانُ؛ مَنْ رَفَعْنَاه ارْتَفَعَ، وَمَنْ وَضَعْنَاهُ اتَّضَعَ»(2). وكأنّ الدّهر باعتبار ما

---

(1) الدّهر أو الزمان باعتبار تعين حقيقته فيه مذاهب خمسة هي :

- أحدها : قال بعض قدماء الفلسفة؛ إنّه جوهر لا عرض مجرد عن المادة، لا جسم مقارن لها، لا يقبل العدم لذاته، فيكون واجباً بالذات.
- وثانيها : أنّه الفلك الأعظم؛ لأنه محيط بالكلّ؛ أيْ بكلّ الأجسام المتحرّكة المحتاجة إلى مقارنة الزمان، كما أنّ الدّهر محيط بها أيضاً.
- وثالثها : أنّه حركة الفلك الأعظم؛ لأنّها غير قارة كما أنّ الدّهر غير قار أيضاً.
- ورابعها : وهو المشهور فيما بين الفلاسفة،وهو ما ذهب إليه أرسطو ومَن تبعه من أنّه مقدار حركة الفلك الأعظم.
- وخامسها : وهو مذهب الأشاعرة، وهو أنّه متجدّد معلوم يقدر به متجدّد مبهم إزالة لإبهامه، وقد يتعاكس التقدير بين المتجدّدات، فيُقدَّر تارة هذا بذاك وأخرى ذاك بهذا، وإنّما يتعاكس بحسب ما هو مُتصوّر ومعلوم للمخاطب.

انظر المواقف. الإيجي : 539/1 وما بعدها.

(2) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 9/6.

يقع فيه من الحوادث، لا يرضى إلاّ بالغاية من ذلك الحادث، فإذا رفعَ بلغَ الغايةَ، وإذا وضعَ وصلَ النّهايةَ.

ومن قول النّاس: إذا استقامت قادتها شَعرة، وإذا ولّت قطعت السّلاسل.

ومنه قوله[1]:

إذا جَادَتِ الدُّنيا عَلَيْكَ فَجُدْ بِهَا   عَلَى النَّاسِ طُراً قَبْلَ أَنْ تَنَقَّلَت

فَلاَ الجُودُ يُفْنِيْهَا إذا هِيَ أَقْبَلَتْ   ولا البُخْلُ يُبْقِيْها إذا هِيَ وَلَّت

وهي كلّها صفات ذي الهمّة العالية؛ إن أعطى أعطى كثيرا، وإن منع حرم خطيرا. ثمّ لا يتعاظم عنده إعطاء ولا منع، فتبيّن أنّ وصفَي البحر والدّهر راجعان إلى الخُلُق.

فَسَبْك البيتين على هذا : "أكرمْ بخَلقِ نبيّ"، "مُشْتَمِلِ بالحُسْنِ"، "كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ"، وقد "زَانَهُ خُلُق"، "مُتَّسِم بالبِشْرِ"، "كالبَحْر في كَرَمِ والدهْرِ في هِمَمِ".

---

(1) هو إبْرَاهِيْمُ بنُ المَهْدِيِّ. انظر زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 335/1. الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 4o3/2.

[الاستدلال لما أشار إليه النّاظم من المعاني]

وأمّا تصحيح ما أشار إليه النّاظم من حُسن صورته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحاديث، فتقدّم من ذلك من حديث أبي هريرة وغيره جملة وتفصيلا ما يكفي في الإشارة إليه، إذ لا سبيل لمقاربة الإحاطة، وكذا تقدّم في الحديث المذكور بعض أخلاقه.

وأمّا ما أشار إليه من قوله : "بالبِشْرِ مُتَّسِم"، على أنْ يكون المراد طلاقة الوجه، فمن ذلك قول عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ : «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1]. وفي صحيح البخاريّ عن جَرِير بْن عَبْدِ اللهِ : «مَا حَجَبَنِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ»[2].

وقد يحتمل أنْ يكون قوله : "بالبِشْرِ مُتَّسِم" راجعاً إلى وصفه بالكرم، فيقابله "وَالبَحْرُ.."، ولا شكّ أنّ استبشار المسؤول عند سؤال الحاجات من شِيم الكرماء، وضدّه من شِيم البخلاء، ومن أمثلتهم : "بسّام العشيات". وقال[3] :

(1) رواه الترمذي في المناقب باب في بَشَاشَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورواه غيره والحديث صحيح.

(2) انظر صحيح البخاري في المناقب. بَاب ذِكْرُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(3) ينسب البيتان لحاتم الطّائي، ولعمرو بن الأهتم، وأَحْمَدُ بنُ سَعِيْدِ بنُ خَدَاشِ الخُزَيْمِيّ. انظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 415/3. زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 274/1.

أكَاشِر[1] ضَيْفِي قَبْل إنْزَالِ رَحلهِ　　فَيُخْصِب عِنْدِي والمَحَلُّ جَدِيبُ
وَمَا الخَصْبُ للأضْيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى　　وَلَكنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ رَحِيبُ[2]

وقال[3] :

بَقَّيْتُ وَفْرِي وَانْحَرَفْتُ عَنِ العُلاَ　　وَلَقِيتُ أضْيَافِي بَوَجْهِ عَبُوسِ
إنْ لَمْ أشُنَّ عَلَى ابنِ هند غَارَةً　　لَمْ تَخْلُ يَوْماً مِنْ ذهَابِ[4] نُفُوسِ

وقال[5] :

أنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكًا أَبَدًا　　وَهُوَ إِذَا جَادَ هامل[6] العَيْنِ

وقد قدّمنا[7] بعض ما ورد من كرمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كإعطائه غنماً بين جبلين لرجل، وما أعطى العبّاس رضي الله عنه، وقول الرّجل : «إنّ محمّدا يُعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر».

وقد يكون قوله : "بالبِشْرِ مُتَّسِم" كناية عن حسن أخلاقه كلّها، وناهيك في سماحة أخلاقه ما في الصّحيح من قول أنس : خدمته صَلَّى

---

(1) المحفوظ : "أضاحك" بدل "أكاشر".
(2) المحفوظ : "خصيب" بدل "رحيب".
(3) هو مالك بن الحارث الأشتر النخعى. انظر الأمالي. أبو علي القالي : 85/1.
(4) ويروى : نِهَابِ.
(5) هو أبو الفرج الوأواء الدّمشقي، وسبق توثيقه.
(6) المحفوظ : "هامع" بدل "هامل".
(7) وذلك في شرح قول الناظم : فاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ...

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِيْنَ – وفي رواية تسعاً – فَمَا قَالَ لِيْ أُفٍّ قَطُّ، وما قَالَ لِيْ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ : لِمَ تَرَكْتَهُ؟[1].

وفي مسلم عن عائشة : مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا بِيَدِهِ قَطُّ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ[2].

وتأمّل ما وقع في الصّحيحين من قصّة الّذي قال له حين قسم المال : اعْدِل[3]. والّذي قال : إنّها لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ[4]. وجَبْذ

(1) رواه الترمذي في البر والصلة. بَاب مَا جَاءَ فِي خُلُقِ النَّبِيِّ. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(2) انظر صحيح مسلم في الفضائل. بَاب مُبَاعَدَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنْ الْمُبَاحِ أَسْهَلَهُ وَانْتِقَامِهِ لِلَّهِ عِنْدَ انْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ.

(3) الحديث بتمامه : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ غَنِيمَةً بِالْجِعْرَانَةِ إِذْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ اعْدِلْ، فَقَالَ لَهُ : «لَقَدْ شَقِيتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ». انظر صحيح البخاري في فرض الخمس. بَاب وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْخُمُسَ لِنَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ. صحيح مسلم في الزكاة. بَاب ذِكْرِ الْخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ.

(4) الحديث بتمامه : عَبْدَ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَغَضِب حتّى رَأَيْتُ الْغَضَب فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ : «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذَا فَصَبَرَ». انظر صحيح البخاري في أحاديث الأنبياء. بَاب حَدِيثِ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام. صحيح مسلم في الزكاة. بَاب إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ.

الأعرابي له ببُرْده، حتّى أثّرت حاشيته في عنقه[1]. وما في البخاري من أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما خُيّر بين أمرين، إلاّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا[2]. وعفوه عن لَبِيد بْنِ الأَعْصَمِ؛ الّذي سَحَرَه[3]. وعن اليهود الّذين سَمُّوا له الشّاة[4]. وأمّا اليهودية فاختلفت الرّوايات في قَتلها، لكن من أجل موت صاحبه بذلك السُمِّ، فهو إنْ ثبت قصاص[5].

وخرّج مالك ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْأَف النَّاسِ بالنّاسِ، وخَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وأَنْفَعَ النَّاسِ لِلنَّاسِ[6].

وفي مسلم عن أنس : «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[7]. وفيه عنه أيضاً : «أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ

---

(1) الحديث بتمامه : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حتّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ : مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ «أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ». انظر صحيح البخاري في فرض الخمس. بَاب مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي المُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الخُمُسِ وَنَحْوِهِ.

(2) انظر صحيح البخاري في الحدود. بَاب إِقَامَةِ الحُدُودِ وَالِانْتِقَامِ لِحُرُمَاتِ اللَّهِ.

(3) انظر صحيح البخاري في الجزية. بَاب هَلْ يُعْفَى عَنِ الذِّمِّيِّ إِذَا سَحَرَ.

(4) انظر صحيح البخاري في الطب. بَاب مَا يُذْكَرُ فِي سُمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(5) وهذا الذي رجّه ابن حجر العسقلاني. انظر فتح الباري : 497/7.

(6) الحديث لم يروه مالك ومسلم. ولم يجد له السبكي إسنادا في تخريجه لأحاديث الإحياء.

(7) انظر صحيح مسلم في الفضائل. بَاب رَحْمَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصِّبْيَانَ وَالْعِيَالَ وَتَوَاضُعِهِ وَفَضْلِ ذَلِكَ.

يَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَيَقْرَأُ بِالسُّورَةِ الْقَصِيرَةِ من أجل أمّه»[1]. وفيه عن جابر[2] : اسْتَقْبَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِلْدَانٌ فَمَسَحُ بخَدَّيهم وَاحِدًا، وَاحِدًا، وَمَسَحَ بخَدِّي، فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ[3]. وفيه حديث حَمْل أمامة بنت أبي العاص بنت زينب ابنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا سَجَدَ وَضَعَهَا، وإذَا رَفَعَ رَفَعَهَا[4]. وفي النّسائي عن بُرَيْدَةَ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخطب، فجاء الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَطَعَ الخُطْبَةَ، وَرَفَعَهُمَا، وَعَادَ.. الحديث[5]. وفيه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ أَبِيهِ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج فِي إِحْدَى صَلاَتَي العَشِيّ، وقد حمل أحدهما فَوَضَعَهُ، ثُمَّ صَلَّى، وأَطَالَ بَين ظَهْرَانَيْ صَلاَتِهِ سَجْدَةً. قَالَ : فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِه، فَرَجَعْتُ إِلَى السُجُودِ، فَلَمَّا فَرَغَ، قيل : يَا رَسُولَ اللهِ أَطَلْتَ سَجْدَةً، فظَنَنَّا أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ. فقَالَ «**لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حتّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[6]. وقالت عائشة : مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، إلاّ قَالَ : لَبَّيْكَ[7].

---

(1) انظر صحيح مسلم في الصلاة. بَاب أَمْرِ الْأَئِمَّةِ بِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ فِي تَمَامٍ.

(2) هو جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ.

(3) انظر صحيح مسلم في الفضائل. بَاب طِيبِ رَائِحَةِ النَّبِيِّ وَلِينِ مَسِّهِ وَالتَّبَرُّكِ بِمَسْحِهِ.

(4) انظر صحيح مسلم في الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ. بَاب جَوَازِ حَمْلِ الصِّبْيَانِ فِي الصَّلَاةِ.

(5) انظر سنن النسائي في الجمعة. بَاب نُزُولِ الْإِمَامِ عَنْ الْمِنْبَرِ قَبْلَ فَرَاغِهِ مِنْ الْخُطْبَةِ وَقَطْعِهِ كَلَامَهُ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

(6) انظر سنن النسائي في التطبيق. بَاب هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ سَجْدَةٌ أَطْوَلَ مِنْ سَجْدَةٍ.

(7) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتابه أخلاق النبي. الحديث رقم : 2.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُ المسَاكين، ويَسألُ عَنهم، ويُجالسُ الفُقَرَاءَ، وَيَرْكَب الْحِمَارَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، ويَأْكُلُ مَعَ الخَادِمِ، وَيَجلِسُ مُخْتَلِطا بِأَصحَابِهِ وَحَيْثُ انتَهَى به المجْلِسُ[1]. ويقول : «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى**»[2]. و : «**لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ**»[3]. و : «**لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، ونحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَو لَبِثْتُ في السّجن لَبثَ يُوسُف، لأَجَبْتُ الدّاعِيَ، وَقُولُوا عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَه**»[4].

وخرّج أبو بكر بن أبي شيبة[5] عن أنس : مَا كَانَ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ[6].

---

(1) رواه بمعناه عبد الرزاق في مصنفه عن الحسن : 418/10. رقم الحديث : 19555. ورواه غيره.

(2) رواه البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا في الحدود. بَاب رَجْمِ الْحُبْلَى مِنْ الزِّنَا إِذَا أَحْصَنَتْ.

(3) قال الحافظ الزيلعي : غريب جدا. انظر تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري. الزيلعي : 264/1.

(4) معنى هذا الحديث في الصحاح عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعًا. انظر صحيح البخاري في أحاديث الأنبياء. بَاب قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾.

(5) هو عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي أبو بكر (159 - 235هـ= 776 - 849م). حافظ للحديث. له فيه كتب، منها (المسند) و(المصنف في الاحاديث والآثار). انظر الأعلام. الزركلي : 118/4.

(6) انظر المصنف. ابن أبي شيبة : 398/8. الحديث رقم : 26096.

وكان يُدْعَى إِلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ، والإهالة[1] والسَّنِخَة[2]، فَيُجِيبُ[3].

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : مَا عَابَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا قَطُّ، إِنْ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ[4].

ومن صفته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُسن المعاشرة، وكرم الصّنيعة، ولين الجانب، وبَذل المعروف، وإطعام الطّعام، والعفو والإصلاح، والجود والكرم، والسّماحة، والبدء بالسّلام، وكظم الغيظ، والوفاء بالعهد، وحفظ الجار، ورحمته اليتيم، وإذا سُئِل أنْ يدعو على أحد مسلم أو كافر، دعا له، وما عاب مضطجَعاً قطُّ، وإنْ أُفرِش له اضطجع، وإلاّ اضطجع على الأرض، ويؤثر الدّاخل بالوسادة، فإنْ لم يقبل عزم عليه حتّى يقبل، ويكنّي أصحابه، ويدعوهم بأحبِّ الأسماء إليهم إكراماً لهم، ويكنّي النّساء والولدان ومَن لم تكن له كُنية. ولا غاية لهذا الحدّ، كما لا جَزَرَ لهذا المدّ.

وأمّا على رواية : "بالبرّ"، سواء أُرِيد به الصّدق، أو بُروره في سائر الطّاعات، فلا يحتاج إلى استشهاد، ومن صدقه قصّته مع الّذي بايعه، وقال له : لا تبرحْ هنا، أو آتيك ببقيّة الثّمن. فانتظره في مكانه ذلك ثلاثاً، وهي في كتاب "**الشّفا**"[5].

---

(1) الإهالة : ما أذيب من الشحم، وقيل : الإهالة الشحم والزيت، وقيل : كل دُهنٍ أُوتُدِمَ به.

(2) السَّنِخَة : أيْ المتغيرة الرِّيح.

(3) رواه الترمذي في الشمائل : ص 274. رقم الأثر 333.

(4) انظر صحيح البخاري في المناقب. بَاب صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(5) انظر الشفا. القاضي عياض : 126/1.

وفي حديث هرقل : هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أنْ يقول ما قال؟ قال : «لا»[1].

وقال أبو جهل حين سأله الأخْنَس بن شريق، وقال له : ليس هنا غيري وغيرك، أصادقٌ محمّد أو كاذبٌ؟ فقال : «والله إنّه لصادق، وما كذَب محمّد قطّ»[2].

وقوله : "كالزَّهْر في تَرَف"؛ تقدّم في الأحاديث ما يدلّ على نضارة جسمه، ولينه، وصفاء لونه كالزّهر، وأنّ من صفاته أزْهر، وفي التّرمذي عن ابن عبّاس : «كان النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْهَر اللَّوْنِ، رَقِيقَ البِشْرَةِ، لَطِيفَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، يُعْرَفُ غَضَبُهُ وَرِضَاهُ فِي وَجْهِهِ»[3]. وقوله: «مَا مَسِسْتُ حَرِيرَةً وَلَا دِيبَاجَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وعَطَارة ريحه؛ لقوله : «وَلَا شَمِمْتُ مِسْكا وَلَا عَنْبَرَا أَطْيَب مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4]. وما تقدّم في عَرَقه.

وقوله : "والبَدْرِ في شَرَفٍ" إشارة إلى ما أعطِي من الهيبة والجلال، ففي حديث قبله : «فلمّا رأيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالساً

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 135/1. والقائل هو أبو سفيان بن حرب.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 135/1.

(3) هذا الحديث أورده الغزالي في الإحياء، ولم يعثر السبكي له على سند. وأما قوله "أزهر اللون" فرواه الترمذي عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيّ في الشمائل : ص 35. رقم الأثر : 8.

(4) رواه مسلم عَنْ أَنَسٍ في الفضائل. بَاب طِيبِ رَائِحَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِينِ مَسِّهِ وَالتَّبَرُّكِ بِمَسْحِهِ.

الْقُرْفُصَاءَ[1]، ارْتَعَدْتُ مِنَ الْفَرَقِ هَيْبَةً لَهُ وَتَعْظِيمًا»[2]. ومثله أيضاً في رجلٍ وقف بين يديه، وقال له: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ، لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِن قُرَيشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[3]. وحديث الّذي[4] استنصر قريشاً على أبي جهل - لعنه الله - لمّا مَطَلَه بثمن إبل باعها منه، فأحالوه على النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُزْؤًا منهم، فمضى معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرب بابه، فخرج إليه دَهِشاً، ورحّب به، وأمره بالقضاء، فقضى في الحين، فلمّا لِيمَ، قال: رأيتُ والله فَحلاً عظيماً فاتحاً فَاهُ، لو أَبيتُ لالْتَقَمَنِي[5]. ومثل ذلك لمّا أقسم ليضعنّ عليه صخرة إنْ سجد، فلمّا همّ بذلك، رجع ناكصاً القَهْقَرَى، وأخبرَ بما رأى[6].

---

(1) الْقُرْفُصَاءُ: أَنْ يَجْلِسَ الرَّجُلُ كَجُلُوسِ الْمُحْتَبِى وَيَكُونَ احْتِبَاؤُهُ بِيَدَيْهِ وَيَضَعَهُمَا عَلَى سَاقَيْهِ كَمَا يَحْتَبِى بِالثَّوْبِ.

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد عن قيلة: ص 403. الحديث رقم: 1178. والحديث حسن.

(3) رواه الحاكم في المستدرك عن جرير بن عبد الله مرفوعا: 506/2. رقم الحديث: 3733. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وافقه الذهبي.

(4) يقال له الْإِرَاشِيّ.

(5) انظر السيرة النبوية. ابن هشام: 389/1.

(6) قَالَ أبو جهل: قُمْتُ إلَيْهِ لِأَفْعَلَ بِهِ مَا قُلْتُ لَكُمْ الْبَارِحَةَ - أيْ يضع على رأسه حجرا - فَلَمّا دَنَوْتُ مِنْهُ عَرَضَ لِي دُونَهُ فَحْلٌ مِنْ الْإِبِلِ لَا وَاَللّهِ مَا رَأَيْت مِثْلَ هَامَتِهِ وَلَا مِثْلَ قَصَرَتِهِ وَلَا أَنْيَابِهِ لِفَحْلٍ قَطّ، فَهَمّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي. فَذُكِرَ لِي أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «ذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلَامُ لَوْ دَنَا لَأَخَذَه». انظر السيرة النبوية. ابن هشام: 298/1.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تكلّم أطرق جلساءُه، كأنّما على رؤوسهم الطّير. ويضحكون عنده تبسّماً توقيرًا له، وإذا غضب - ولا يغضب إلاّ لله – لم يقم لغضبه شيءٌ، ومجلسه لا تُرفع فيه الأصوات. وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[2].

وقال البراء : كنت أؤخّر سؤاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأمر سنين مِن هيبته. وكان أصحابه يقرعون بابه بالأظافر[3]. وكان عمر لا يكلّمه إلاّ كَأَخِي السِّرَارِ[4]، حتّى لقد كان يستعيده الحديث. وما كانوا يُحِدّون إليه النّظر تعظيماً[5].

ثمّ واجب على كلّ مؤمن متى ذكره أو ذُكر عنده أنْ يخضع ويسكن ويَحُلَّ كأنّه بين يديه. وكان مالك إذا ذكره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتغيّر، وينحني حتّى يشقّ على جُلسائه، فقيل له. فقال : لو رأيتَهم، كان سيّد القرّاء ابن المنكدر[6] لا نكاد نسأله عن حديث، إلاّ بكى. وكان ابن

(1) سورة الحجرات : من الآية 2.

(2) سورة الفتح : من الآية 9.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 40/2.

(4) السِّرار : المُسارَرَة؛ أي كصاحب السّرَار، أو كمثل المُسارَرَة لخُفض صَوْته.

(5) انظر الشفا. القاضي عياض : 42/2.

(6) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير (بالتصغير) (54 - 130هـ= 674 - 748م). زاهد، من رجال الحديث. من أهل المدينة. أدرك بعض الصحابة وروى عنهم. انظر الأعلام. الزركلي : 112/7.

جعفر[1] كثير الدّعابة، فإذا ذُكر عنده النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اصفرّ. وكان وجه ابن القاسم[2] ينزف منه الدّم عند ذكره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجفّ لسانه في فيه. وكذلك كان عبد الله بن مسعود وغيره من الصّحابة رضي الله عنهم[3].

وقوله : "والبَحْر في كَرَمٍ" تقدّم دليله.

وقوله : "والدهْرِ في هِمَمِ"؛ لا همّة أرفع من همّة من فضّله الله على سائر المخلوقات على اختلاف أنواعها، فهو العالي الهمّة في الدّنيا والآخرة.

وأمّا همّته في الدّنيا؛ فرغبته عنها، وقوله لها : «إِلَيْكِ عَنِّي أُمَّ نَتَنٍ»[4]. وشَمَمُه حين راودته جبال الذّهب. وخُيِّر بين المُلك والعبودية، فاختار العبودية. وتقدّم ذلك كلّه في قوله: "وَكَيفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنيا.." البيت. وكيف لا، ومولاه يقول له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ إِلَى قوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[5].

---

(1) في المطبوع من الشفا : جعفر بن محمد.

(2) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، أبو عبد الله، ويعرف بابن القاسم (132 - 191هـ= 750 - 806م). من سادات أهل المدينة، فقها الزهد والعلم. وتفقه بالامام مالك ونظرائه. مولده ووفاته بمصر. انظر الأعلام. الزركلي : 323/3.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 40/2.

(4) سبق تخريجه.

(5) سورة طه : الآية 131.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أَعطَى، لم يعد في عطائه، حتّى قال لأمّته : «**لَيْسَ لَنا مَثَلُ السَّوْءِ، الْعَائِدُ فِي صَدَقَتِهِ، كَالْكَلْب يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**»[1]. وقال لعمر في الفَرَس الّذي تصدّق به : «**لَا تَشْتَرِهِ وَإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ**»[2].

وقال حين راودوه على ترك القتال يوم أحد : «**مَا كان لِنَبِيٍّ أَنْ ينزع لَأْمَتَهُ بَعْدَ أَنْ لَبِسَهَا، حتّى يُقَاتِلَ**»[3]. ولم تحل الصّدقة له ولا لآل بيته.

وأمّا في الآخرة، فناهيك ما في حديث الشّفاعة من قول كلّ من خيرة المرسلين : نَفْسِي، نَفْسِي. ويحقّ لهم ذلك؛ لهول المقام الّذي لا رجاء لنا في الخلاص من شدّته بعد رحمة الله – تعالى – إلاّ جاهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذٍ: «**أُمَّتِي، أُمَّتِي**»[4]. وفي صحيح البخاري وغيره أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فاستَعْجَلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وادّخرتُ دَعْوَتِي؛ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[5]. جعلنا الله من أهلها بفضله.

---

(1) رواه البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا في الحيل. بَاب فِي الْهِبَةِ وَالشُّفْعَةِ.

(2) رواه البخاري عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب مرفوعا في الْهِبَةِ وَفَضْلِهَا وَالتَّحْرِيضِ عَلَيْهَا. بَاب لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَرْجِعَ فِي هبَتِهِ وَصَدَقَتِهِ.

(3) رواه النسائي في السنن الكبرى عن جابر بن عبد الله مرفوعا في التعبير. باب الدرع. الحديث رقم : 7647. والحديث صحيح.

(4) هذا لفظ قريب من لفظ مسلم، ورواه الحديث بمعناه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في الدعوات. بَاب لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. وانظر صحيح مسلم في الإيمان. بَاب اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ.

(5) سبق تخريجه.

فالإيثار دَأْبُه حتّى في ذلك المقام، الّذي لا بعده، كما كان ذلك دَأْبُه في أقلّ الأشياء: أخذَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضيبَين من سواك، أحدُهما معوجّ، والآخر مستقيم، فأمسك المعوجّ، ودفع المستقيم إلى مَن كان معه مِن أصحابه[1]. ولم يزل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلقّى المهالك بنفسه إيثارًا لأمّته، والإيثار على النّفس - خصوصا بالنّفس - من ثمرات علوّ الهمّة، كما أنّ الشّجاعة من ثمراتها، فإنّه لا يتّصف بها إلاّ مَن لا يرضى بالعيشة الذّليلة، وقد كان له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها، ما لم يكن لمخلوق.

وروينا في صحيح البخاري وغيره : سأل رجل البراء : أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ : لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَفِرَّ، لَقَدْ رَأَيْتُه عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وأَبو سُفْيَانَ آخِذٌ بلجامها، والنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»[2]. فما رُؤي يومئذٍ أحدٌ أشدّ منه[3]. فانظر ثبوته وحده لجيش يزيد على عشرة آلاف بالألف.

وقال عليّ رضي الله عنه : «كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ، واحْمَرَّت الحدَق، اتَّقَيْنا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أَحَدٌ أَقْرَب إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ. وَلَقَد رَأَيْتُنا يوم بَدرٍ نَلُوذُ بِهِ، وهُو أَقْرَبُنا مِنَ العَدُوّ، وهُو مِن أَشَدّ النّاسِ يَومئذٍ بَأسًا، والشّجَاعُ مِنّا؛ مَن تَقَرّب مِنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِقُربِهِ مِنَ العَدُوّ»[4].

---

(1) انظر تفسير القرطبي : 189/5.

(2) سبق تخريجه.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 115/1.

(4) انظر الشفا. القاضي عياض : 116/1.

وقال عمران بن حصين[1] : ما لقي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتِيبَةً، إلاّ كَانَ أَوّلَ مَنْ يَضْرب فِيهَا، وَكَانَ قَوِيّ البَطْشِ[2].

وفي البخاري عن أنس : كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، لقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا، وقَدْ سَبَقَهم إِلَى الصَّوْتِ، واسْتبْرأ الخبَر عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَهُوَ يَقُولُ : «**لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا**»[3].

وإلى هذا المقام من الهيبة والشّجاعة والجلال أشار النّاظم بقوله : "كأنهُ وَهوَ فَرْدٌ.." البيت؛ يعني أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أجل جلالته الّتي قامت به - إذا لقيه أحد؛ لأنّ الخطاب في قوله : "حينَ تَلْقاهُ" لا يخصّ واحدًا دون آخر، فهو من الخطاب العام، والنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرد؛ أيْ وحده لا أحد معه، يدخل قلبَ اللاّقيه مِن المهابة والدّهش، ما يدخله لو لقيه وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عَسكر؛ أيْ في جيش عظيم، وفي حَشَم؛ أيْ خَدَمَته الخاصّين به؛ لأنّ الجيش يشتمل على الخدَمَة الخاصّين بالمَلِك وعلى غيرهم، وإذا كانت هذه حالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجلالة والتّعظيم؛ أنْ يقوم مقام العسكر

---

(1) هو عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي (.. - 52هـ= .. - 672م). من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر (سنة 7هـ) وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم. وولاه زياد قضاءها. وتوفي بها. انظر الأعلام. الزركلي : 70/5.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 116/1.

(3) انظر صحيح البخاري في الأدب. بَاب حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ.

وهو فرد، لزم تضاعفُ تلك الجلالة، إذا كان في عَسكر، وهذا ظاهرٌ، ولولا أنّه وحده كالعسكر، ما قاوم العسكر بانفراده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي وصف عليّ - رضي الله عنه - إيّاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ»(1).

ويروى : "فِي جَلاَلَتِه" بـ "في" الظّرفية، فأمّا على رواية "مِن"، فالمعنى على التّعليل، وعاملها العامل في خبر "كان"؛ وهو "في عَسكر" أو التّشبيه، وقوله : "وهو فرد" على هذا جملة حالية. وأمّا على رواية "في"، فإنْ جعلتَها سببيّة؛ نحو : ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ ﴾(2)، فالمعنى كمعنى "مِن" سواءٌ، وإنْ جعلتَها للظّرفية، وعلّقتها بالتّشبيه، على أنْ يكون القصد بذكرها وجه التّشبيه، فالمعنى أيضاً متّحد، وإنْ علّقتها بـ "فرد"، أو جعلتَها صفة له، فالمعنى أنّه منفرد بالجلالة. وقوله : "وَهُو فَرْدٌ فِي جَلاَلَتِهِ" بكماله جملةُ اعتراضٍ أفادت ذلك المعنى.

وقوله : "كَأَنَّما اللُّؤْلُؤُ.." البيت؛ الرّاجح الظّاهر في تفسير هذا البيت هو ما أشرنا إليه في كتاب "**الاستيعاب**"؛ أنّه قصد تشبيه ألفاظه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّتي ينطق بها - في فصاحتها، وحلاوة حسنها، واحتوائها على المعاني النّفيسة، لكونها ألفاظ مَن أُوتِيَ جوامع الكلم - وثغره؛ وهو ما يبدو من ثناياه وأسنانه عند التبسّم، في حسنه وتناسبه وصفائه وبياضه؛ وهو تلألؤه وسلامته من كلّ شين، باللّؤلؤ؛ وهو الدرّ المُسَمَّى عندنا بالجَوْهر المَصون في صَدَفه؛ وهو المَحارة الّتي يتولّد فيها

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سورة النور : الآية 14.

وعاءً له، يحفظه من التّغيير، حتّى ينشقّ عنه، كما أنّ القلب وعاء الكلام النّفسيّ، حتّى يُبرزه اللّسان، وكما أنّ انضمام الشّفتين على الثّغر كالوعاء له، وعند التبسّم يبرُز. وأشار إلى التّشبيه الأوّل بقوله : "منطق"، والمراد به؛ إمّا مكان النّطق، لكن باعتبار ما يخرج منه من الكلمات، أو المصدر الّذي بمعنى المَفْعول؛ أيْ المنطوق به، فيكون المراد أوّلاً الكلمات نفسها. وأشار إلى التّشبيه الثّاني بقوله: "ومُبْتَسَم"، والمراد مكان التَبَسّم، وهو الثّغر. ومعنى البيت : كأَنّ اللّؤلؤ الّذي كان مصوناً في صَدَفه، يخرج من مَعْدِنَين من مَعَادِنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أحدهما : مَعْدِن كلماته أو موضعها. والثّاني: مَعْدِن ابتسامه؛ أيْ مكانه.

أمّا فصاحة كلماته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فغاية لا يُدرك مداها، ومنزلة لا يُدانى منتهاها، وكيف لا، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : «**أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ، وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ**»(1).

وتأمّل فصاحة هذا الحديث الكريم، مع قلّة ألفاظه، فإنّ قوله : "مَن نطقَ بالضاد" كناية عن قوله "العرب"، فإنّه من لوازم كلامهم، لا يوجد في كلام غيرهم؛ لصعوبة مَخْرجه، وكذا خصّه من بين سائر الحروف الأصلية المخرج - أو الملحقة - الّتي لا توجد إلاّ في كلام

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 80/1.

قال العجلوني : قال في اللآلئ : معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ، وأورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد. انظر كشف الخفاء. العجلوني : 200/1 و201.

العرب، فينتقل من ذلك اللاّزم إلى ملزومه المراد، ومنزلة فصاحة الكناية وترجيحها على الصّريح مقرّر في علم البيان.

وقوله : "بَيْد" كلمة معناها "غَير"، فهي لاستثناء شيء من الحكم الأوّل، واستدراك إخراجه، فعند سماعها، تتشوّف النّفس إلى أنّ ما بعدها ليس من الفصاحة، فلمّا كان ذلك قوله "أنّي من قُريش"، لم يجئ إلاّ ما يزيد تأكيد الحُكم بالفصاحة، فكان ما يستثنى من فصاحته، هو ما يزيدها تأكيدًا وقوّة؛ فإنّ قريشًا أفصح العرب، ثمّ استتبع ذلك أيضاً بما يزيده أيضاًحاً، وهو قوله : "واستُرضِعتُ في بني سعد"، فإنّهم مشهورون بسلامة الألفاظ؛ في حلاوة ورشاقة، وإذا كان الرّضاع يغيّر الطّباع، فما بالك برضاع يزيد في الطّباع، وهذا النّوع يُسَمَّى في علم البديع : تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، نحو قوله[1] :

ولا عَيْب فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بهِنَّ فُلُولٌ مِن قِراعِ الكَتائِب

وتكفيك هذه الإشارة فيما تضمّن هذا البيت من الفصاحة، فلولا السّآمة لأطلنا فيه النّفَس.

ورُوينا في "**نوادر**"[2] أبي علي البغدادي بسنده عن موسى بن محمّد بن إبراهيم[3] عن أبيه عن جدّه قال : بينما رسول الله صَلَّى اللهُ

---

(1) هو النابغة الذبياني. الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 236/1.

(2) وهي المعروفة بأمالي القالي.

(3) هو موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي أبو محمد المدني من الذين عاصروا صغارالتابعين، توفي سنة 151هـ، وهو ضعيف الحديث. انظر لسان الميزان. ابن حجر : 433/9.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم جالساً – كذا وقعت الرّواية بالنّصب، والقويّ الرّفع – مع أصحابه، إذ نشأت سحابة، فقالوا : يا رسول الله هذه سحابة. فقال : «**كَيْفَ تَرَوْنَ قَوَاعِدَهَا؟**». قالوا : ما أحسنها وأشدّ تمكّنها! قال : «**فَكَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاهَا**[1]**؟**». قالوا : ما أحسنها وأشدّ استدارتها! قال : «**فَكَيْفَ تَرَوْنَ بَوَاسِقَهَا**[2]**؟**». قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها! قال : «**كَيْفَ تَرَوْنَ بَرْقَهَا أَوَمِيضًا أَمْ خَفِيًا أَمْ يَشُقُّ شَقًا؟**». قالوا : بل يشقّ شقًّا. قال : «**كَيْفَ تَرَوْنَ جَوْنَهَا**[3]**؟**». قالوا : ما أحسنه وأشدّ سواده! فقال عليه الصّلاة والسّلام : «**الحَيَا**[4]». فقالوا : يا رسول الله، ما رأينا الّذي هو أفصح منك! فقال: «**وَمَا يَمْنَعُنِي، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي؛ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**». انتهى[5].

وهذا الحديث أوّل شيء استفتح به ابن الأعرابي[6] "**نوادره**"، إلاّ أنّه لم يروِ "كَيْفَ تَرَوْنَ بَرْقَهَا.." وحوله، وروى : "مَا أَفْصَحَكَ"[7].

---

(1) رحاها : أي استدارتها أو ما استدار منها.

(2) بواسقها : أي ما استطال من فروعها.

(3) جونها : الجون : هو من الألوان، ويقع على الأسود والأبيض.

(4) الحيا : الحيا مقصور : المطر لإحيائه الأرض. وقيل : الخصب وما يحيا به النّاس.

(5) انظر الأمالي. القالي : 8/1.

(6) هو محمد بن زياد، المعروف بابن الاعرابي، أبو عبد الله (150 – 231هـ= 767 – 845م). راوية، ناسب، علامة باللغة. من أهل الكوفة. مات بسامراء. انظر الأعلام. الزركلي : 131/6.

(7) أي قالوا: ما أفصحك، ما رأينا الّذي هو أفصح منك. وما ذكره ابن مرزوق من أنّ ابن الأعرابي لم يرو "كَيْفَ تَرَوْنَ بَرْقَهَا.." وحوله، مخالف لما ورد في المطبوع من النوادر، فإن هذه العبارة قد وردت فيه. انظر الرواية في نوادر ابن الأعرابي محمد بن زياد: 35. وروى هذه الرواية أيضاً البيهقي في شعب الإيمان : 33/3. رقم الحديث : 1363.

وبالجملة لا يحتاج العِلم بفصاحته إلى شاهد، ولا ينكرها موافقٌ ولا معاندٌ، وتأمّل هذا الفصل من كتاب "الشّفا" لعياض رحمه الله، ففيه المُقنع[1]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**»[2].

منها ما رُوينا في صحيح البخاري عن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»[3]. وفيه عن أبي هريرة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ..**»[4]. «**بِحَسْبِ الْمُسْلِمِ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[5].

ورُوينا في صحيح مسلم عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ[6] قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي**

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 70/1.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ مرفوعا : 37/3. رقم الحديث: 1366.

(3) انظر صحيح البخاري فِي الِاسْتِقْرَاضِ وَأَدَاءِ الدُّيُونِ وَالْحَجْرِ وَالتَّفْلِيسِ. بَاب مَا يُنْهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ.

(4) رواه البخاري في المظالم والغصب. بَاب لَا يَظْلِمُ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمَ وَلَا يُسْلِمُهُ.

(5) هذا الشطر هو لفظ مسلم. انظر صحيح مسلم في البر والصلة والآداب. بَاب تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ.

(6) هو النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ الْكِلَابِيُّ الْعَامِرِيُّ. سَكَنَ الشَّامَ، لَهُ صُحْبَةٌ وَرِوَايَةٌ. رَوَى عَنْهُ : جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، وَأَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، وجماعة. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 245/2.

صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[1]. وفيه عن أَبِي مُوسَى : قِيلَ : يا رسول الله، الرَّجُلُ يُحِب الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ : «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2]. وفيهما عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو[3] قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ**»[4].

ورُوينا في سنن النّسائي وغيرها من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وهو يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**»[5].

ورُوينا في سنن التّرمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خِب لَئِيمٌ**»[6]. وفيه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَحْبِب حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَابْغَضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا**»[7]. و : «**لاَ**

---

(1) انظر صحيح مسلم في البر والصلة والآداب. بَاب تَفْسِيرِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ.

(2) انظر صحيح مسلم في البر والصلة والآداب. بَاب الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ.

(3) هذا الحديث رواه عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْن الْعَاصِ ولكن ليس عند البخاري ومسلم، وأما الذي عندهما فرواه عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ بن الخطاب.

(4) انظر صحيح البخاري في المظالم. باب الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. صحيح مسلم في البر والصلة والآداب. باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ.

(5) انظر سنن النسائي الكبرى في السير. باب إعطاء العبد الأمان. رقم الحديث : 8681. والحديث مروي عن علي بن أبي طالب مرفوعا.

(6) انظر سنن الترمذي في البر والصلة. بَاب مَا جَاءَ فِي الْبَخِيلِ. والحديث حسن.

(7) انظر سنن الترمذي في البر والصلة. بَاب مَا جَاءَ فِي الِاقْتِصَادِ فِي الْحُب وَالْبُغْضِ. والحديث صحيح.

يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»[1]. و : «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»[2]. وفيه أنّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ[3] قال : لمّا نظرتُ إلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قدم، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِكَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ: «يا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»[4].

ولولا قصد التبرّك بكلامه، ما جلبنا هذا؛ لأنّه لا نهاية له، لكن العجز عن دَرْكِ الإدراك إدراك.

ومن تشبيه كلماته بالّؤلؤ الّذي قصد النّاظم، ما في حديث أمّ معبد : «كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُلْو المَنْطِقِ، فَصْلاً لا نَزْرًا وَلا هَذَرًا، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نُظِمْنَ، وكَانَ جَهِيرَ الصَّوتِ حَسَنُ النَّغْمَةِ»[5]. وانظر قولها : "مَنْطِقَه"؛ فإنّه بمعنى المنطوق به كما فسّرنا به كلام النّاظم.

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في الأدب بَاب لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ.

(2) هذا القول مروي عن عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ موقوفا. رواه مسلم في القدر. بَاب كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ.

(3) هو عبد الله بن سلام بن الحارث (.. - 43هـ= .. - 663م). أبو يوسف : صحابي. أسلم عند قدوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وكان اسمه " الحصين " فسماه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله. أقام بالمدينة إلى أن مات. انظر الأعلام. الزركلي : 90/4.

(4) انظر سنن الترمذي في صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ. بَاب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الْحَوْضِ. والحديث صحيح. ولم يرد في لفظه " وَصِلُوا الأَرْحَامَ".

(5) جزء من حديث طويل رواه الطبراني في الكبير : 48/4. رقم الحديث : 3605. قال الهيثمي : في إسناده جماعة لم أعرفهم. انظر مجمع الزوائد : 70/6. رقم الحديث : 9910. وانظر الشفا. القاضي عياض : 81/1.

وأمّا تشبيه مَبْسَمه باللّؤلؤ؛ فمن ذلك قول بعض ناعتيه[1] : «كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ضَحِك، افترّ عن مثل سنَا البرق - يعني بذلك بياض ثغره وصفاء لونه - وعن مثل ذلك حبّ الغمام - يعني في تناسبه، وحسن نظمه، وصفاء لونه -»[2]. وقال آخر[3] : «إذا تكلّم، رُئي كالنُّور يَخرج من ثنَاياه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4]. وجاء أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ضحك تلألأت الجُدُر[5]. وهذه كلّها صفات اللّؤلؤ.

وفائدة قول النّاظم : "مُبْتَسم"، دون أنْ يقول مَضْحَك موافقة القافية، والإشارة إلى أنّ من جلاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقاره؛ أنّه كان في غالب أمره لا يضحك إلاّ تبسُّماً، وهذه كانت صفة ضحكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنْ استُغرب ضحكه، قيل : ضحك حتّى بدت نواجِده.

ورُوينا في صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : «مَا رَأَيْتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا، حتّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا يَتَبَسَّمُ»[6].

---

(1) وهو أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه.

(2) انظر الشفا . القاضي عياض : 60/1.

(3) هذا الكلام تابع لكلام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

(4) انظر الشفا . القاضي عياض : 60/1.

(5) انظر الشفا . القاضي عياض : 61/1.

(6) انظر صحيح البخاري في الأدب. بَاب التَّبَسُّمِ وَالضَّحِكِ. صحيح مسلم في صلاة الاستسقاء. بَاب التَّعَوُّذِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ وَالْفَرَحِ بِالْمَطَرِ.

وفي البخاري في قصّة المُجامع في رمضان : فضحك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى بدَت أنيابُه. ثم قال : «فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[1]. وفيه عن جَرِيرٍ : «مَا حَجَبَنِي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ»[2].

وفي التّرمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ : «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3]. «مَا كَانَ يضحكُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا تَبَسُّمًا»[4].

---

(1) انظر صحيح البخاري في الصوم. بَاب الْمُجَامِعِ فِي رَمَضَانَ هلْ يُطْعِمُ أَهْلَهُ مِنْ الْكَفَّارَةِ إِذَا كَانُوا مَحَاوِيجَ.

(2) سبق تخريجه.

(3) سبق تخريجه.

(4) انظر سنن الترمذي في المناقب. بَاب فِي بَشَاشَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والحديث صحيح.

[مدح النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميّتا]

قوله : "لا طِيبَ.." البيت؛ لمّا مدح خَلْقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخُلُقه بما يليق بهما حال الحياة، أخذ يمدحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما له من الصّفات بعد موته، ولمّا كان ما هو فيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الخير العظيم مغيّباً عن مشاهدتنا، ولم يبق ما نشاهده إلاّ تربة مكان دفنه، ولا يليق من وصفها - باعتبار ما يحتاج إليه في المدح - إلاّ طيب الرّائحة، قال : لا طِيب في الوجود يماثل طِيب تُرب ضمّ - أيْ جمع ذلك التّرب عظامه - بل ذلك التّرب أفضل وأرفع من كلّ طِيب؛ لكونه اشتمَل على جسم خير الخَلْق عند الله.

وقوله : "طُوبَى لمُنتشِق.." إلى آخره؛ إنْ كان طُوبى فُعْلَى من الطِّيب، فهو إخبار مجرّد؛ لأنّ تربه لمّا كا أَطْيب الطِّيب، حصلت الطُّوبى؛ أيْ التطيّب به للمُنتشِق منه والمُلتثِم، وكأنّه إشارة إلى النّوعين المستعمَلين في الطِّيب؛ لأنّه إمّا أنْ يُستعمل بالشمّ، وإليه أشار بـ "المُنتشِق"، وإمّا بالتضمّح، وإليه أشار بـ "مُلتثِم". وإنْ أُرِيد طُوبى الجنّة أو شجرة فيها أو نحو ذلك ممّا مرّ، فيحتمل أنْ يكون أراد بذلك : الدّعاء لمن استنشَق من تلك التّربة العظيمة والْتثَم، ويحتمل أنْ يريد الإخبار. والاحتمال الأوّل في طُوبى مبنيٌّ على أنّ المراد بأنّ تربته أفضل أنواع الطّيب باعتبار الحقيقة الحسيّة، وذلك إمّا لأنّه كذلك في نفس الأمر، أدركه مَن أدركه أم لا، وإمّا باعتبار اعتقاد المؤمن في ذلك، فإنّ المؤمن لا يعدل بشمّ رائحة تربته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شيئاً من الطّيب، والاحتمال الثّاني في تفسيرها، مبنيٌّ على أنّ المراد أنّها أفضل أنواع الطّيب حُكماً.

فإنْ قلتَ : لو كان المراد الحقيقة الحسيّة، لأدرك ذلك كلّ أحد؛ لأنّ المسك – مثلاً – يدرِك طيب رائحته كلُّ أحد.

قلتُ : لا يلزم من قيام المعنى بمحلّ إدراكه لكلّ أحد، بل حتّى يوجد الشّرائط، وتنتفي الموانع، وعدم الإدراك لا يدلّ على عدم المدرَك، إذ انتفاء الدّليل لا يدلّ على انتفاء المدلول، فالمزكوم لا يدرك رائحة المسك، مع أنّ الرائحة قائمة بالمسك لم تنتف، ولمّا كانت أحوال القبر من الأمور الأخروية، لا جرم لا يدركها من الأحياء إلاّ مَن يُكشف له الغطاء من الأولياء المقرّبين؛ لأنّ متاع الآخرة باقٍ، ومَن في الدّنيا فانٍ، والفاني لا يتمتّع بالباقي للتّضاد، ولِذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمّا سُئل عن تقدّمه ثمّ تأخّره، وهو في صلاة الكسوف : «**رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ، لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**»[1]. وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنازِلِ الآخِرَةِ**»[2]. «**فإمّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**»[3]. ولا ارتياب عند مَن له أدنى تعلّق بشريعة الإسلام أنّ قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روضة من رياض الجنّة، بل أفضلها، ولمّا ذكر العلماء – رضي الله

---

(1) رواه البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا في أبواب الكسوف. بَاب صَلاَةِ الْكُسُوفِ جَمَاعَةً.

(2) هذا الجزء مروي مع قوله صلى الله عليه وسلم : «**فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ..**». ورواه الترمذي عن عثمان رضي الله عنه مرفوعا في الزهد. بَاب مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ. ورواه غيره.. وهو حديث حسن.

(3) هذا جزء من حديث طويل رواه الترمذي عن عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مرفوعا في صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ. بَاب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الْحَوْضِ. ورواه غيره.. وهو ضعيف.

عنهم - الخلاف في أفضلية المدينة على مكّة أو العكس، استثنى بعض المحقّقين مكان مدفنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال : «إنّه أفضل البقاع بالإجماع»[1]. وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَا بَيْنَ قبري وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**»[2]، وما اكتنف بين من المُبتدأ والمُنتهى قد يدخل في حُكمه. أمّا القبر؛ فللخبر العام الّذي قبل هذا، وهو في قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحرى. وأمّا المنبر؛ فلقوله في آخر هذا الحديث : «**وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**»[3]. والحوض من الجنّة. وفي رواية : «**على تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الْجَنَّةِ**»[4]. والاستدلال بهذا بيّن. وإذا تقرّر كون هذا المكان الشّريف من الجنّة، لم يبق عند العاقل - المُصدّق بالشّريعة - امتِراءٌ في أنّه لا طيب من الدّنيا يعدِلُه. وتأمّل ما ورد في الحوراء من العِين؛ لَوْ اطّلَعَتْ عَلى أَهْلِ الدّنْيا[5]..

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 91/2.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جَابِر مرفوعا : 53/6. رقم الحديث : 3866. والحديث ضعيف. والثابت : «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ».

(3) هذه العبارة وردت بعد قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ». والحديث في الصحاح. انظر صحيح البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة. بَاب فَضْلِ مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالمِنْبَرِ.

(4) رواه أبو هريرة. ورواها عنه الإمام أحمد في المسند : 117/15. رقم الحديث : 9215. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(5) ونص الحديث : «لَوْ أَنَّ حَوْرَاءَ أَطْلَعَتْ أُصْبُعًا مِنْ أَصَابِعِهَا لَوَجَدَ رِيحَهَا كُلُّ ذِي رُوحٍ». رواه أبو نعيم عن سعيد بن جذيم. انظر حلية الأولياء : 246/1. قال الهيثمي : رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد : 124/3.

وما ورد من أنّ تُراب الجّنة المِسْكُ الأَذْفَر[1]. وغير ذلك ممّا يطول ذكره.

فإنْ قلتَ : هذا مبنيٌّ على أنّ قوله "مِنْ رِيَاضِ الجَنَّة" حقيقة، وذلك متعذّر؛ لأنّ الجنّة في السّماء؛ لقوله تعالى : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2].

قال المفسّرون : الجنّة[3]. ولقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إِنَّ سَقْفَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»[4]، وهو فوق سبع سموات، وكيف يكون ما هو في السّماء في الأرض، وهما متقابلان؟

قلتُ : يحتمل الحديثان الحقيقة والمجاز : أمّا الحقيقة؛ فبأنْ يكون ما أخبر عنه بأنّه من الجنّة؛ أنْ يكون مقتطعاً منها. كما ورد أنّ الحجر الأسود من الجنّة[5].

---

(1) ورد ذلك في حديث الإسراء الذي رواه البخاري وغيره عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا. انظر صحيح البخاري في الصلاة. بَاب كَيْفَ فُرِضَتْ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْرَاءِ.

(2) سورة الذاريات : الآية 22.

(3) انظر الكشاف. الزمخشري : 403/4.

(4) الثابت أنّ عرش الرحمن فوق الفردوس. انظر صحيح البخاري في الجهاد والسير. بَاب دَرَجَاتِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

(5) والحديث رواه ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنْ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ». رواه الترمذي في الحج. بَاب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ وَالْمَقَامِ. وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه غيره.

وكما ورد أنّ الطّائف من الشّام[1]. والممتنع أنْ تكون السّماء أرضاً، لا أنْ يُؤخذ شيءٌ من السّماء، ويُجعل في الأرض، أو بالعكس، كما أنّ الإنسان أَرْضيّ، وهو يسكن السّماء. وأماّ المجاز في القبر؛ فبأنْ يكون من مجاز التّشبيه؛ بأنْ يُشبَّه القبر - لسعته وطِيب رائحته وسلامته من الآفات - بمكانٍ من الجنّة، وهذا شائع في اللّسان؛ أنْ يُوصف المكان الحَسن بأنّه من الجنّة، وضدّه من الأوصاف بأنّه من النّار. وأمّا فيما بين القبر والمنبر؛ فبأنْ يكون من إطلاق اسم المُسبَّب على السَّبب، فإنّ ملازمة ذلك المكان للصّلاة والعبادة سبب في نَيل الجنّة بفضل الله. والحقيقة في وصف القبر بذلك أرجح، والمجاز في وصف ما بين القبر والمنبر بذلك أرجح.

---

(1) قال السيوطي : أخرج الأرزرقي عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم : «لما وضع الله الْحرم، نقل لَهُ الطَّائِف من فلسطين». وَأخرج ابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم عَن مُحَمَّد بن مُسلم الطَّائِفِي قَالَ : بَلغنِي أَنه لما دَعَا إِبْرَاهِيم للحرم ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ نقل الله الطَّائِف من فلسطين. وَأخرج ابن أبي حَاتِم والأزرقي عَن الزُّهْرِيّ قَالَ: إِن الله نقل قَرْيَة من قرى الشَّام، فوضعها بِالطَّائِفِ؛ لدَعْوَة إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام. وَأخرج الْأَزْرَقِيّ عَن سعيد بن الْمسيب بن يسَار قَالَ: سَمِعت بعض ولد نَافِع بن جُبَير بن مطعم وَغَيره يذكرُونَ أَنهم سمعُوا : أَنه لما دَعَا إِبْرَاهِيم بِمَكَّة أَن يرْزق أَهله من الثمرات، نقل الله أَرض الطَّائِف من الشَّام، فوضعها هُنَالك رزقاً للحرم. انظر تفسيره الدر المنثور : 303/1.

[طيب تربة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما قيل فيها]

فإنْ قلتَ: ما اخترته في تفسيركَ الثّاني لطُوبى؛ من أنّ هذا إخبار من النّاظم، هل له في ذلك مُتمسَّك؟ فإنّ مثله توقيفيّ، وكذا لِوَصف تربته بأنّها طِيب، إن كان المراد كونها كذلك في نفس الأمر، وإنْ كان لا يُدرك.

قلتُ: نعم، أمّا التّربة، فتقدم الاستدلال فيها بحديث القبر، وهو استدلالٌ ظاهرٌ، وأيضاً فلأنّها حوت جسمَه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الّذي هو أَطْيب الطِّيب، ومجاور الطِّيب يتكيّف بتكيّفه، وقد تقدّم دليل طِيب ريحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حيّا، وهو كذلك ميّتاً، فإنّ الأنبياء أَحيَاء كالشّهداء، ولا تأكل الأرض أجسادهم[1].

وخرّج أبو بكر بن أبي شيبة عن ابْنِ الْمُسَيَّب قال: التمس عَلِيٌّ - رضي الله عنه - مِن النّبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا يُلْتَمَسُ مِنَ الْمَيِّتِ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا»[2]. وزاد في "الشّفا" لعياض بإثر هذا الحديث: وسَطَعَت منه ريحٌ، لم يُوجد مثلها. يعني مِن الطِّيب. وقال ذلك أبو بكر أيضاً رضي الله عنه[3].

---

(1) دليله قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ». رواه أبو داود عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ في الصلاة. بَاب فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(2) انظر المصنف. ابن أبي شيبة: 246/3. رقم الأثر: 11046.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض: 64/1.

ولله درّ الفقيه الزّاهد الفاضل أبي العبّاس أحمد بن العريف المرّي[1] رحمه الله، حيث يقول في قصيدة أوّلها[2] :

إذَا مَا حَدَى الحَادِيُ يَا جَمَالَ يَثْرِب   فَلَيْتَ المَطَايَا فَوْقَ خَدِّي تُعْنِقُ

ثمّ قال بعد أبيات[3] :

فَمَـا عَبَـقُ الرَّيْحَـان إِلاَّ وَتُرْبُهَـا   أَجَـلُّ مِـنَ الرَّيْحَـان طِيبًـا وَأَعْبَـقُ

وله أيضاً :

رَاحَـتْ رَكَـائِبُهُمْ تَنْدَى رَوَائِحُهَـا   طِيبًا فَيَا طِيبَ[4] ذَاكَ الوفْد أَشْبَاحَا

نَسِـيمُ قَبْـرِ النَّبِـيِّ المُصْـطَفَى لَهُـمْ   رَوْضٌ إِذَا نُشِرُوا مِنْ طِيبِهِ فَاحَا[5]

وله أيضاً[6] :

يَا لَيتَ لِي كُحْلَةٌ مِنْ تُرْبِهِ فَعَسَى   تَجْلُو القَذَى عَنْ مَحَلِّ الرَائِحِ الغَادِي

ولبعضهم[7] :

---

(1) قال المقري : هو الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسي دفين مراكش وقد زرت قبره بها سنة 1010ه. انظر نفح الطيب : 331/4.

(2) انظر البيت في الجواهر الثمينة في محاسن المدينة. محمد كبريت الحسيني : ص 37.

(3) انظر البيت في الجواهر الثمينة في محاسن المدينة. محمد كبريت الحسيني : ص 37.

(4) في نفح الطيب : بما طاب.

(5) في نفح الطيب : راح إذا سكروا من أجله فاحا. انظر البيتين فيه : 331/4.

(6) لم أقف على البيت في المصادر.

(7) لم أقف على قائل البيتين. وانظرهما في المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. القسطلاني: 592/4.

فَـاحَ الصَّـعِيدُ بِجِسْـمِهِ فَكَأَنَّـهُ رَوْضٌ يـنُمُّ بِعَرفِـهِ المُتَـأَرّجِ
مَـا جِسْـمُهُ مِمَّـا يُغَيِّـرُهُ الثَّـرَى وَالـرُّوح مِنْـهُ كَالصَّـبَاحِ الأَبْلَـجِ

ولبعضهم[1] :

حَيْثُ الثَّرَى دُونَهُ في الطِّيب دَارينَ[2] ثَـمَّ النَّبِـيُّ رَسُـولُ اللهِ مَـدْفُونُ
عَـزَّ التُّـرَاب لِكَـوْنِ الهَاشِـمِيُّ بِـهِ كَأَنَّـهُ لُؤْلُـؤٌ فِـي التُّـرْب مَكْنُـونُ

ولأبي عبد الله ابن أبي الخصال[3] من قصيدة أوّلها : بطيبة آثار النّبيّ محمّد..[4] ثمّ قال:

وَمَهْبِطُ جِبْرِيلَ بِوَحْيٍ وَحِكْمَةٍ يُبَيِّنُهَـا لِلْعَـالَمِينَ مُحَمَّـدُ
وَمُظْهِـرُ آيَـاتٍ كَـأَنَّ رُسُـومَهَا عَلَى مَا مَحَا مِنْهَا البِلَى يَتَجَدَّدُ

---

(1) لم أقف على قائل البيتين، وانظرهما فى تذكرة المحبين شرح أسماء سيد المرسلين. الرصاع : ص 100.

(2) أيْ الطيب منسوب إلى دارين، وهي قرية بالبحرين، والنسبة إليها داريّ. ودارية للأنثى. انظر الصحاح. للجوهري : 5/ 2112.

(3) محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج ابن مجاهد بن أبي الخصال الغافقي (أبو عبد الله) (465 – 540هـ= 1074 – 1146م) محدث، أديب، لغوي ناثر، شاعر، نسابة، مؤرخ، من الوزراء، من أهل فرغليط، من شقورة من كورة جيّان. سكن قرطبة وغرناطة، وتوفي مقتولاً بقرطبة في ذي الحجة. انظر معجم المؤلفين. كحالة : 18/12.

(4) المحفوظ : بطيبة آثار تحج وتقصد ودار بها الله نور مخلّد
وانظر الأبيات في الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. الكلاعي الحميري : 77/2.

وَفِي مَسْـجِدِ التَّقْـوَى تـأَرُّجَ رَوْضَـةٍ عَلَيْهَا مِنَ الفِرْدَوْسِ ظِلٌّ مُمَدَّدُ
يُفَاوِحُهَـا طِيـبِ الجِنَـانِ وَتُرْبَـةٌ تَبَوَّءَهَـا مِـنْ جَنَّـةِ الخُلْـدِ أَحْمَـدُ

ولفاطمة[1] - بنت محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليها، ورضي عنها - ترثيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

مـاذا عَلَـى مَـنْ شَـمَّ تُرْبَـة أَحْمَـدٍ أَنْ لاَ يَشُـمَّ مَدَى الزّمـان غَوَالِيَـا
صَـبَّتْ عَلَـيَّ مَصَـائب لَـوْ أَنَّهَـا صُـبَّتْ عَلَـى الأيّـام عُـدنَ لَيَالِيَـا

---

(1) وينسب البيتان أيضاً لعليّ بن أبي طالب. وانظر الأبيات في الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء : الكلاعي الحميري : 62/2.

[زيارة قبر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وأمّا مستنده في الأخبار، فهو ما جاء في فضل زيارة قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ لا يتأتّى الاستنشاق والالتثام إلاّ لزائر قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقلّ ذلك بتعفيره جبهته وأنفه بتُربِه حال السّجود في مسجده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والّذي جاء في ذلك ما خرّجه البزّار والدّارقطني عن ابن عمر أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «**مَنْ زَارَ قَبْرِي، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي**»[1]. وعن أنس قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَنْ زَارَ قَبْرِي مُحْتَسِبًا، كَانَ فِي جِوَارِي، وكُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]. وفي حديث آخر : «**مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي، فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي**»[3].

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كلّما ذكره الذّاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

---

(1) انظر سنن الدارقطني في الحج. بَاب الْمَوَاقِيتِ. ولم أقف على الحديث في مسند البزار المطبوع. وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد : 666/3. الحديث رقم : 5841.

(2) الحديث ورد بلفظ : «مَنْ زَارَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وراه البيهقي في السنن الصغير في المناسك. بَاب إِتْيَانِ الْمَدِينَةِ وَزِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِهِ وَمَسْجِدِ قُبَاءٍ وَزِيَارَةِ قُبُورِ الشُّهَدَاءِ. والحديث موضوع.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان عَنْ حَاطِب رضي الله عنه مرفوعا : 46/6. رقم الحديث : 3855. وفي سنده مقال.

[استدلال ابن مرزوق على أن لفظ "طُوبَى" من الطّيب]

فإنْ قلتَ : ليس في كلام النّاظم إلاّ نَفْي أَنْ يكون الطّيب معادلاً لتُرْب ضمّ أعظمه، وهذا لا يدلّ على أنّ تربه من الطّيب، ولئن سُلّم أنّه يدلّ على ذلك، فهو إنّما نَفَى أنْ يعادِله غيره من الطّيب، لكن ليس فيه تبيين أنّ الأفضلية له؛ لاحتمال كونها في غيره.

قلتُ : أمّا أنّه من الطّيب، فقَصْد المدح يدلّ عليه، ولقوله "طُوبى لكذا"، فإنّه فُعْلَى من الطّيب، فهو منبّه على أنّه منه، وأيضاً المعادلة التّامّة إنّما تكون بين متماثلين من جنس واحد، هذا في الثّبوت، فينبغي أنْ يكون نفيها أيضاً بينهما؛ ليتوارد النّفي والإثبات على موضوع واحد، ولولا ذلك لما كان لذكر الطِّيب هنا دون غيره ممّا ليس معادِلا للتّربة، وقد أفتى مالك فيمن قال : تُربة المدينة رَدِيّة؛ أنْ يُضرب ثلاثين بالدّرة، وأمر بسجنه، وقال : «مَا أَحْوَجَه إلى ضَرْبِ عُنُقِه، تُربَةٌ اشتَمَلَت عَلَى جَسَدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ إِنَّهَا رَدِيَّة»[1]. فقد ثبت كونها من الطّيب شرعاً وطبعاً.

وممّا يدلّ على صحّة ما اعتبرناه من كون "طُوبى" من الطّيب؛ إمّا بالمجاز أو بالحقيقة : ما ذكره ابن بطّال[2] في آخر كتاب الحجّ من شرحه للبخاري في باب المدينة تنفي الخَبَث، ونصه : «وقوله : "ينصَع طَيِّبُها"؛ هو مثلٌ ضربه للمؤمن المخلص السّاكن فيها، الصّابر على

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 87/2.

(2) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، أبو الحسن (.. – 449هـ= .. – 1057م). عالم بالحديث، من أهل قرطبة. شرح البخاري. انظر الأعلام. الزركلي : 285/4.

لَأْوَائِها وشدّتها، مع فراق الأهل والمال، والتزام المخافة من العدو، فلمّا باع نفسه من الله، والتزم هذا الأمر بأنْ صدّقه، ونصع إيمانه وقويَ - لاغتباطه بسُكنى المدينة، وبقُربه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما ينصع ريح الطِّيب فيها، ويزيد عبقًا على سائر البلاد، خصوصية خص الله بها بلدة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الّتي اختار تربتها لمباشرة جسده الطيّب المطهّر عليه السّلام، وقد جاء في الحديث : "**أنّ المُؤْمِنَ يُقْبَرُ فِي التُّرْبَةِ الّتِي خُلِقَ مِنْهَا**"[1]. فكانت - بهذا - تربة المدينة أفضل التُّرَب، كما هو عليه السّلام أفضل البشر؛ فلهذا - والله أعلم - يتضاعف ريح الطِّيب فيها على سائر البلاد». انتهى[2].

وأمّا أنّه أرفع الطّيب، فلقوله : "طُوبى"، فإنّه إذا ذُكر نوعان من جنس واحد، أو صنفان من نوع ، ثمّ قيل في أحدهما : طُوبى لمن تلبّس بهذا، دلّ على أرجحيّة المقول ذلك فيه، ولو تساويَا لم يكن لتخصيصه بالذّكر فائدة. ولا يُقال : إنّ هذا من مفهوم اللّقب؛ «ما يُستَفَاد مِن إسْنَادِ الحُكْمِ إلَى اسْمٍ بِمُجَرَّدِه، مِنْ غَيرِ قَرِينَةٍ تُوجِبُ التَّخصِيصَ»[3]، وهذا ليس كذلك.

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عباس موقوفا : 515/3. رقم الحديث : 6531.

(2) انظر شرح ابن بطال على صحيح البخاري. ابن بطال : 554/4.

(3) مفهوم اللقب؛ هو نوع من أنواع مفهوم المخالفة، وهو أضعف أنواعه من حيث القوة، ولم يعتد به كثير من الأصوليين. انظر البحر المحيط. الزركشي : 148/5 وما بعدها.

فإنْ قلتَ : هلاّ قال "ضَمَّ جسمَه"؛ ليفيد أنّ جسده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يبلى؛ إذ ذاك حكم أجساد الأنبياء عليهم السّلام، وقوله : "أَعْظمه" يوهم خلاف ذلك.

قلتُ : بل قوله : "أَعْظمه" هو الّذي يدلّ على ما قال السّائل؛ لأنّ العَظم دعامة الجسم، وإذا كانت الدّعامة مضمومة؛ أيْ مجموعة محفوظة؛ لأنّ الضمّ يصلح للمعنَيين، دلّ على أنّ الجسم لا يزال، لأنّ أصله باق، ولو قال "جِسمه"، لَمَا دلّ على دوام بقائه على حاله. وإنّما قال "أَعْظُمه" بجمع القلّة لتأتّي الوزن، ولأنّه بعد إضافته يعمّ، فيساوي جَمع الكثرة. وقال بعضهم : «إنّما أشار إلى تشريف الآراب السّبعة[1]». وانظر ما مناسبة هذا المعنى في هذا المقام.

---

(1) الآراب : جمع إرب، وهو العضو، والآراب السبعة هي : اليدان والرجلان والركبتان والجبهة، وإنما قال : "تشريفها"؛ لأنّ السجود يكون عليها.

[أقوال في معنى الأبيات]

وكثير من معاني هذه الأبيات تضمّنها قصيدٌ للبحتريّ[1]؛ يمدح بها الفتح بن خاقان[2]، منها في معنى قوله : "وَالبَدْرُ في شَرَفٍ" :

فأفْضَيتُ مِنْ قُرْبٍ إلى ذِي مَهابَةٍ　　　أُقابِلُ بَدْرَ التِّمِّ حِينَ أُقَابِلُهْ

وفي معنى قوله : "زانهُ خُلُقٌ بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ"[3] :

بَدَا لِيَ محمود السَّجيَّةِ شُمِّرتْ　　　سرابيلُهُ عنهُ وطالتْ حَمَائِلُهْ

وفي معنى "أكرمْ بخَلقٍ"، إلاّ أنّ النّاظم شبّه ذلك بالدّهر، وشبّه البحتري بالرّمح، لقصد الاعتدال، فقال[4] :

كما انتصَبَ الرُّمحُ الرُّدينيُّ ثُقِّفتْ　　　أنابيبهُ واهتزَّ للطَّعنِ عاملهْ

ثمّ شبّه بالبدر ثانيًا؛ لقصد الشّرف والهيبة، كما فعل النّاظم، فقال[5] :

وَكالبَدْرِ وافَتْهُ لِتِمٍّ سُعُودُهُ　　　فَتَمّ سَنَاهُ واستقلّتْ مَنَازِلُهْ

---

(1) انظر البيت في زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 106/1.

(2) هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد (.. – 247هـ= .. – 861م). أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذكاء. فارسي الاصل، من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له، واستوزره وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه. وكان يقدّمه على جميع أهله وولده. واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن. انظر الأعلام. الزركلي : 133/5.

(3) البيت أيضاً للبحتري. انظر زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 106/1.

(4) انظر زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 106/1.

(5) البيتان أيضاً للبحتري. انظر زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 106/1.

فَسَلّمتُ واعتاقَتْ جَنَانيَ هَيْبَةٌ تُنَازِعُني القَوْلَ الّذي أنَا قائِلُهْ

ثمّ قال متّصلا بهذا، وهو في معنى "بالبِشْر مُتّسِم"[1] :

فَلَمّا تأمّلْتُ الطّلاقَةَ، وانثَنى إلَيّ بِبِشْرٍ آنَسَتْني مَخَايِلُهْ

دَنَوْتُ فَقَبّلتُ النّدى من يدِ امرِىءٍ كَريم مُحَيّاهُ سِبَاطٍ أنَامِلُهْ

وهذا في معنى قوله : "والبَحْرِ في كَرَمٍ"، وتمثيل الشِّعر الكريمَ بالبحرِ بحر زاخرّ؛ كقوله[2] :

هُوَ البَحْرُ مِنْ أيّ النّواحِي أتَيْتَهُ فَلُجّتُهُ المعرُوفُ والجُودُ سَاحِلُهْ

كما أنّ تمثيلهم ذا الهمّة العالية بالدّهر مبتذل، حتّى أنّ مَن يقصد المبالغة، يجعل الدّهر دونه في ذلك، كقول بكر بن النّطّاح[3] في أبي دُلف، وجمع بين البحر والدّهر والشّجاعة :

لَهُ هِمَمٌ لا مُنتَهَى لِكِبَارِها وهمَّتُهُ الصُّغرى أجَلُّ منَ الدَّهْرِ

لهُ راحةٌ لو أنَّ مِعْشارَ جُودِها على البَرّ صارَ البرُّ أنْدى من

ولو أنَّ خَلقَ اللهِ في مَسْكِ فارِسٍ فبارَزَهُ كانَ الخليُّ منَ العمرِ

---

(1)البيت أيضاً للبحتري. انظر زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 107/1.

(2) هو أبو تمام، وقاله في المعتصم. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 184/3.

(3) هو بكر بن النطاح الحنفي، أبو وائل (.. – 192هـ= .. – 808م). شاعر غزل، من فرسان بني حنيفة، من أهل اليمامة. انتقل إلى بغداد في زمن الرشيد، واتصل بأبي دلف العجلي فجعل له رزقا سلطانيًا عاش به إلى أن توفي. انظر الأعلام. الزركلي : 71/2. وانظر الأبيات في الكامل. المبرد : 95/3.

وفي معنى الدّهر يقول عليّ بن جَبْلَة[1] في أبي دُلف :

إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ بين مَبْداه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ وَلَّتِ الدُّنيا على أَثَرِهْ

ومدح أعرابي مالك بن طَوْق[2]، وأثابه بعشرة آلاف درهم، فقال[3] :

وَمَازِلْتُ أَخْشَى الدّهرَ حتّى تَعلّقَت يَدَأيْ بِمَن لاَ يَتَّقِي الدّهْرَ صَاحبُهْ
فَلَمّا رَآني الدّهرَ تَحْتَ جَنَاحِهِ رَأَى مُرْتَقًى صَعْباً مَنِيعاً ذَوَائِبُهُ
رَآني بِحَيْثُ النَّجْمُ فِي رَأْسِ بَاذِخٍ تُظِلُّ الوَرَى أَكْنَافُه وَجَوَانِبُهْ
فَتًى كَسَماءِ الغَيْثِ وَالنّاسُ حَوْلَه إذَا أَجْدَبُوا جَادَتْ عَلَيهِمْ سَحَائِبُهْ

وتتبّع هذه المعاني يوجب السّآمة.

---

(1) هو علي بن جبلة بن مسلم، أبو الحسن، المعروف بالعكوك (160 - 213هـ= 777 - 828م). شاعر عراقي مجيد، من أحسن الناس إنشادا. وكان الاصمعي يحسده. ولد بقرب بغداد، واستنفد أكثر شعره في مدح أبي دلف العجلي. وقتله المأمون. انظر الأعلام. الزركلي : 268/4.
وانظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 188/3.

(2) هو مالك بن طوق بن عتاب التغلبي، أبو كلثوم (.. - 259هـ= .. - 873م). أمير. كان من الأشراف الفرسان الأجواد. ولي إمرة دمشق للمتوكل العباسي. وكان فصيحا، له شعر. انظر الأعلام. الزركلي : 262/5.

(3) انظر الأبيات في زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 4/ 1161.

والألفاظُ تُشبَّه بالدرّ وبالنُّور وبالسّحر وبالوَشْي، وجمع ذلك أبو منصور الثّعالبي[1]، فقال في الأمير أبي الفضل[2] :

لَكَ فِي المَحَاسِنِ مُعْجِزَاتٌ جمَّةٌ أَبَداً لِغَيرِكَ في الوَرَى لَم تُجمَعِ

بَحْـرَانِ؛ بَحْـرٌ مِـنَ البَلاَغَـةِ شَـابَه شِعرُ الوَلِيدِ وَحُسْنُ لَفْظِ الأصْمَعِي

كـاَلنَورِ أَوْ كَالسِّـحرِ أوْ كَالـدُّر أَوْ كَالوَشْـي فـي بُـرْدٍ عَلَيْـهِ مُوشَـعِ

كما أنّ الثّغر يُشبَّه بالدرّ وبالبَرَد وبالأُقْحوان، قال[3] :

كَأَنَّمَـا يَبْسِـمُ عَـنْ لُؤْلُـؤٍ مُنَضَّـدٍ أَوْ بَـرَدٍ أَوْ أَقَـاحْ

---

(1) انظر أبياته في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 95/2.

(2) هو عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي، أبو الفضل (.. – 436 هـ = .. – 1045 م) أمير، من الكتاب الشعراء. من أهل خراسان. صنف الثعالبي "ثمار القلوب" لخزانته. وأورد في "يتيمة الدهر" محاسن من نثره ونظمه، ومختارات من كتابه "المخزون" المستخرج من رسائله. انظر الأعلام. الزركلي : 191/4.

(3) ينسب هذا البيت لأبي تمام، ولأبي محمد المطراني، وأكثرهم ينسبه للبحتري من قصيدة يمدح بهَا أَبَا نوح عِيسَى ابْن إِبْرَاهِيم. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 88/2.

تَنْبِيهٌ

هذه التّشبيهات الّتي أتي بها النّاظم في صفات نبيّنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنّما ذلك منه على عادة الشّعراء في ذلك، وإلاّ فلا شيء من هذه المُحدثات يُعادِل صفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخَلْقية والخُلُقية، وقد احترَز هو عن هذا بقوله قبلُ : "واحْكُمْ بِمَا شِئْتَ"، وبقوله : "فإنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَه حَدٌّ" ونحوهما من الأبيات الدّالّة على هذا المعنى.

فإنْ قلتَ : فما باله جعلَ الزَّهْر والبدر والبحر والدّهر أصولاً، وشبّه بها، وذلك هو الأَصل، وجعل مَعْدِنَي المنطق والمبتسم أصلاً، واللّؤلؤ هو الفرع المُشبَّه، فعكس التّشبيه، وهو أبلغ من الأصل، ولم يُشبّه التّربَ بالطّيب؛ لا مستقيماً ولا معكوساً، بل نفى عنه المشابهة بالكليّة، وهلاّ جرى على نسق واحد في الجميع، وهل يُلتمس لِمَا فعل وجهٌ؟

قلتُ : يحتمل أنْ يكون هذا مِن تفنّنه، وامتداد باعه، حتّى لا يفوته شيء من هذه الاستعمالات؛ إذ كلّها مستعملة للأدباء، ويحتمل أنْ يكون قصد الترقّي في المدح، فشبّه أوّلاً على الأصل، ثمّ عكس ثانياً، وهو أبلغ، ثمّ نفى التّشبيه ثالثاً، وهو أبلغ[1].

فإنْ قلتَ : فما وجه تخصيصه أَبْلَغية المدح ببعض تلك الصّفات؟

---

(1) أقول : لله درّك يا ابن مرزوق، ما أروع وما أبدع هذا التّخريج.

قلتُ : لمّا كان قوله : "كالزّهْر.." البيت تشبيهًا لخَلْقه وخُلُقه، وذلك باعتبار وجوده الدّنيويّ فيما قصد النّاظم، وإنْ كان في ذلك السّبب الأخروي، وكان حاله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما يرجع إلى الدّنيا التبلّغ بما وُجِد، اكتفى النّاظم بمطلق التّشبيه اتّباعًا للسُنّة في ذلك، ولمّا كان الإخبار عن التّربة أُخرويًّا محضاً؛ لأنّه بعد موته، نفى المشابهة فيه؛ إذ لا يُشبه متاع الدّنيا لباقي الآخرة، إلاّ في الاسم خاصّةً، لا في الحقيقة، وقد بيّنا أنّ تربته من الجنّة؛ لأنّ القبر أوّل منزل من منازل الآخرة، ولمّا كان القصد بقوله : "كأنّما اللّؤلؤ" تشبيه كلماته وثَغره، لكن القصد الأعظم الكلمات، والثّغر تبعٌ لملازمته إيّاها، وكلماته حقّ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عمرو، حين قال له : أكتب ما أسمعُ عنك في الرِّضَى وَالْغَضَبِ؟ قال : «**نَعَمْ؛ لأَنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا**»[1]. وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** .. ﴾ الآية[2]، فصار غالب المقصد من هذا البيت الأخرويّ، جُعل له من المدح مرتبة أعلى من مرتبة الدّنيويّ المحض أو الغالب، وأدنى من الأخرويّ المحض، وذلك بعكسه التّشبيه. وما أحقّ هذا البحث أنْ يجعل في ترجمة الإشارات، وله نظائر يطول تتبّعها.

---

(1) رواه البزار. انظر مسنده : 381/1. رقم الحديث : 2470.

(2) سورة النجم : الآية 3. ويقصد الآيتين وليس الآية، وهما بتمامهما : ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى** (3) **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾.

التعجّب بصيغة "أَفْعِل" أبلغ منه بـ "ما أَفْعَلَه"، فإنّ هذه تَقصُر التعجّبَ على المتكلِّم بها، والأُولى كأنّ كلّ مَن يصلح منه أنْ يُخاطَب مأمورٌ بأنْ يَتعَجَّب مِن ذلك مُلزمٌ، لأنّ صيغة الأمر تقتضي ذلك، حتّى المتكلِّم فإنّه داخل في عموم متعلِّق خِطابه علَى الصّحيح[1].

وإضافة "خَلْق" للاختصاص والتّشريف. وتنكير "نبيّ" للتّعظيم والنّوعية، وكذا تنكير "خُلُق". و«أل» في "الحُسن" لتمام الحقيقة، كقوله : "فَجَوْهَرُ الحُسْنِ"، وكذا الّتي في "البِشر". وتنكير "مشتمِل" و"متّسِم" للنّوعية. وتقديم "بالحُسن" و"بالبِشر" للاختصاص؛ باعتبار نَفي مقابلهما وللقافية في الثّاني.

وفي قوله : "كالزَّهْر" أيضاحٌ لِما أُبهم في البيت قبله، كما أنّ في كلّ من قوله : "في تَرَف" و"في شَرَف" و"في كَرَم" و"في هِمَم" أيضاحاً لِما قبلها، وتنكير هذه الألفاظ للنّوعية. و«أل» في "الزَّهْر" وما عطف عليه للجنس.

وتنكير "فَرْد" للتّقليل؛ باعتبار العدد، أو للتّوحيد، وهو الأظهر. وإضافة "جَلاَلَة" للاختصاص والتّعظيم. وقوله : "مِن جَلاَلته" احتراس أو تكميل وهو الأظهر. وتنكير "عَسكر" للتّكثير والنّوعية، وكذا "حَشَم".

---

(1) قال الإسنوي : «المتكلم داخل في عموم متعلق خطابه عند الأكثرين، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3] وقولك: من أحسن إليك فأكرمه، قال : ويشبه أن يكون كونه أمرا قرينة مخصصة». انظر نهاية السول شرح منهاج الوصول. الإسنوي : ص 191.

وجعل بعضهم قوله : "حينَ تَلْقاهُ" من الحشو؛ لتمام الوزن، والظّاهر أنّه أراد به ما أراد عليٌّ - رضي الله عنه - في قوله : «مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، ومَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ»[1].

فقوله : "حينَ تَلْقاهُ" كقوله "بَدِيهَةً"، فيكون على هذا شبه الاحتراس. وتقدّم أنّ "تَلْقَاهُ" من الخطاب العام.

و «أل» في "اللّؤلؤ" للعهد، وهو الموصوف بما ذُكر. و"المَكْنونُ في صَدَفِ" احتراس كما تقدّم، ويحتمل أنْ يكون قوله : "في صَدَف" تتميماً لـ "المكنون". وفي "مَعْدِنِي منطقٍ" و"مبتَسَمِ" نوع من التّوشيع، وتنكيرهما للنّوعية.

وتنكير "تُرباً" للنّوعية. وإضافة "أَعْظُم" للعهد؛ أيْ الّتي كانت في الحياة، لم تزل على حالها، ولازم ذلك بقاء جسمه على حاله. وفصل جملة "طُوبى.." ممّا قبلها؛ لاختلافهما إنشاءً وخبرًا.

---

(1) سبق تخريجه.

اَلْبَيَاْنُ

قوله : "بالحُسن مُشتمِل بالبِشر مُتّسِم" من الاستعارة بالكناية، بأنْ يُشبَّه الحُسن بثوب لم يُذكر، وذُكر من لوازمه الاشتمال، ويُشبَّه استبشاره اللاّزم بشيء ممّا يُجعل سِمَة وعلامة كالوَسم وغيره، وأثبت مِن لوازمه الاتّسام. وإسناد "زَانَه" إلى "خُلُق" مجاز، وكذا الإسناد في "مُشتمِل" و"متّسِم". والتّشبيه في قوله : "كالزّهر.." البيت بسيطٌ؛ وهو أدنى مراتب التّشبيه؛ لذكر الطّرفَيْن؛ أيْ المشبَّه والمشبَّه به - إذ التّقدير : هو كالزّهر -، والأداة وهي الكاف، ووجه التّشبه ، وهو قوله: في كذا، وكلّ مرتبة من مراتب التّشبيه الثّمانية أعلى من هذه، بل لا قوّة لهذه المرتبة.

فإنْ قلتَ : ليس تقدير المشبّه، وهي المرتبة الثّانية، وهي المذكورة هنا، كذكره، وهي الأُولى الّتي حملتَ عليها كلام النّاظم.

قلتُ : إن سُلّم ذلك، فهما معاً لا قوّة لهما، نصّ عليه الجلال[1] في "**الأيضاَح**"[2] في الخاتمة الّتي جعلها آخر باب التّشبيه[3]، وهو داخل في قوله في "**التّلخيص**"[1] : «ولا قوّة لغيرها».

---

(1) هو جلال الدين القزويني، وسبقت ترجمته.

(2) هو الإيضاح في علوم البلاغة.

(3) مراتب التشبيه التي ذكرها جلال الدين القزويني ثمانية وهي :

- **أولاها** : ذكر الأربعة كقولك: زيد كالأسد في الشجاعة. ولا قوة لهذه المرتبة.
- **وثانيتها** : ترك المشبه كقولك: كالأسد في الشجاعة؛ أيْ زيد. وهي كالأولى في عدم القوة.
- **وثالثتها** : ترك كلمة التشبيه كقولك: زيد أسد في الشجاعة. وفيها نوع قوة.
- **ورابعتها** : ترك المشبّه وكلمة التشبيه كقولك: أسد في الشجاعة؛ أيْ زيد. وهي كالثالثة في القوة.

قال بعضهم : «ولو أتى النّاظم بكاف التّشبيه مع "البدر" وما بعده، وترك واو العطف، لكان أدخل في الإطناب، فإنّ الفصل أَمْدح من الوصل، والعطف يقرّب المتعدّد، أو يصيّره كجملة واحدة». انتهى.

قلتُ : بل الوصل هنا أولى؛ لإيذانه بالمغايرة؛ فإنّها تشبيهات باعتبار تعدّد المشبَّه، ولو فصل لتُوهّم؛ إمّا كمال الاتّصال بين الجمل، فتكون الثّانية تفسيرًا للأولى، أو بدلاً منها، أو كمال الانقطاع، فيكون أَضْرب عن الأولى مثلاً، وليس المقصود كلّ واحد من الأمرين، بل هذا من عطف المفردات، والعامل في كلٍّ منها العامل في المعطوف عليه، وهو أداة التّشبيه المصرّح بها. وقوله "العطف يصيّر المتعدّد كالمفرد" ذلك في المفردات، ولا أدري ما معنى قوله "يُقرّب"، وهذا البحث أشبه بفصل المعاني.

والتّشبيه في قوله : "كأنهُ وهو فَردٌ.." البيت؛ الظّاهر أنّه من تشبيه مقيّد بمفرد، فإنّه شبّهه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقيدٍ؛ كونه مفردًا به إذا

- **وخامستها** : ترك وجه الشبه كقولك: زيد كالأسد. وفيها نوع قوة؛ لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر.
- **وسادستها** : ترك المشبه ووجه التشبيه كقولك: كالأسد؛ أيْ زيد. وهي كالخامسة.
- **وسابعتها** : ترك كلمة التشبيه ووجه كقولك: زيد أسد. وهي أقوى الجميع.
- **وثامنتها** : إفراد المشبه به بالذكر كقولك أسد؛ أيْ زيد. وهي كالسابعة.

انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 249.

(1) هو تلخيص المفتاح. لنفس المؤلف.

كان في عَسكر وحَشَم؛ نحو قولك : "المرآة في كفّ الأَشَلّ كالشّمس[1]". ويحتمل أنْ يكون من تشبيه المفرد بالمركّب؛ نحو[2]:

وَكـــأنّ مُحْمَـــرَّ الشَّقِيــــ ـــقِ إذا تَصَـوَّب أَوْ تَصَـعَّدْ

أَعْـــلاَمُ يَـــاقُوتٍ نُشِـــرْ نَ عَلَـى رِمَـاحٍ مِـنْ زَبَرْجَـدْ

ويحتمل أن يكون من العكس؛ نحو[3] :

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ

تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ زَهْـرُ الرُّبَـا فَكَأَنَّمَـا هُـوَ مُقْمِـرُ

وعليك التّنزيل على هذه الأوجه.

وقوله : "كأنّما اللّؤلؤ" من نوع التّشبيه الّذي قبله؛ لتقييده "اللّؤلؤ" بـ "المكنون في الصّدف"، إلاّ أنّه من عكس التّشبيه، إذ المعهود تشبيه "الكلمات والثّغر" بـ "اللّؤلؤ"، فشبّه هو "اللّؤلؤ" بهما؛ لأنّه جعله مأخوذا من مَعْدِنَيهما، وهذا أبلغ من المستقيم؛ لأنّه يُدَّعَى معه أنّ الفرع - لقوّة المعنى فيه - صار أصلاً، وصار الأصل - لضعفه فيه - فرعاً؛

---

(1) أصله من رجز، وهو قوله : والشَّمْسُ كَالمِرْآةِ فِي كف الأشل.. وَاخْتلف فِي قَائِله، فَقيل الشماخ، وَقيل ابْن أَخِيه، وَقيل أَبُو النَّجْم، وَقيل ابْن المعتز. والأَشَلُّ هُوَ الَّذِي يَبِسَتْ يَده أَو ذهبت. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 32/2

(2) ينسب البيتان للصنوبري. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 4/2.

(3) البيتان لأبي تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 78/2.

ومنه[1] :

وَبَـدا الصَّــباحُ كـأنَّ غُرَّتَـه   وَجهُ الخَلِيفةِ حين يُمتَدَحُ

فإنّه قَصَد أنّ وجه الخليفة أتمّ من الصّباح في الوضوح والضّياء. وقصد النّاظم بالأصالة تشبيه "المَنْطق" و "المُبتَسَم" بـ "اللّؤلؤ"، فهو باعتبار الأصل من تشبيه التّسوية.

---

(1) هذا البيت لمحمد وُهَيب الْحِميَريّ يمدح بها المأمون. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 57/2.

[حقيقة تشبيه التّسوية]

وحقيقتُه : «الّذي تَعَدَّدَ طَرْفُهُ الأوّل - أعني المشبَّه - وَاتَّحَدَ طَرْفُهُ الثَّانِي؛ أيْ المُشَبَّه بِهِ»[1].

كقوله[2] :

صُدْغُ الْحَبِيب وَحَالِي كِلاَهُمَــــا كاللَّيَــــالِي

وَثَغْــرُهُ فِــي صَــفَاءٍ وَأَدْمُعِــي كَـــاللّآلِي

وهو باعتبار العكس يسمّى تشبيه الجَمع؛ كقوله[3] :

كأنّمـا تبسِــمُ عــن لُؤلُـؤٍ منضّــدٍ أو بــرَدٍ أو أقــاحْ

ويحتمل أنْ يُجعل قوله : "مِن مَعْدِنَي.." إلى آخره من الاستعارة المكنيّ عنها؛ بأنْ يُشبَّه "المَنْطِق" و "المُبَتَسَم" بذهب أو فضّة أو غيرهما، ولم يذكرَا، لكن أَثبت من لوازمهما المَعْدِن.

وقوله : "تُرْباً" من مجاز الحذف؛ أيْ طيب تُرْب.

---

(1) انظر التعريف في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 43/7.

(2) هذان البيتان ينقلهما الكتّاب ولا يذكرون قائلهما. والصدغ : الشعر المتدلي على الخد. انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 44/7.

(3) ينسب هذا البيت لأبي تمام، ولأبي محمد المطراني، وأكثرهم ينسبه للبحتري. وسبق توثيقه.

قوله : "خَلْق" و"خُلُق" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، ولا يبعُد أنْ يكون من تجنيس الاشتقاق، وهو أيضاً من التّجنيس المحرّف لاختلاف الحركات، ولا يكون من تجنيس التّصحيف؛ لأنّه خاص بالحروف المختلف أصلها؛ نحو : ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾[1].

وقوله : "بالحُسن مُشتمِل" مع قوله : "بالبِشر مُتّسِم" من الموازنة، وتقدّمت الإشارة في التّفسير إلى اشتمال البيت على التّجريد.

قال بعضهم : «وإنْ عاد ضمير "زانه" على "خُلُق"، وضمير "مشتمِل" و"مُبتَسَم" على "نَبِيّ"، كان في البيت الاستخدام، إذ هنا معنيان: خِلقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذاته، وأعاد الضّمير على هذا مرّة، وعلى ذلك أخرى؛ على أنّ الاستخدام إنّما يتمكّن في اللّفظ المشترك؛ نحو[2]:

إذا نَزَلَ[3] السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ   رَعَيْنَــاه وإنْ كــانُوا غِضــابَا

فاستعمل السّماء في بعض مجازاته؛ وهو المطر، وضميرَه في مجاز آخر؛ وهو النّبات، وهذا المعنى في البيت قريب منه». انتهى.

(1) سورة الكهف : من الآية 104.

(2) صاحب البيت هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب، وهو معوّد الحكماء. انظر الحماسة البصرية. أبو الحسن البصري : 79/1.

(3) ويروى "سقط" بدل نزل.

[حقيقة الاستخدام]

قلتُ : قد تقدّم[1] أنّ الاستخدام : «أَنْ يُرَادَ بِلَفْظٍ لَهُ مَعْنَيَانِ أَحَدُهُمَا، ثُمَّ بِضَمِيرِهِ الآخَرَ»[2]؛ ومنه : إِذا نَزَلَ.. البيت. أو بأَحَدِ ضَميرَيه أحدهما، وبالآخر الآخرَ؛ نحو[3] :

فَسَقَى الْغَضَا والسّاكنيه وإِنْ هُمُ — شَـبُّوهُ بَـيْنَ جَـوانِحٍ وضُـلُوع

أراد بضمير "الْغَضَا" المتّصل بـ "السّاكني" مكانه، وبالمتّصل بـ "شَبُّوهُ" شجره. ومعلوم أنّ بيت النّاظم ليس من نوعه الأوّل، وإنّما يُتخيَّل أنْ يكون من الثّاني، وليس به؛ لأنّ ما هنا ضميران؛ عاد أحدهما على الاسم، والآخر على غيره، لا أنّهما ضميران لاسم واحد، اختلف المراد بهما. وفي قوله "إنّما يتمكّن في المشترك" مع قوله "فاستعمل السّماء في بعض مجازاته" تدافعٌ؛ لأنّ المشترك حقيقةٌ في مدلولاته، وحدّهم الاستخدام يشمل المشترك والحقيقة والمجاز؛ ثمّ إنّه جزم أوّلاً بأنّ الاستخدام في البيت، وثانياً بأنّه فيه قريب منه. وإضافة "الاشتمال" لـ "الحسن"، و "الاتّسام" لـ "البِشر" من التّقسيم. وفي "الحُسن" و"البِشر" مراعاة النّظير، وهما من اللفّ والنّشر أيضاً؛ إنْ رجع "الحُسن" لـ "الخُلُق"، و "البِشر" لـ "الخَلْق". وفي البيت الثّاني اللفّ والنّشر؛ لرجوع "الزَّهْر" و"البدر" لـ "الخَلْق"، و"البحر" و"الدّهر" لـ "الخُلُق"، وفيه أيضاً الأيضاح.

---

(1) وذلك في شرح قول الناظم : "مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أَسمَعُهُ.."البيت.

(2) انظر حقيقة الاستخدام في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 143/7.

(3) صاحب البيت هو البحتري، وهو من قصيدة يمدح بها "ابْنَ نَيْبَخْت". انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 269/2.

[حقيقة الأيضاَح]

وهو : «أَنْ يُؤْتَى فِي كَلاَمٍ يُوهِمُ لَبْسًا؛ لِكَوْنِهِ مُوَجَّهَا أَوْ خَفِيّ الحُكْمِ، بِمَا يُوَضِّحُهُ»[1].

فمِن أيضاَحِ المُوجّه[2] :

يــذكّرُنيكَ الخيــرُ والشــرُّ كلّــه ... وقيلُ الخَنَى والعِلمُ والحِلمُ والجهلُ

فألقــاكَ عَــن مَكْرُوهِهَــا مُتنزّهــا ... وألقاكَ في محبُوبِها ولكَ الفضلُ

ومن أيضاَح الحكم الخفيّ قوله[3] :

ومُقَرْطـقٍ يُغْنِـي النَّـدِيمَ بِوَجْهِـهِ ... عَـنْ كَأْسِـهِ الْمَـلأَى وَعَـنْ إِبْرِيقِـهِ

فِعْــلُ الْمُــدَامِ وَلَوْنُهــا وَمَــذَاقُها ... فِــي مُقْلَتَيْــهِ وَوَجْنَتَيْــهِ وَرِيقِــهِ

وهو هنا في ذكر وجه الشّبه مع "البدر" وما عطف عليه، فإنْ جعلتَه احتراساً كما مرّ، كان من القسم الأوّل، وإلاّ فهو من الثّاني.

وفي البيتين أيضاً الجَمع مع التّقسيم؛ لجمع "الخُلُق" ثمّ تقسيمه إلى "البحر" و "الدّهر"، وفي الثّاني أيضاً من التّقسيم؛ إضافة الأوصاف إلى ما يليق بها؛ في إضافة "التّرَف" إلى "الزَّهْر"، وكذا إلى آخره. وفيه أيضاً الموازنة؛ لأنّ كلمات الشّطر الأوّل توازن كلمات الشّطر الثّاني؛ كلّ

---

(1) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب. تقي الدين الحموي : 383/2.

(2) صاحب البيتين مسلم بن الوليد. انظر البيتين في خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي : 383/2.

(3) هو ابن حيوس الدمشقي. والمقرطق : لابس القرطق؛ وهو ثوب فارسي مزركش. انظر البيتين في خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي : 383/2.

لفظة لمقابلتها، وهي بين "تَرَف" و"شَرَف" مماثلة، وفيه أيضاً السّجع؛ لتوافق فاء "تَرَف" مع "شَرَف"، وميم "كَرَم" مع "هِمَم"، وأكثر ما يكون في النّثر؛ نحو : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[1]. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أدرأ بكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»[2]. ويُسَمَّى هذا النّوع من السّجع خصوصاً التّشطير.

---

(1) سورة نوح : الآيتان 13 و14.

(2) يظهر أن ابن مرزوق نقل نص الحديث من كتاب الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني : ص 363. وهو غير ثابت بهذا اللفظ في كتب الحديث، ولفظه فيها : «اللهُمَّ إِنِّي أَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ». رواه البيهقي في السنن الكبرى عن عَنْ أَبِى مُوسَى مرفوعا في الحج. باب مَا يَقُولُ إِذَا خَافَ قَوْمًا.. الحديث رقم : 10623.

[حقيقة التّشطير]

وهو : «أنْ يُجْعَلَ كُلٌّ مِنْ شَطْرَي البَيتِ سَجْعَتَين مُخالِفَتَينِ لأُخْتَيْهِمَا»[1]؛ ومنه قول أبي تمام[2] :

تَـدْبيرُ مُعْتَصِـمٍ بِـاللهِ مُنْـتَقِمٍ   للهِ مُرْتَقِـب فـي اللهِ، مُرْتَغِـبِ

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 365.

(2) مرتغب أيْ : راغب، ومرتقب منتظر ثوابه. انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 147/7.

[حقيقة التّفويف]

وتلاؤم هذه الجمل، وذكر هذه التّشبيهات واحدًا عقب آخرَ وشبَهِه ممّا يُسرد من "التّفْوِيف"[1]، «وتكونُ الجُملُ مُتَسَاويةُ المَقَادِيرِ أو مُتَقَارِبَتُها»؛ كقول من يصف سحاباً[2] :

تَسَربَل وَشْياً من خُزُوزٍ تطرّزتْ   مَطارفُها طرزاً من البَرْق كالتّبرِ

فوشْي بلا رقمٍ، ورقم بلا يدِ   ودمْع بلا عَيْن، وضِحْكٌ بلا ثَغْرِ

ومنه[3] :

تُهْ أَحْتَمِلْ، وَاحْتَكِمْ أَصْبِرْ، وَعِزَّ أَهُنْ   وَدُلَّ أَخْضَعْ، وَقُلْ أَسْمَعْ، وَمُرْ أُطِعْ

وهذا اللّقب يرجِع بعضُه إلى مراعاة النّظير، وبعضُه إلى المطابقة.

وجَمعه بين "الفَرد" و"العَسكر" من الطّباق، و"العَسكر" و"الحَشَم" من مراعاة النّظير. وقوله : "مِن جَلالتهِ" من حسن التّعليل، أو من المذهب الكلامي؛ لأنّه لمّا كان تشبيه المفرد بالكائن مع العسكر بعيدًا عادة، فاستدلّ بقوله: "مِن جَلالته"؛ أيْ لا يُنكَر ذلك لجلالته عند ربّه عزّ وجلّ، فهو كقول المتنبّي في كون التّشبيه لبيان إمكان ما ادّعَى في المشبَّه[4] :

---

(1) انظر تعريف التفويف في بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح. الصعيدي : 585/4.

(2) هو أبو العباس الناشئ. انظر البيتين في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 310/2

(3) صاحب البيت هو أبو الوليد بن زيدون. انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 141/7.

(4) صاحب البيت هو المتنبي، وسبق توثيقه.

فَـإِنْ تَفُـقِ الأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِـنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْـكَ بَعْـضُ دَمِ الْغَـزَالِ

وهو أيضاً شبيه بحصر الكلّي وإلحاقه بالجزئيّ؛ نحو : ولَيْسَ للهِ بِمُسْتَنْكَرٍ.. البيت[1]. ومن هنا كان البيت مشتملاً على اللّقب المُسَمَّى بـ "التّبليغ"، وهو أحد أنواع المبالغة المقبولة، كما تقدّمت الإشارة إليه[2]، وذكرنا أقسامها وحقيقتها في كتاب "**الاستيعاب**"، فراجعه فيه؛ لأنّ الظّاهر أنّ كون "الفَرْد" كـ "العسكر" وصفٌ ممكن عادةً، لكنّه بعيدٌ، وهو هنا واقع.

وألفاظ "اللّؤلؤ" و"المكنون" و"الصَّدَف" و"المَعْدِن" من مراعاة النّظير، وكذا "المَنْطق" و"المُبتَسَم". وتقدّم أنّ قوله : "مِن مَعْدِني كذا" من التّوشيع. وفي هذا البيت التّبليغ أيضاً؛ لأنّ جعل "اللّؤلؤ المكنون" فرعاً لـ "المَنْطق" و "المُبْتَسَم" ممكن عادةً، وفيه تعسّف.

وقوله : "لا طِيب" و"طُوبى" من تجنيس الاشتقاق في وجه، ومن الشّبيه به في وجه. ولفظ "مُنتشِق" و"مُلتثِم" من مراعاة النّظير ومن الموازنة، وهما مع "تُرباً" و"طِيب" من مراعاة النّظير، كما أنّ "تُربًا" و"أَعْظُماً" من ذلك. وفي البيت التّفريق؛ لحكمه على التّرب وغيره من الطّيب؛ بأنّهما من الطّيب، ثمّ حُكمه على التّرب بأنّه لا يعادِله غيره، فإذًا جعلَ التّربَ أفضل، وغيره مفضولاً. وليس البيت من التّوجيه؛ لِما بيّنا من الأدلّة الكثيرة على مقصوده، فلا إبهام فيه.

---

(1) البيت لأبي نوّاس وسبق توثيقه، وهو بتمامه :

وَلَيْـسَ للهِ بِمُسْتَنْكَـرٍ أَنْ يَجْمَعَ العالَمَ في واحِدِ.

(2) وذلك في شرح أول أبيات الناظم.

الإِعْرَابُ

أَكْرِم : فعل أمر، معناه التعجّب كما تقدّم.

وخَلْق نبيّ : فاعله ومضاف إليه، والباء زائدة فيه لزوماً إصلاحاً للّفظ، لتصير العمدة بلفظ الفَضلة؛ لأنّ الأمر بغير "لام" لا يكون فاعله ظاهرًا، وسهُل ظهوره هنا؛ لكونه تعجّباً في المعنى لا أمرًا، هذا مذهب البصريين في مثل هذا اللّفظ[1]. وقيل : «أفعِل في مثله : أمر باستدعاء التّعجّب من المخاطَب، مُسندٌ إلى ضميره». وقيل : «المخاطَب ضمير الإكرام؛ أيْ بإكرام دُم به، والباء على هذَين المذهبَين زائدة في المفعول. وهمزة أفعِل للتّعدية». وقيل : «الباء هي الّتي للتّعدية، والهمزة للصّيرورة، وهو أمر للسّبب أو الشّخص».

زَانَه : فعل ماضٍ، ومفعول وفاعله "خُلُق"، والجملة في موضع خفض صفة لـ "خَلْق" أو لـ "نبيّ".

و "مشتمِل" و"مَتّسِم" : إنْ جعلتهما صفتَين لـ "نبيّ"، ترجّح كون جملة "زَانَه.." صفة له أيضاً؛ لئلاّ يُفصل بين المضاف إليه وصفته بصفة المضاف إنْ جعلت صفة لـ "خَلْق" على أنّه ليس بأجنبيّ، وإنْ جعلتهما صفتَين لـ "خُلُق"، ترجّح أيضاً أنْ يكون صفة لـ "خَلْق". وهو على كلّ حال راجحة من الوصف بالجملة قبل المفرد، والغالب عكسه. وفاعل "مُشتمِل" و"مُتّسِم" ومفعول "زَانَه" راجعات إلى "خَلْق" أو إلى "نبيّ"، وبقيّة الوجوه تقدّمت في التّفسير.

---

(1) انظر شرح الأشموني على ألفية ابن مالك. الأشموني : 264/2.

وبالحسن : متعلّق بـ "مُشتمِل". و"بالبِشر" بـ "مُتّسِم".

وكالزَّهْر : صفة أو حال؛ إمّا لـ "خَلْق" وإمّا لـ "نبيّ".

وفي شَرَف : حال من "الزَّهْر"، والعامل فيه التّشبيه، أو العامل في "كالزَّهْر"، ويجوز أنْ يكون حالاً من ضميره، ويجوز أنْ يكون "كالزَّهْر" خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ هو أو حاله، والعامل "في تَرَف" - على هذا - التّشبيه.

وقوله : "والبدر.." إلى آخره : معطوفات على "الزَّهْر"، فحُكمها وحُكم ما يلي كلاًّ منها حكمه.

كأنّ واسمها . "في عَسكر" خبرها. والعامل في "حين" إمّا العامل في الخبر أو التّشبيه.

وجملة "تلقاه.." : في موضع خفض بإضافة "حين" إليها.

وفي حَشَم : عطف على "في عَسكر".

وجملة "وهو فردٌ.." : في موضع نصب على الحال من اسم "كأنّ"، والعامل فيها التّشبيه، وتقدّم فيها وجه آخر في التّفسير.

ومن جلالته : متعلّق بما يتعلّق به "حين"، والأظهر تعلّقه بالتّشبيه. و"من" للتّعليل.

وجعل القصّار "من جلالته" صفة "فرد"، وأجاز أيضاً أنْ يكون ضمير "كأنّ" ضمير الشأن للتّفخيم، والخبر في البيت الثّاني. وجملة "وهو فرد.." اعتراض، و"في عسكر" صفة "فرد".

قال : «وكرّر "كأنّ" لمّا طال الكلام، تطرية للسّامع؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ ثمّ قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾[1]. وقوله تعالى : ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ﴾. ثمّ قال : ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾[2]».

قال : «واللّؤلؤ : مبتدأ. المكنون : صفته. في صَدَف : متعلّق بالصّفة. من مَعْدِنَي : خبر المبتدأ. و"من" لابتداء الغاية. والجملة خبر ضمير الشّأن، ومفسّرة له. ومنه : صفة منطق».

قال : «والإعراب الأوّل يقتضي تشبيهه أوّلاً بالعسكر، وثانيًا ألفاظه وثناياه باللّؤلؤ. والثّاني يقتضي أنّه في العسكر؛ تشبه ألفاظه وثناياه اللّؤلؤ». انتهى بالمعنى.

قلتُ : والإعراب الثّاني في غاية التكلّف، مع قلّة فائدته وإيهامه تخصيصه التّشبيه باللّؤلؤ بكونه في العسكر، وتنظيره بالآيتَين يقتضي أنّ الرّواية عنده "كأنّه اللّؤلؤ"، وكما يجوز تعلّق "في صَدَف" بـ "المكنون"، يجوز جعله حالاً من ضميره، والعامل هو، أو من "اللّؤلؤ"، والعامل التّشبيه.

لا : نفي وتبرئة. طيب : اسمها. مبني على الفتح؛ لأنّه مفرد. يعدِل: خبرها. وتربًا : مفعوله. والجملة في موضع رفع.

وفاعل "ضمّ" يعود على "التّرب". وأَعْظُمَه : مفعوله، ومضاف إليه. وجملة "ضمّ.." : في موضع نصب صفة لـ "تُربًا"، ولا يصحّ جعل "يعدِل" صفة "طيب". والخبر مقدّر؛ أيْ في الوجود. كما أجازه غير

(1) سورة البقرة : من الآية 89.

(2) سورة المؤمنون : الآية 35.

واحد، وهي غفلة؛ لأنّه كان يلزم تنوين "طيب"؛ لأنّه شبيه بالمضاف حينئذٍ، واسم "لا" المضاف - أو الشّبيه به - ينصب، اللّهمّ إلاّ أنْ يدَّعُوا حذف التّنوين ضرورة، لكنّه على خلاف الأصل، ولا محوج إليه، ثمّ الفرق بين الإعرابَين - لو صحّ الثّاني - أنّ الأوّل ينفي عن جنس الطّيب معادلةَ التُّرب، وُجِد ذلك الجنس في الخارج أم لا، فهو يقتضي أنّ المعادلة لا تصحّ. والثّاني إنّما ينفي الوجود عن الطّيب المعادِل، وليس فيه تعرّض لنفي صحّة المعادلة. فتأمّله.

وطوبى : مبتدأ. خبره "لمُنتشِق".

ومنه : متعلّق بـ "مُنتشِق"، و"من" لابتداء الغاية أو للتّبعيض. وسُوّغ الابتداء بالنّكرة؛ إمّا لكونها بمعنى الدّعاء - أو ما فيها من الوصف؛ باعتبار الأصل - أو الحال على ما مرّ، ولا محلّ لجملتها؛ إمّا لاستئنافها، أو لكونها إنشائيّة؛ لأنّها دعاء. ويجوز نصب "طُوبى" بفعل مضمر؛ أيْ أصاب خيرًا أو طِيباً. ولام "لمُنتشِق" - على هذا - للبيان؛ نحو : سَقْياً لَكَ[1].

---

(1) "سَقْيًا لَكَ". هو : دعاء موجه لله تعالى أنْ يسقي المخاطِب. وليس الغرض أن يسقيه بالماء حقاً، وإنّما الغرض من السقي الإنعام الغامر.

الْإِشَارَاتُ

[فضل حسن الخُلُق]

"زَانَه خُلُق"؛ صفة لخُلُق، فلا عبرة بمجرّد حسن الصّورة وجمالها، إنْ لم تصحبها الخُلُق الجميلة، كما لا يضرّ قبح الصّورة مع الفعل الجميل : «**إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ، ولا إلى أجْسَامِكُمْ، وَلَكِن يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأعمالكم**»[1]. وتقدّم من الإشارات إلى حسن الأخلاق - جملةً وتفصيلاً - ما فيه كفاية.

وقوله : "متّسِم"؛ إشارة إلى أنّه مجبول عليها؛ لأنّه مطاوع "وَسَمه" فاتّسَم، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ : «**إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُه؛ الْحِلْمَ، والأَنَاةَ**». فقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أنا أتخلّق بهما، أم الله جبلني عليهما؟ فقَالَ : «**بَلْ الله جبَلَك عَلَيْهِما**». فقال : الحمد لله الّذي جبلني على خصلتَين يحبّهما الله ورسوله[2]. ومن علامات التّوفيق استعمال العبد للأخلاق الحميدة؛ حتّى يُسِمه الله بها : «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ.. حتّى يُكْتَب عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**». الحديث[3].

واعلم أنّ الأخلاق الحسنة على الجملة هو ما يقرّبك من الله، وضدّها ضدّها : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4]. و : «**النَّاسُ مَعَادِنُ،**

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) رواه مسلم عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ مرفوعا في البر والصلة والآداب. بَاب قُبْحِ الْكَذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِ وَفَضْلِهِ. ورواه غيره.

(4) سورة الحجرات : من الآية 13.

خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»[1]. والفقه الفهم، وليس فقيهاً إلاّ العامل بطاعة الله؛ لأنّه الّذي ينفع نفسه، والعاصي مطموس البصيرة، لا عقل عنده فيكون متّصفاً بالفهم.

وقوله : "كالزّهْر في تَرف"؛ ينبغي للمؤمن أنْ يشبه الزَّهْر في نظافة جسمه وثيابه، وطِيب رائحته؛ بصفاء باطنه، وسهولة تناوله - في النّفس والحال - على مَن يريده من إخوانه المؤمنين، كما أنّ الزَّهْر لا يتمنّع على قاطفه، ولا يقطفه إلاّ محبّه. "والبَذْر في شَرَف"؛ أيْ ويتمنّع ويرتفع عن أنْ يناله عدوّه من أهل المعاصي والكفّار، وبذلك وصف الله أحبّاءه؛ فقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3].

حَـليمٌ إذَا مَـا الحِلـمُ زيَّـن أَهلَـهُ   معَ الحلمِ فى عين العدوّ مَهيبُ[4]

وقال آخر[5] :

وَلاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   بَـوَادِرُ تَحْمِـي صَـفْوَهُ أَنْ يُكَـدَّرَا[6]

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ. بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾.

(2) سورة المائدة : من الآية 54.

(3) سورة الفتح : من الآية 29.

(4) صاحب هذا البيت هو كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار، وقيل : هو لعريقة بن مُسافع العبسي. انظر لسان العرب. ابن منظور : 328/1. نهاية الأرب. النويري : 157/7.

(5) هو النَّابغة الجعديُّ. انظر لسان العرب. ابن منظور : 124/9.

(6) بعده قوله : ولا خَيْرَ في جَهْلٍ إِذَا لم يكن له   حَلِيمٌ إِذَا ما أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرا

"والبَحْر في كَرَم"؛ أيْ ولا يدّخر شيئاً في قعر بيته، بل ينبذ العلاقات الدّنيوية، ويفرغ خزائنه منها كالبحر؛ فإنّه لا يرتاح حتّى يُلقِي بأمواجه جميع ما في بطنه إلى ساحله، ولا يكون الكَرَم إلاّ في نبذ الحلال، وأمّا التّنصّل من الحرام، فتلك طهارة من الأخباث، وهي داخلة في طهارة الزُّهْر، وهي سابقة على هذا المقام؛ لأنّها تَخْلية، والتّخلّي يسبق التّحلّي. وتأمّل لفظة "لي" من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَا أُحِب أَنَّ لِي أُحُدًا ذَهَبًا، يَبِيتُ عِنْدِي مِنْهُ شَيءٌ، إِلَّا دِينَارًا أُرْصِدَهُ لِدَيْنٍ**»[1].

وقوله : "والدَّهْرُ في هِمَم"؛ لَمّا كان الدّهر لا يرضى ممّن حاربه إلاّ بأحسن المنازل، ولا لِمن سالمه إلاّ بأشرفها، فكذا المؤمن لِمن عاداه، ولا عدوّ له إلاّ من عادى ربّه، لا يرضى ممّن لم يُقلع عن المعاصي - كفرًا أو غيره - إلاّ بالقتل والإذلال، ولا لِمن أطاع إلاّ بالتّشريف والإجلال. أو يُقال : لمّا كان الدّهر - وهو اللّيل والنّهار - دائباً في طاعة ربّه، منقادًا لِما سُخّر إليه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[2]. فهمّته الدّؤوب على طاعة مولاه، فكذا ينبغي للمؤمن أنْ يكون، حتّى يوافق اللّيل والنّهار في عملهما، وحينئذٍ يتشبّه بالملائكة الّذين ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[3].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سورة الفرقان : الآية 62.

(3) سورة الأنبياء : الآية 20.

[ثمرة حُسن الخُلق في الدّنيا والآخرة]

فإنْ حصلت له هذه المنزلة، كان ممّن يخاف الله، «وَمَنْ خَافَ اللهَ، أَخَافَ اللهُ مِنْهُ كُلّ شَيءٍ»[1]، فيُرى حينئذٍ - وإنْ كان فردًا؛ من أجل ما يُلقي الله عليه من الجلال - كأنّه في عسكر وحَشَم، ومَن داوم على الطّاعة، وأَخْلَصَ للهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ عَلَى لِسَانِهِ[2]، فيشبه حينئذٍ ما هو أعزّ عند النّاس وأبهج من اللّؤلؤ المكنون في الصّدف، بألفاظ تلك الحِكم الّتي ظهرت على لسان مُلقيها على فيه، ومُخرجها من صدره الّذي كان كناناً لها كالصّدف.

ولمّا كان الخير الكبير إنّما هو في تلك الحِكم : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[3]، كانت أصلاً يُشبَّه بها الخير القليل الّذي هو اللّؤلؤ المكنون في الصّدف، وكان قليلاً؛ لأنّه من متاع الدّنيا : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾[4]. والخير الكثير عزيز الوجود، وإنّما يُشبَّه - إذا بولغ في المدح - بالعزيز الوجود، لا بالمبتذل، فإلى هذا هو الإشارة بعكس التّشبيه.

---

(1) هذا القول مروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو بتمامه : «مَنْ خَافَ اللهَ أَخَافَ، اللهُ مِنْهُ كُلّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللهَ خَافَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». رواه البيهقي في شعب الإيمان : 304/2. رقم الأثر 943.

(2) أصله حديث ضعيف. انظر كشف الخفاء. العجلوني : 224/2.

(3) سورة البقرة : من الآية 269.

(4) سورة النساء : من الآية 77.

وخصّ "المَنطق" بكونه منه؛ لعظم الكلمات، وأطلق "المُبتَسَم"؛ لأنّه من جنس الصورة، وهي إلى الدّنيا أقرب، فلِذا لم يصفه بكونه منه؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رضي الله عنها[1] : «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟**»[2]. أو يكون حذف من الأواخر لدلالة الأوائل، فليلحق بترجمة المعاني. والإشارة فيه إلى أنّ آخر هذه الأمّة يجب أنْ يقتدي بأوّلها، ويتقيّد بما تقيّدت به.

فإذا تقرّرت هذه الصّفات للعبد حال حياته، طاب مثواه، وكانت الجنّة - بفضل الله - مأواه، ويقال له حينئذٍ : لا طِيب من أنواع طِيب الدّنيا يعدِل طِيب تُرب ضمّ أَعظُمه؛ لأنّ القبر - على مثل هذا - روض من رياض الجنّة، فلمِثل هذا الطِّيب يعمل العاملون؛ فإنّه الثّمرة المقصودة، ويطيب حينئذٍ ثناه، كما طاب ثراه : «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، فَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ كَذَلِكَ**». وإيّاك أنْ تكون من المكثرين بطِيب الدّنيا مع التّفريط في طِيب الآخرة، فتقبح رائحتُك في حياتك وبعد موتك : «**وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ كَذَلِكَ**»[3].

ورحم الله ابن دريد القائل[4] :

---

(1) الثابت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا الكلام لعمر بن الخطاب ولعبد الله بن مسعود وغيرهما ولم يثبت أنّه قاله لعائشة رضي الله عنها.

(2) رواه البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما في الْهِبَةِ وَفَضْلِهَا وَالتَّحْرِيضِ عَلَيْهَا. بَاب هدِيَّةِ مَا يُكْرَهُ لُبْسُهَا.

(3) رواه بمعناه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه مرفوعا : 409/21. رقم الحديث : 13996. والحديث صحيح.

(4) انظر البيت في العقد الفريد. ابن عبد ربه : 194/1.

وإنَّمَــا المَــرْءُ حَــدِيثٌ بَعْــدَهُ فكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى

وقوله : "طُوبى.." إلى آخره؛ إنّما يستنشق الطّيب ويلتثِمه مَن يحبّه، ومَن يحبّه يسعى في تحصيله، فهو تحريض على تحصيل هذا الطّيب.

اللّهمّ أسعدنا بلقائك، وطيّبنا للموت، واجعل فيه راحتنا بمنّك وفضلك.

❁ ❁ ❁

أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ... يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ
يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الفُرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ وَالنِّقَمِ
وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ ... كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ
وَالنَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ ... عَلَيْهِ وَالنَّهرُ سَاهِي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ
وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا ... وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالغَيْظِ حِينَ ظَمِي
كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالمَاءِ مِنْ بَلَلٍ ... حُزْناً وَبِالمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ
وَالجِنُّ تَهْتِفُ وَالأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ ... وَالحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمِ

شَرْحُ الْغَرِيبِ

أَبَان : أظهر وأوضح. والبَيانُ : ما يَتَبَيَّنُ به الشّيءُ من الدَّلالة وغيرها. وبانَ الشّيء بَياناً: اتَّضحَ، فهو بَيّنٌ، والجمع أَبْيناءُ. وكذلك أَبانَ الشّيءُ، فهو مُبينٌ؛ أيْ اتّضح. وأَبَنْتُهُ أنا : أَوْضَحته. واسْتَبانَ : ظَهَر. واسْتَبَنْتُهُ أنا : عَرفته. وتَبَيَّنَ : ظَهر. وتَبَيَّنْتُهُ أنا؛ تتعَدَّى هذه الثّلاثة ولا تتعدَّى. والتَبْيينُ : الأيضاح. والوضوح أيضاً. وبَيَّنَ الصُبحُ لذي عينَين؛

أيْ تَبَيَّنَ. و : "لأْياً ما أُبَيِّنُها"[1]؛ أيْ أَتبيَّنها. والتِّبْيَانُ مصدرٌ. ولم يجئ منها مكسور التّاء إلاّ هذا والتِّلْقَاء[2].

ومَولِدُه : الظّاهر احتماله للثّلاثة؛ أيْ المصدر أو الزّمان أو المكان؛ لأنّ لغة غير طَيِّء - فيما صحّت لامه من الثّلاثي وفاؤه واو - صَوْغُ "مَفْعِل" للثّلاثة - بكسر العين -؛ حكاه في "**التسهيل**"[3]، إلاّ ما شذّ مِن "مَوْصِل" و"مَوْزِن" وغيرهما.

والمعنى : أَبَان آياتُ ولادته، أو آياتُ زمانِ ولادته، أو آياتُ مكانِها، وهذا أدنى الاحتمالات معنًى، وأقواها لغةً، ولم يذكر الجوهري غيره؛ قال : «ميلاد الرّجل : اسم للوقت الّذي وُلد فيه. والمَوْلِد : الموضع الّذي وُلِد فيه»[4].

عُنْصُره : العُنْصُرُ بضمّ العين والصّاد : الأصل والحَسَب[5]. يُقال : لهم عناصِرُ تُثْنَى بِهِ الْخَنَاصِرُ[6]. ووزنه "فُنْعُل" عند الزّبيدي[7]، و"فُعْلُل"

---

(1) هو من قول النابغة الذّبياني، والبيت بتمامه :

إلاَّ الأواريّ لأْيــاً مــا أُبَيِّنُهــا والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمظلومة الجَلَدِ

انظر لسان العرب. ابن منظور : 126/3.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2082/5. مادة بين.

(3) انظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك : ص 208.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 553/2. مادة ولد.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 748/2. مادة عصر.

(6) أيْ تَبدَأُ بِها إذَا ذُكِرَ أَشْكَالُهَا لِشَرَفِها.

(7) انظر تاج العروس. الزبيدي : 152/13. مادة عنصر.

عند ابن السّكّيت[1]. وسُمِّيت العناصِر الأربعة عناصِر[2]؛ لأنّها أصول المركّبات منها.

والمُبتَدَأ : مَبْدأُ أمره؛ أيْ أوّل كينونته، مِن ابتدأتُ بالشّيء؛ إذا فَعَلتُه أوَّلَ[3].

ومُخْتَتم : أيْ منتهى أمره، من اخْتَتَمْت الشّيء، نقيض افتَتَحْته، وخَاتِمَة الشّيء : آخره. ومنه خَاتِم النّبيّين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم أجمعين. وخِتَامُه مسك : آخره؛ لأنّ آخر ما يجدونه رائحة المسك[4].

وتَفَرَّس : تَثَبَّت ونَظر. وتَفَرَّسْتُ فيه خيراً. وهو يَتَفَرَّس؛ أيْ يتثبّت وينظر. تقول منه : رجلٌ فارِسُ النّظر. والفِراسَةُ – بالكسر – الاسمُ، وفي الحديث : «**اتَّقوا فِراسَةَ المُؤمِنِ**»[5]. وأمّا الفَراسَةُ – بالفتح – فمن فارِسِ الخَيل. وقيل : التّفرّس : ظَنٌّ تُوجبُه علامةٌ[6].

والفُرْس : بالضمّ، ويُقال فَارِس أيضاً، وفي الحديث : «**وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ**»[7].

---

(1) انظر إصلاح المنطق. ابن السكيت : ص 81.

(2) العناصر الأربعة عند الفلاسفة هي : التراب والهواء والنار والماء.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 35/1. مادة بدأ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1908/5. مادة ختم.

(5) رواه الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه مرفوعا في تفسير القرآن. بَاب وَمِنْ سُورَةِ الحِجْرِ. ورواه غيره. والحديث ضعيف.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 957/3. مادة فرس.

(7) رواه ابن حبان في صحيحه عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ مرفوعا : 112/15. رقم الحديث : 6716. ورواه غيره. والحديث صحيح.

وبلاد فَارِس أيضاً، وهم أمّة عظيمة، كان مسكنها في شمال العراق، واختُلِف في نَسَبهم؛ فقيل : هم من ولد هَدْرَام بن أَرْفَخَشْدِ بن سَام بن نُوح عليه السّلام، وأنّه وُلد له بضعة عشر ولدًا رجلاً، كلّهم فَارِس شجاع، فسمّوا الفُرْس لذلك. وقيل : هم من ذريّة فَارِس، وفَارِس من ذريّة سَام بن نُوح ليس من صلبه. وقيل غير ذلك ممّا يطول ذكره من غير فائدة، وكذا التعرّض لذكر ملوكهم وأسمائهم ووقائعهم خارج عمّا نحن بصدده[1].

وأُنذروا؛ أيْ أُعلِموا. والإنْذَار : الإعْلامُ بالشّيء المَخُوف.

وقال الجوهري : «الإنْذارُ : الإبلاغُ. ولا يكون إلاّ في التّخويف. والاسم النُذْرُ؛ ومنه: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[2]؛ أيْ إنْذاري. والنَذِيرُ : المُنْذِرُ، والإنْذَارُ أيضاً. و"النّذِيرُ العَرْيان"؛ قال ابن السكّيت : "رجُل مَنْ خَثْعَمَ حَمَلَ عَلَيْهِ يومَ ذِي الخَلَصَةِ عَوْفُ بنُ عَامِرٍ فقطَع يَده ويَدَ امرأَتِه". وتَنَاذَرُوا : خوّف بعضهم بعضاً. ونَذِرَ القومُ بالعَدُوِّ - بكسر الذّال - : علموا»[3].

بحُلولِ : الظّاهر أنّه مِن حَلَّ العذاب يَحِلُّ بالكسر؛ إذا وَجب. وبالضمّ؛ إذا نزل. وقُرِئ بهما : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾[4]. وأمّا : ﴿أَوْ

(1) انظر الكلام على بلاد فارس في لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان. محمد صديق خان : ص 95.

(2) سورة القمر : من الآية 16. وتكرّرت في عدّة آيات.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 825/2. مادة نذر.

(4) سورة طه : من الآية 81. قرأ الكسائي وحده بضم الحاء. المبسوط في القراءات العشر. النيسابوري : ص 297.

تَحُلُّ قَرِيبًا ﴾[1] فبالضمّ، أيْ تنزل. وأَحْلَلْتُهُ : أنزلته. أو من حَلَّ بالمكان حَلاًّ وحُلُولاً ومَحَلاًّ. والمَحَلُّ أيضاً : مكان الحُلُول. وحَلَلْتُ القومَ وحَلَلْتُ بهم بمعنىً. والمُحِلَّتانِ : القِدْرُ والرَحَى. والمُحِلاَّتُ : هما والدّلو والشَفرة والفأس والقدّاحة والقِربةُ؛ أيْ مَن ملكها حَلَّ حيث شاء، وإلاّ فلا بدَّ من مجاورَته النّاس ليستعيرها منهم[2].

البُؤسِ والبأسَاء : الشدّة. وليس لـ "فَعْلاَء" هذه "أَفْعَل"؛ لأنّها اسم، كما أنّ "أَفْعَل" الاسم لا "فَعْلاَء" له؛ كأحمد. والبُؤْسَى : خلاف النُّعْمَى. والبَأْسُ : الشِدَّة في الحرب. بَؤُسَ - بالضمّ - يَبْؤُس بَأْساً؛ إذا كان شديد البَأْسِ. والبَأْسُ : العذاب. والأَبْؤُس : جمع بُؤْسٍ. و "يوم بُؤْسٍ" : ضدّ يوم نُعْمٍ[3]. وفروعه كثيرة.

والنِّقَمِ : جمع نِقْمَة؛ وهي العقوبة، وانْتَقَمَ الله منه : عاقبه. والاسم نَقِمَةٌ بوزن كلمة. والجمع نَقِماتٌ ونَقِمٌ؛ ككلِمات وكَلِم، وإنْ شئتَ سكّنتَ القاف، ونُقلت حركتها إلى النّون، فقلتَ : نِقْمَة، والجمع نِقَم؛ كنِعْمَة ونِعَم[4]. وهذا هو ضبط النّظم.

والإوانُ والإيوانُ : يُقصر ويُمدّ.

قال الجوهري : «الصُّفَّةُ العظيمة كالأَزَجِ، ومنه إيوانُ كسرى»[5].

---

(1) سورة الرعد : من الآية 31.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1672/4. مادة حلل.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 906/3. مادة بأس.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2045/5. مادة نقم.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2075/5. مادة أون.

وقال غيره : «هو فارسيّ، وهو بيْتٌ مُؤَزَّجٌ غَيْرُ مَسْدُودِ الوجه»[1]. والمُؤَزَّجُ بالهمز والزّأيْ والجيم : بيت يُبنى طولاً. وقيل : «الإيوانُ : البناء العالي». وقيل : «بيت كبير مستطيل ذو شرافات». وقيل : «مجلس المَلِك المعدّ لجلوسه مع أرباب دولته لتدبير أمر المُلْك». ويُسَمَّى الآن في المغرب بـ "المَشْوَر"[2].

وجمع الإِوَانِ أُوُنٌ؛ كخِوَان وخُوُن، وجمع الإِيوَانِ إيوَانَاتٌ وأَوَاوِينُ؛ كديوان ودواوين، وأصله دِوَان[3]، أُبدِل من إحدى واويه ياء[4].

وكِسْرَى : لقب ملوك الفُرْس؛ بفتح الكاف وكسرها، وهو معرب "خِسْرَ"[5]، ونُقل أنّ المبرّد اختار الفتح، وأبو حاتم[6] الكسر. والنّسب إليه كِسْرَوِيٌّ وكِسْرِيٌّ؛ كحِرْمِيّ؛ عن أبي عمرو[1]. وجمعه أَكَاسِرَةٌ على غير قياس، وقياسه كِسْرَوْن؛ كعِيسَوْن وُموسَوْن بفتح السّين[2].

---

(1) انظر أساس البلاغة. الزمخشري : 40/1.

(2) والبناء ما زال قائما إلى يومنا الحالي في تلمسان، وقد قامت السلطات المعنية في الجزائر بترميمه بمناسبة تظاهرة "تلمسان عاصمة الثّقافة الإسلامية" سنة 2005م.

(3) هكذا الثابت في كل النّسخ، والصواب : دِوِوَان.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2075/5. مادة أون.

(5) في القاموس المحيط : خُسْرَوْ، ومعناه واسِعُ المُلْكِ.

(6) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (.. - 248 هـ = .. - 862 م). من كبار العلماء باللغة والشعر. من أهل البصرة، كان المبرّد يلازم القراءة عليه. له نيف وثلاثون كتاباً، منها كتاب (المعمّرين). انظر الأعلام. الزركلي : 143/3.

(1) هو أبو عمرو بن العلاء، وسبقت ترجمته.

(2) انظر القاموس المحيط. الفيروز أبادي : ص 470. مادة كسر.

قالوا : «وكلّ مَن ملَك الفُرس يسمّى كِسْرَى، والرّوم قَيْصَر، والتّرك خَاقَان، واليمن تَبعاً، والحبشة النّجَاشِيّ، والقِبط فِرْعَون، ومصر العَزِيز، والبَرْبَر جَالُوت، ومَن مَلَك العرب من قِبَل العجم النُّعْمَان، في نظائر كثيرة لهذه»[1].

مُنْصَدِع : منشقّ. والصَدْعُ : الشَقُّ. وزاد بعضهم : «البيّن»[2].

وصَدَعْتُهُ فانْصَدَعَ : انشقَّ. فهو مَصْدُوع. والصَديعُ : الصّبح. والتَصْديعُ : التّفريقُ. وتَصَدَّعَوا : تفرَّقوا[3].

وشَمْلُ القوم : مَجْمَعُ عَدَدِهِم، مِن شَمَلَهُمْ الأمر يَشْمَلُهُم؛ إذا عمّهم. وفتح الماضي، وضمّ المستقبل لغة، ولم يعرفها الأصمعيّ. وأمرٌ شَامِلٌ، وجمع الله شَمْلَهُمْ؛ أيْ ما تَشَتَّتَ من أمرهم. وفرّقَ الله شَمْلَهُ؛ أيْ ما اجتمع من أمره[4].

ومُلْتَئِم؛ أيْ مُجتَمِع، لَأَمْتُ الجُرح والصَدْعَ : سَدَدته، فالتَأَمَ. وشيءٌ لَأْمٌ مُلْتَئِمٌ : مجتمِعٌ. ولاءَمْتُ بينهم مُلاَءَمَةً : أَصْلحتُ وجمعتُ. والْتَأَمَا : اتّفقَا. وطعامٌ لا يُلائِمُنِي، ولا تقل : يُلاَوِمُنِي، فإنّه من اللّوم.

---

(1) وملِك فرغانة يُسمَّى الإخْشِيد، وملِك أشروسنة يُسمَّى الإفْشِين، وملِك خَوَارزم خَوَارزَمْشَاه، وملِك جُرْجان صُول، وملِك اذْرَبيجان اصْبَهْذ، وملِك طَبَرِستان سَالاَر. انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. أبو الفرج ابن الجوزي : 346/6.

(2) انظر لسان العرب. ابن منظور : 181/10. مادة شقق.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1241/3. مادة صدع.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1738/5. مادة شمل.

وفي الحديث : «لِيَتَوَخَّ الرَّجُلُ لُمَتَهُ». أيْ شكلَه ومثلَه، والهاء عوضٌ من ذهاب همزة الوسط. واللِئْمُ - بالكسر - : الصّلح والاتّفاق[1].

والنَّارُ : مُؤَنّثة، واوية، تصغيرها نُوَيْرَةٌ، والجمع نُوُرٌ وأنْوُر ونِيرانٌ. قُلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها. ونَارُ الناقة : سِمَتُها. وفي المثل : "نِجَارُها نَارُها". وتَنَوَّرتُ النَّارَ من بعيد : أَبصرْتُها[2].

وخَمَدَت النّار، تَخْمُدُ خُمُوداً : سكَنَ لَهَبها ولم يَطْفَأ جَمْرُها. وهَمَدَتْ؛ إذا طَفِئ جمرها. فهي خَامِدَةٌ. وأَخْمَدْتُها أنَا. والخَمُّودُ - بوزن التنُّور - : موضعٌ تُدفنُ فيه النّارُ لتَخْمُدَ[3].

والأنْفَاسُ : جمع نَفَس بفتح الفاء، وهو دفع البُخار الحارّ عن القلب، وجَلب النّسِيم البارد إليه، وهو خاص بكلّ ذي رِئةٍ. وكلّ ذي رِئة مُتَنَفِّسٌ. ودوابُّ الماء لا رِئَة لها.

وتَنَفَّسَ الصُعَداء. وقد يُتَجَوَّز به فيُقال : تَنَفَّسَ الصّبح؛ أيْ تَبَلَّج، والنّهار : زاد، والموجُ : نضحَ الماء. وتَنَفَّسَتِ القوسُ : انصدَعتْ. والنّار إذا اشتدّ حرّها؛ وكأنّه يُحتاج إلى تنقّص من امتلائها[4]. ومنه - والله أعلم - : « **اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ : يَا رَب أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا. فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ..**» الحديث[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2025/5. مادة لام.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 838/2. مادة نور.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 469/2. مادة خمد.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 984/3. مادة نفس.

(1) سبق تخريجه.

والأَسَفُ : أشدُّ الحزن. وأَسِفَ على ما فاته وتأَسَّفَ : تَلَهَّفَ. وأَسِفَ عليه أَسَفاً : غَضِبَ. وآسَفَهُ : أغضَبَه. والأَسِيفُ والأَسُوفُ : السّريعُ الحزنِ، الرقيقُ القلب. وقد يكون الأسيفُ الغضبانَ مع الحزن[1].

والنَّهْرُ : بسكون الهاء وفتحها؛ واحد الأنْهَار، وعنى به هنا وادي السَّمَاوَة. والسَّمَاوَةُ : مفازة بين الكوفة والشّام[2]. وقد يكون النّهَر بمعنى الأنهار، ومنه : ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾[3].

ونَهَرْتُ النّهرَ : حفرتُهُ. ونَهَرَ الماءُ : جرى في الأرض، وجعل لنفسه نَهْراً، وكلُّ كثير جرى فقد نَهَرَ واسْتَنْهَرَ. وأَنْهَرْتُ الدمَ : أَسَلْتُهُ، والطّعنةَ : وسَّعتُها. واسْتَنْهَرَ الشّيء : اتَّسع[4].

وسَاهِي العَيْنِ؛ أيْ ساكنها، ويحتمل أنْ يريد بـ "العين" ينبوع الماء الّذي هو أصل جَرْيَة النّهر، وإذا سكنت سكن النّهر، ويحتمل أنْ يكون سكون العين مجازًا؛ لعدم جَرْيَة الماء؛ لأنّ الماء الجاري لا يسكن، بل يخلُف بعضه بعضاً، كالعين اليقظَى، فإنّها تطرف المرّة بعد المرّة، وضدّها النّائمة.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1330/4. مادة أسف.

(2) قال البكري : السماوة مفازة بين الكوفة والشام، وقيل : بين الموصل والشام؛ وهى من أرض كلب. وقال أبو حاتم عن الأصمعي وغيره : السماوة أرض قليلة العرض طويلة. انظر معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. البكري : 754/3.

(3) سورة القمر : من الآية 54.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 839/2. مادة نهر.

والسَهْوُ : السّكون واللِينُ، والجمع سِهاءٌ؛ كدَلْو ودِلاَء؛ قال[1] :

تَناوَحَتِ الرياحُ لفقد عَمْرٍو وكانت قبل مُهْلَكِهِ سِهاء

أيْ ساكنة ليّنة. والمُساهاةُ في العِشرة : ترك الاستقصاء. والسَهْواءُ : صدرٌ من اللّيل. وفي المثل : "إنَّ المُوصَّينَ بنو سَهْوانَ"؛ أيْ لا يحتاج إلى التّوصية إلاّ السّاهي. والسَهْوُ : الغفلة. وسَها يَسْهو عن الشّيء، فهو سَاهٍ[2]. ويحتمل ما في النّظم أنْ يكون من الغفلة مجازًا.

والسَّدَم بالتّحريك : الندَمُ والحُزن. وسَدِمَ بالكسر. ورجلٌ سَادِم؛ أيْ نادمٌ، ونَدْمَانُ سَدْمَانُ؛ إتباعٌ. وماله هَمٌّ ولا سَدَمٌ إلاّ ذلك. ورَكِيَّةٌ سُدْمٌ وسُدُمٌ؛ كعُسْر وعُسُر؛ إذا ادَّفَنَتْ[3].

وقال غير الجوهريّ[4] : «سَدِم الماء بالكسر : تغيّر؛ لطول عهده وطُحْلب وتراب وقع فيه، حتّى اندفن وغاب. وماء سَدِمٌ وسَدُومٌ.. ومنه رجل سَادِمٌ نَادِمٌ؛ أيْ متغيّر من الحزن والغمّ». انتهى[5].

قلتُ : والتّفسير الأوّل أولى.

وَسَاءَ : أحزن. سَاءَه يسُوءُه : ضدّ يسُرُّهُ. وسَآهُ؛ قَلْب سَاءَهُ. يُقال : سَأَوْتُهُ؛ بمعنى سُؤْتُهُ[1].

---

(1) هو الحرث بن عوف. انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 417/14.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2386/6. مادة سها.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1948/5. مادة سدم.

(4) هو الزمخشري.

(5) انظر أساس البلاغة. الزمخشري : مادة سدم.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 55/1. مادة سوأ.

وَسَاوَة : مدينة بينها وبين مدينة الرَيّ اثنان وعشرون فرسخا[1].

وقال بعضهم : «موضع بالشّام»[2].

وغَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا : نَقَصَت وجفّت. قيل: وبالصّاد المهملة : غَاصَت.

يُقال : غاضَ الماءُ يَغيضُ غَيْضاً : قَلَّ ونضب. وانْغاضَ مثله. وغِيضَ الماءُ : فُعِلَ به ذلك. وغاضَهُ الله تعالى : يتعدَّى ولا يتعدّى. وأغاضَهُ الله تعالى أيضاً. وغاضَ ثمنُ السِلعةِ : نقُص. وغِضْتُهُ أنا. و : ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾[3]؛ أيْ تَنْقُص. وغَيَّضْتُ الدّمعَ : نقصته وحبسته. وغاضَ الكرام وفاضَ اللّئامُ. وغَيْضٌ من فيضٍ؛ أيْ قليلٌ من كثيرٍ[4].

والبُحَيْرَةُ : بِرْكَة ماء، وكأنّها تصغير بَحْرَة. وكانت هذه البُحَيرة - على ما قيل - عظيمة؛ طولها ستّة أميال، وعرضها مثل ذلك[1].

---

(1) قال الجميري : ساوة : قرية في الطريق ما بين همذان والريّ، بينهما اثنان وعشرون فرسخاً. انظر الروض المعطار في خبر الأقطار. الجميرى : ص 297.

(2) قال الزرقاني : وقع لبعض المتأخرين أنّ بحيرة ساوة تُسمّى بحيرة طبرية (التى بالشام). انظر شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. الزرقاني : 228/1.

(3) سورة الرعد : من الآية 8.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1096/3. مادة غيض.

(1) تعتبر بحيرة ساوة فريدةً من نوعها في العراق، حيث تملك أعلى نسبة ملوحة في المسطح المائي فيها، ويبلغ طولها 4.47 كم، وعرضها 1.77كم، أمّا مستوى المياه فيها فيرتفع عن الأرض المجاورة لها بمقدار 1-4 م تقريباً، وهذا يميّزها ويمنحها مظهراً جميلاً وغريباً، بالإضافة إلى أنّ مستوى المياه فيها أعلى من مستوى مياه نهر الفرات بـ 5-7 م.

والوَارِدُ هنا : الّذي يأتي الماء للسَّقْي، والوِرْدُ : خلاف الصَدَر، والوُرَّادُ أيضاً، وهم الّذين يرِدُون الماء. ووَرَدَ وُروداً : حضر. وأوْرَدَهُ غيرُه، واسْتَوْرَدَهُ : أحضره[1].

والغَيْظُ : غَضَبٌ كامنٌ للعاجز. غاظَهُ فهو مَغِيظٌ. ولا يُقال أغَاظَهُ. وغايَظَهُ فاغْتاظَ وتَغَيّظَ بمعنًى[2].

ظَمِئ : يَظْمَأ فهو ظَمْآن؛ أيْ عَطِش. والمَظْمِيُّ من الزّرع : ما تَسْقيه السّماء. والمَسْقَوِيّ: ما يُسْقَى بالسَّيْح[3].

والحُزْنُ والحَزَنُ : ضدّ السّرور. وحَزِنَ – بالكسر – فهو حَزِنٌ وَحَزينٌ. وأحَزْنَهُ غيره وحَزَنَهُ؛ كَأَسْلَكَه وسَلَكَه، وعليه جاء مَحْزونٌ. وقال اليزيديّ[4] : «حَزَنَهُ لغة قريش، وأَحْزَنَهُ لغة تميم، وقد قُرِئَ بهما». واحْتَزَنَ وتَحَزَّنَ بمعنًى. والحُزَانَةُ بالضمّ والتّخفيف : عِيال الرّجل الّذي يَتَحَزَّنُ بأمرهم[1].

والضَّرِمُ : مصدر ضَرِمَتِ النّارُ بالكسر، تضرَم – بالفتح – ضرَماً؛ أيْ التهبتْ. ومثله تَضَرَّمَتْ، واضْطَرَمَتْ. وأَضْرَمْتُها أنا وضَرَّمْتُها؛ شُدِّد

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 549/2. مادة ورد.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1176/3. مادة غيظ.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2417/6. مادة ظمى.

(4) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدويّ، أبو محمد، اليزيديّ (138 – 202هـ= 755 – 818م). عالم بالعربية والأدب. من أهل البصرة. وسكن بغداد، فصحب يزيد بن منصور الحميري (خال المهدي) يؤدب ولده، فنسب إليه. واتصل بالرشيد فعهد إليه بتأديب المأمون. وعاش إلى أيام خلافته. وتوفي بمرو. انظر الأعلام. الزركلي : 163/8.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2098/5. مادة حزن.

للمبالغة. والضِرَامُ بالكسر : اشتعال النّار في الحَلفاء ونحوِها، وأيضاً : دُقاق الحَطب السّريع اشتعالُها فيه. والضَرَمَةُ : السَعَفَةُ والشّيحَةُ في طرَفها نارٌ. يُقال : ما بها نافِخُ ضَرَمَةٍ؛ أيْ أحدٌ. والجمع ضَرَمٌ. والضَريمُ: الحريق. وضَرِمَ بالكسر : اشتدَّ حرُّه، والرّجلُ جوعه. والضَرِمُ : الجائع، وفرخ العُقاب، وفرسٌ شديد العَدْو[1].

والجِنُّ : خِلاف الإنس، والواحد جِنِّيٌّ. والجِنَّة - بكسر الجيم - الجِنُّ. والجَانّ أبو الجِنّ، وسُمِّيتْ بذلك لأنّها تُتَّقى ولا تُرى. وهو من الاجْتِنَان بمعنى الاستِتَار؛ لأنّها تَسْتَتِر عن أعين الإنس.

وجُنَّ الرّجل جُنوناً، وأَجَنَّهُ الله فهو مَجْنونٌ. ولا تقل مُجِنّ. وقولهم : "مَا أَجَنَّه" شاذ؛ لأنّه مِن فِعْل المَفْعول[2].

وتَهْتِف : تُصَوّت، هَتَفَ يَهْتِفُ هَتْفًا وهُتَافًا : صَوَّتَ. وقيل : «الهُتَافُ : صَوتٌ خَفيّ، وكلّ مُتكلّم خَفِيّ عن الأبصار حين كلامه: هَاتِفٌ».

والهَتْفُ : الصَوتُ. هَتَفَتِ الحمامةُ تَهْتِفُ هَتْفاً. وهَتَفَ به هُتافاً : صاح به. وفرَسٌ هتَّافَةٌ وهَتَفَى : ذات صوت. وقيل : الهَتْف: صوت بخفاءٍ[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1971/5. مادة ضرم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2093/5. مادة جنن.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1442/4. مادة هتف.

وقيل : «حِين خُلِق الجانّ من نار السّموم، خُلِقت منه زوجته، كما خُلِقت حوّاء من آدم، فغشيها فحَملت بإحدى وثلاثين بيضة، فوضعت، وخرج من كلّ بيضة نوع من الجنّ»[1].

والأَنْوَارُ : جمع نُور، وهو الضّياء[2]. والمراد هنا حقيقته، أو الآيات الظّاهرة عند ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو كلاهما.

وسَاطِعَةٌ : أيْ مُرتفعة، وسَطَعَ يَسْطعُ سُطُوعاً فهو سَاطِع : ظهر وارتفع، ومنه سَطَعَ الغُبارُ والرّائحةُ والصّبحُ. والسَّطِيعُ : الصُّبحُ. والسَّطَعُ بالتّحريك : طولُ العُنقِ، ونَعامةٌ سَطْعَاءُ. والسِطَاعُ : سِمةٌ في عُنق البعير بالطّول، يُقال : بعيرٌ مُسَطَّعٌ. والسِطَاعُ أيضاً : عمود البيت[3].

والحَقّ : خِلافُ البَاطل[1]. ويعني به صحّة نبوّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويظْهَر : يَتَبَيَّن؛ من قولهم : "الحقُّ أَبْلَجُ، والباطل لَجْلَجٌ"، أو يرتفع ويعلُو؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾[2].[3]

---

(1) وقيل في توالده غير هذا، ولكن كما قَالَ الْقُشَيْرِيُّ أَبُو نَصْرٍ : وَالْجُمْلَةُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ لِإِبْلِيسَ أَتْبَاعًا وَذُرِّيَّةً، وَأَنَّهُمْ يُوَسْوِسُونَ إِلَى بَنِي آدَمَ وَهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ، وَلَا يَثْبُتُ عِنْدَنَا كَيْفِيَّةٌ فِي كَيْفِيَّةِ التَّوَالُدِ مِنْهُمْ وَحُدُوثِ الذُّرِّيَّةِ عَنْ إِبْلِيسَ، فَيَتَوَقَّفُ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى نَقْلٍ صَحِيحٍ. انظر تفسير القرطبي : 420/10.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 838/3. مادة نور.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1229/3. مادة سطع.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1460/4. مادة حقق.

(2) سورة الإسراء : من الآية 81.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 732/2. مادة ظهر.

وقوله : **مِن مَعْنًى** : يحتمل أنْ يُريد معنَى الكلام؛ أيْ مقابل اللّفظ، وقد تقدّم الكلام فيه. ويحتمل أنْ يريد حقيقة الشّيء؛ كقوله: "تمَّ مَعْنَاه".

ومِن كَلِم : مِن الألفاظ؛ إمّا المقابلة للمعنَى على التّفسير الأوّل للمعنَى، وإمّا الدالّة على حقيقة الشّيء على الثّاني.

والكَلِم : جمع كَلِمَةٍ، ولا يكون أقلّ من ثلاثٍ؛ ولهذا قال سيبويه: هذا باب علم ما الكَلِمُ من العربية. ولم يقل : الكلامُ؛ لأنّه أراد الاسم وصاحبَيه[1]، فجاء بما لا يكون إلاّ جمعاً، وترك ما يقع على الواحد والجماعة. وتميمٌ تكسر كاف كِلْمَةٌ وتسكن لامها. وزاد الفَرَّاء لغتَين؛ فتح الكاف مع سكون اللاّم، وكسرها، واللّغات الثّلاثة في كَبِد، ووَرِق. والكلمة أيضاً : الكَلامُ[2]. وفروع المادة كثيرة.

---

(1) أيْ الفعل والحرف.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2023/5. مادة كلم.

التَّفْسِيْرُ

[آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مولده]

لمّا ذكر أنّه : "لاَ طِيب يَعْدِلُ تُرْبًا.." البيت، وتقرّر ذلك بما ذكرنا، نبّه هنا على أنّ ذلك الطِّيب في تلك التُّربة الكريمة، كان قد دلّ عليه وأبانه آياتُ مولده؛ أيْ الآيات الّتي ظهرت زمانَ ولادته - على ما ترى بعضها إنْ شاء الله تعالى - دلّت وبانت أنّ تلك التُّربة الّتي دُفن فيها - وهي طِينته الّتي خُلق منها - طَيِّبة؛ لأنّه ورد أنّ الإنسان عندما يريد الله – تعالى - تخليقه من النّطفة، يأمر المَلَك، فيأتي بتراب من المكان الّذي يُدفن فيه، فيعجنه بتلك النّطفة[1]. فالتُّربة الّتي خُلِق منها فيها يكون مدفنه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2]. وقوله : "عُنْصُره" على هذا يريد به التّراب الّذي خُلِق منه[3].

فإنْ قلتَ : إنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جسم مركّب، فهو كغيره من مركبّاتها، فلا يكون إلاّ من العناصر الأربع؛ الّتي هي : الماء والنّار والتّراب والهواء، فالتّراب أحدها، فلأيْ شيء فسّرتَ العُنصر بالتّراب، وخصّصته به؟

---

(1) سبق تخريج الحديث الذي يدل على هذا.

(2) سورة طه : الآية 55.

(3) أيْ لأنّ التراب عنصر من العناصر الأربعة كما سبق ذكره.

قلتُ : التّراب كالأصل لغيره، ولذا قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ..﴾ الآية[1]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2]. و : ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[3]، فكان أكثر ما يذكر التّراب.

وقوله : "يا طِيب مُبْتَدَإٍ مِنْهُ ومُخْتَتَمٍ"؛ المراد بهذا النّداء التّعجّب، والمتعجّب منه - على ما ذكرنا - شيء واحد؛ وهو طِيب التُّربة الّتي ابتُدِئَ منها وانتهى إليها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فـ "منه" عائد على التّرب، وهو النّائب عن الفاعل؛ كأنّه قال : يا طِيب الشّيء الّذي كانت البَدْأة منه والخَتْم به، والمرفوع بـ "مُختَتَم" عائدٌ على التُّرب أيضاً، وإنّما دعانا إلى هذا التّفسير مناسبة هذا البيت للّذي قبله، وإلاّ فالظّاهر - بادئ الرّأيْ - أنّه منقطع عمّا قبله، ومعناه الإخبار بأنّ الآيات الّتي ظهرت عند ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أظهرت طِيب عُنصره؛ أيْ أصله وحَسَبه؛ لأنّ تلك الآيات لا تظهر إلاّ لكريم الأصل، ولا كرم إلاّ التّقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4]. وقد كان بينَ طِيب مُختَتَمه قبلُ، فأنتج ذلك أنْ يُتعجّب من طِيب مَبْدَئه؛ الّذي دلّ على طِيب عنصره، ومن طِيب مَختَتَمه، كما دلّ الوجود عليه. وضمير "منه" على هذا عائدٌ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُذف مثله من "مُختَتَم"؛ أيْ منه.

---

(1) سورة غافر : من الآية 67.

(2) سورة المؤمنون : الآية 12.

(3) سورة الحجر : من الآية 26.

(4) سورة الحجرات : من الآية 13.

ويحتمل أنْ يريد بالمولد – وهو التّحقيق – المكان، كما ذكر الجوهري، وليس المراد المكان الّذي هو مسقط رأسه، فإنّ ذلك لا آية فيه من حيث هو، وإنّما يريد آباءه الّذين تناسل منهم؛ أيْ أبان أحوالُهم – وما شُوهد فيهم من نُوره المنتقل من واحد إلى آخر منهم إلى أبيه، وغير ذلك ممّا ظهر عليهم من آياته – عن طِيب أصله وحَسَبه.

وقوله : "يا طِيب مُبْتَدَإٍ منه"؛ أيْ مبتدأ من أصله ومختتم منه، ففيه إشارة إلى قول عليّ رضي الله عنه : «لَيْسَ فِينَا سِفَاحٌ، كُلُّنَا نِكَاحٌ مِنْ آدَمَ إلَيْنَا»[1]. أو مبتدأ من أحواله ومختتم منها كالوجوه المتقدّمة، وهذا الوجه يستدعي ذكر بعض ما قيل في انتقال نُوره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحمل به ومولده.

قالوا : أوّل مَن تعلّم بالقلم من أجداده الأنبياء عليهم السّلام أُدُّ بن همَيْسَع، ووُلد له عَدْنَان، ثمّ لعَدْنَان مَعَدّ، ولم يزل نُوره ينتقل من خير أب إلى خير ابن في أكرم بطن إلى هَاشِم، فكان يسطع في وجهه، فلا يمرّ به شيء إلاّ خضع له، فَأرِي في المنام أنْ يتزوّج أسماء بنت زيد بن عمرو بن لَبِيد بن حِرَاش بن عُدَيّ بن النّجاّر، فتزوّجها، فولدت له عبد المطّلب، واسمه شَيْبَة الحَمْد، فأدرك فنام يوماً في الحِجْر، فانتبه مكحولاً مدهوناً قد كُسي حُلّة البهاء والجمال، فتحيّر، ولم يدرِ مَن فعل

(1) لم أقف عليه مسندا من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإنما وقفت على حديث بمعناه رفعه عليّ إلى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصه : «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَتْنِي أَبِي وَأُمِّي». رواه الطبراني في الأوسط : 80/5. رقم الحديث : 4728. وفي سنده مقال.

ذلك، فأخبر أبوه كهنة قريش، فقالوا : إنّ إله السّماء لا إله إلاّ هو أذن لهذا الغلام في التّزويج. فزوّجه قَيْلَةَ بنت عمرو بن عامر، فولدت له الحارث، ثمّ ماتت، فزوّجه هند بنت عمرو.

وحضرت هاشماً الوفاةُ، فدعا عبد المطّلب، وأمره بإحضار بني النّضر على اختلاف أنواعها، وعبد المطّلب يومئذٍ ابن خمس وعشرين سنة أطول قريش باعاً، وأشدّهم قوّة، يفوح منه المسك، ونُور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسطع في دائرة وجهه، فاجتمعوا فقالوا : «يا معشر قريش أنتم مُخّ ولد إسماعيل، اختاركم الله، وأسكنكم حرَمَه، وأنا سيّدكم، وقد أسلمتُ لواء نِزَار وقوس إسماعيل وسقاية الحاجّ ومفاتيح الأصنام لعبد المطّلب، فأطيعوه». فرضوا ذلك. وكانت قريش إذا قحطت، خرجوا بعبد المطّلب إلى ثَبِيرٍ، فيتوسّلون به إلى الله، فيسقيهم ببركة نُور محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتزوّج عبد المطّلب هَالَة بنت الحارث، فولدت أبا لهب، واسمه عبد العزّى، ثمّ ماتت، فتزوّج سُعْدَى بنت غِيَاث، فولدت العبّاس وصفيّة، ثمّ ماتت، فتزوّج حميدة، فولدت حمزة وحجلاً وعاتِكة، ثمّ تزوّج فاطمة بنت عمرو، وأمهرها مائة ناقة حمراء ومائة رطل من الذّهب الأحمر، فولدت أبا طالب وآمنة وبرّة ثمّ عبد الله، وهو أصغر أولاده من فاطمة، فأخذ عبد المطّلب بيد ابنه عبد الله يوماً، فمرّ بقَتِيلَة[1] بنت نَوْفل - أخت وَرَقَة بن نَوْفَل - عند الكعبة، فقالت لعبد الله – وقد رأت نُور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في

---

(1) وقيل اسمها : رُقَيَّةُ.

وجهه - : «قَعْ عَلَيَّ الآن، ولك مائة من الإبل». فقال : «أنا مع أبي، لا أستطيع فراقه»، وقيل أنشدها :

أَمَّـا الحَـرَامُ فَألْمَمَـاتُ دُونَـهُ وَالحِـلُّ لاَ حِـلَّ فأسـتَبِينَهُ

فَكَيـفَ بِـالأمْرِ الَّـذي تَنْوِينَـهُ ....[1]

فخرج به أبوه حتّى أتى وَهْب بن عبد مَنَاف بن زُهْرَة بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَي بن غَالِب، وهو يومئذٍ سيّد بني زُهْرَة، فزوّجه ابنته آمِنَة أفضل امرأة في قريش يومئذٍ نسباً وموضعاً. قالوا : فوقع عليها حين أُملِكها، فحملت برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمرّ بقَتِيلَة من الغد، فقال : «مَا لَكِ لا تعرضين عليَّ ما عرضتِ عليَّ بالأمس؟» فقالت : «فارقك النُّور الّذي كان معك بالأمس، فلا حاجة لي بك». وكانت تسمع من أخيها أنّه كائن في هذه الأمّة نبيّ. وقيل : إنّ عبد الله كان يعمل في طين، فدعا امرأة من نسائه- كانت ضرّة لآمنة – لنفسه وبه أثره، فأبطأت لِما رأت من أثر الطِّين، فغسل ما به، فدعته فأبى، فوقع على آمِنَة، فحملت، فدعا امرأته الأولى، فقالت : «لا، مررتَ بي وبين عينيك غرّة، قد ذهبت بها آمِنَة»[2].

فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوسط قومه نسباً، وأعظمهم شرفاً من أبيه وأمّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(1) البيت بتمامه : فَكَيْفَ بِالأَمْرِ الَّذي تَنْوِينَهُ يَحْمِي الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ
وانظر الخبر في الروض الأنف. السهيلي : 141/2.

(2) انظر الخبر في الروض الأنف. السهيلي : 141/2.

وقيل لأمّه في المنام: «إنّك حملتِ بسيّد هذه الأمّة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أَعِيذُه بالواحدِ من شرّ كلّ حاسد. وسَمِّيه محمّدًا».

ورأتْ حين حملت به أنّه خرج منها نُور، رأت منه قصور بُصرى من أرض الشّام. ولمّا استقرّ في بطنها أصبحت أصنام الدّنيا كلّها منكوسة، وكذا إبليس، والمَلَك يغطسه في لُجَج البحار أربعين يوماً، وكان النّاس في جَدْب عظيم فأُخصِبوا، فسُمِّيت تلك السّنة سنة الابتهاج، ولم يبق كاهن إلاّ حُجب، ولا سرير لمَلِك من ملوك الدّنيا إلاّ أصبح منكوساً، والمَلِك متخرّساً لا ينطق يومه.

وذكر الحافظ أبو القاسم السّهيلي[1]؛ قال في تفسير بقيّ بن مخلد[2]: «أنَّ إِبْلِيسَ رَنَّ أَرْبَعَ رَنَّاتٍ: رَنَّةً حِينَ لُعِنَ، وَرَنَّةً حِينَ أُهْبِطَ، وَرَنَّةً حِينَ وُلِدَ[3] رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَنَّةً حِينَ أُنْزِلَتْ فَاتِحَةُ الكِتَابِ»[4].

وعبد المطّلب يومئذٍ حاكم قريش وسائر العرب، فبقي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بطن أمّه تسعة أشهر، لا تشكو وجعاً ولا شيئاً ممّا يعرض للحامل، وهلك أبوه بمكّة وهو في بطن أمّه، وقيل بعد وضعه بشهرين،

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي: 149/2.

(2) هو بقي بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن، الأندلسي القرطبي (201 - 276هـ= 817 - 889م). حافظ مفسر محقق، من أهل الاندلس. وكان إماما مجتهدا انتشرت كتبه وتداولها القراء والدارسون في أيام حياته انظر الأعلام. الزركلي: 60/2.

(3) في حلية الأولياء: "بعث" بدل "ولد".

(4) رواه أبو نعيم عَنْ مُجَاهِدٍ. انظر حلية الأولياء: 299/3.

وقيل بثمانية وعشرين شهرًا، وقيل توفي بالمدينة، وقد أقبل من الشّام في عير لقريش، ودُفن في دار النّابغة، وعمره ستّ وعشرون سَنَة. قالت أمّه: «لقد أخذني الطّلق وإنّي لوحيدة في منزلي، وعبد المطّلب في طوافه يوم الاثنين، فسمعت وَجْبَة[1] هَالَتْني، ورأيتُ كأنّ جناح طير أبيض مسح فؤادي، فذهب رُعْبي وكلُّ وجع، وكنتُ عطشى، فإذا بشربة بيضاء، طِيبُها لبن، فشربتها، فأصابني نُور عالٍ، وإذا بنسوة كالنّخل طولاً كأنّهن من بنات عبد مناف، فأحدقن بي، فعجبتُ، وقلتُ : يا غوثاه، مِن أين عَلِمن بي؟. وأسمع الوَجْبَة في كلّ ساعة أَعْظم، فإذا بديباج أبيض مُدّ بين السّماء والأرض، وقائل يقول: خذوه من أعين النّاس. ورجال في الهواء بأيديهم أباريق من فضّة، وعَرَقِي كالجمان، وأقول : ليت عبد المطّلب عندي، وأقبلتْ قطعة من الطير من حيث لا أشعر، كأنّ مناقرها الزُمُرُّد، وأجنحتها الياقوت، فكُشِف عن بصري، ورأيتُ مشارق الأرض ومغاربها، ورأيتُ ثلاثة عَلاَمَات : عَلَماً بالمشرق، وعَلَماً بالمغرب، وعَلَماً على البيت، فاشتدّ بي المخاض[2]، وكأنّي مستندة إلى النّساء، فكثُرن عليّ، فولدت محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنظرتُ إليه، فإذا هو ساجد لله عزّ وجلّ، ثمّ رفع رأسه إلى السّماء كالمتضرّع المبتهل»[3].

---

(1) الوجبة : الصوت العظيم.

(2) المخاض : ألم الولادة.

(3) رواه أبونعيم في دلائل النبوة. الأثر رقم : 538.

وذكر الطّبري[1] أنّه وقع إلى الأرض مَقْبُوضَةً أَصَابِعُ يَدَيْهِ، مُشِيرًا بِالسّبَّابَةِ كَالْمُسَبّح بِهَا[2].

ورُوي أنَّ الشّفا - أم عبد الرحمن بن عوف - قالت : لما سقط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على يديّ واستهلَّ، سمعتُ قائلاً يقول : رحمكَ الله. وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتّى نظرتُ إلى قصور الرّوم[3].

ووُلد عليه السّلام مَخْتُونًا مَسْرُورًا؛ أيْ مَقْطُوعَ السّرّةِ[4].

يُقال : بنجم الْغَفْر[5]. كما يُقال : إنّه النّجم الّذي يُولد مع طلوعه الأنبياء عليهم السّلام. وهذا يردّ قول من قال : ولد لعشرين يوماً من أبريل، وهو شهر نيسان، أو الثّامن والعشرين منه، فإنّ الغَفْر يسقط لسبع عشرة ليلة تخلو منه في المغرب، ويطلع السّرطان من المشرق، وتنزل الشّمس بالثّريا ذلك الوقت. وقيل : لثمانية عشر منه، وهذا يَقْرُب إنْ قيل إنّ معنى قولهم : لنَجم كذا؛ أيْ سقوطه.

وقيل وُلد - عليه السّلام - يوم الاثنين لاثنَي عشرة ليلة مَضَت من ربيع الأوّل، ويُقال لعشر خَلَوْن منه، وقيل لثمانٍ، وقيل يوم الاثنين الّذي

---

(1) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (224 - 310هـ= 839 - 923م). المؤرخ المفسر الامام. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. انظر الأعلام. الزركلي : 69/6.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 150/2.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 366/1.

(4) انظر الروض الأنف. السهيلي : 149/2.

(5) هذا وقت من أوقات طلوع منازل القمر.

بَعَثَ فيه على أصحاب الفيل طيرًا أبابيل، وقيل بعد ربيع بعد الفيل بخمس وستّين ليلة، وقيل في شهر رمضان، وقيل لليلتَين خَلَتَا من ربيع الأوّل عام الفيل، وهو اليوم الثّامن من ديماه سنة ألف وثلاثمائة وتسع عشرة سنة من بدء مُلْك بُخْتَنَصَّر، وذلك يوم العشرين من شباط سنة ثمانمائة واثنتَين وثمانين للإسْكَنْدَر، وهو ذو القرنين بن قليقوس[1]، وهو يونانيّ، وسنة تسع وثلاثين من مُلْك أَنُوشِرْوَانَ خَسْرَوَان قَبَاذِ بْنِ فَيْرُوزَ ملِك فارس، وبعد قدوم أصحاب الفيل مكّة بخمسين يوماً، وقيل بسنة وستّين يوماً، وذلك يوم عشرين لنيسان، وقدم أصحاب الفيل مكّة يوم الثّلاثاء لخمس خَلَوْن من المُحرّم من السّنة المذكورة، وأوّل ذلك المُحَرّم الجمعة. والجمهور من أهل العلم بالسّير أنّه ولد يوم الاثنين لثنتَيْ عشرة خَلَت من ربيع الأوّل عام الفيل، وكان مولده عليه السّلام في شِعَب بني هاشم. وقال الزّبير بن بكّار : حملت به أُمُّه في أيام التّشريق في شِعب أبى طالب عند الجَمْرة الوُسطى، ووُلد في الدّار الّتي كانت تُدعَى لمحمّد بن يوسف أَخِى الحجَّاج بمكّة[2]. والاختلاف في أكثر ما قلناه كثير.

وملِك الرّوم حين وُلد عليه السّلام قُرَطْيُوس، وملَك تسعاً وعشرين سنة.

---

(1) ويُقال أيضاً : الإسكندر بن بيلبوس، والإسكندر بن فيلبس، والإسكندر بن فيلفتين. وغير ذلك.

(2) انظر النهاية والبداية. ابن كثير : 320/2.

ولمّا وضعته أمّه آمنة، أعلمت عبد المطّلب بما رأت وباسمه، فدخل به عبد المطّلب الكعبة يدعو الله ويشكره، ثمّ دفعه إلى أمّه.

وخرّج التّرمذي عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ. وَسَأَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ قُبَاثَ بْنَ أَشْيَمَ أَخَا بَنِي يَعْمَرَ بْنِ لَيْثٍ : أَأَنْتَ أَكْبَرُ أَمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ : رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْبَرُ مِنِّي، وَأَنَا أَقْدَمُ مِنْهُ فِي الْمِيلَادِ. وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ، ووقفتْ بِي أُمِّي عَلَى مَوْضِعِ الفيل. قَالَ : وَرَأَيْتُ جزء الفيل أَخْضَرَ مُحِيلًا[1].

وَرُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ[2] عَنْ أُمِّهِ أُمِّ عُثْمَانَ الثَّقَفِيَّةِ وَاسْمُهَا : فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ قَالَتْ : حَضَرْت وِلَادَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَيْت الْبَيْتَ حِينَ وقع قَدْ امْتَلَأَ نُورًا، وَرَأَيْت النُّجُومَ تَدْنُو حَتَّى ظَنَنْت أَنَّهَا سَتَقَعُ عَلَيَّ[3].

---

(1) انظر سنن الترمذي في المناقب. بَاب مَا جَاءَ فِي مِيلَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والحديث ضعيف الإسناد.

(2) هو عثمان بن أبي العاص بن بشر، من ثقيف (.. - 51هـ= .. - 671م). صحابي، من أهل الطائف. أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الطائف، فبقي في عمله إلى أيام عمر. ثم ولاه عمر "عمان" و"البحرين". واستمر في البحرين إلى أن آلت الخلافة لعثمان بن عفان، فعزله، فسكن البصرة إلى أن توفي انظر الأعلام. الزركلي : 207/4.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 149/2.

وَذَكَرَ ابْنُ دُرَيْدٍ : أَنّ أمه أَلْقتْ عَلَيْهِ جفْنَةً؛ لِئَلَا يَرَاهُ النّاس قَبْلَ جدّهِ، فَلمّا جَاءَه جَدّهُ سُئل مَا سَمّيْته؟ فَقَالَ : مُحَمّدًا، فَقِيلَ لَهُ : إنّه اسْمِ لَيْسَ لك ولا لِأَحَدِ مِنْ قَوْمِك؟ فَقَالَ : رجوتُ أَنْ يَحْمَدَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلّهُمْ. لِرُؤْيَا كَانَ رَآهَا عَبْدُ الْمُطّلِبِ، ذَكَرها أبو الحسن عَلِيّ الْقَيْرَوَانِيّ الْعَابِرُ فِي كِتَاب "الْبُسْتَانِ". قَالَ : رَأَى سِلْسِلَةً مِنْ فِضّةٍ خَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهِ لَهَا طَرَفٌ فِي السّمَاءِ وَطَرَفٌ فِي الْأَرْضِ وَطَرَفٌ فِي الْمَشْرِقِ وَطَرَفٌ فِي الْمَغْرِبِ، ثُمّ عَادَتْ كَأَنّهَا شَجَرَةٌ، عَلَى كُلّ وَرَقَةٍ مِنْهَا نُورٌ، وَإِذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرب كَأَنّهُمْ يَتَعَلّقُونَ بِهَا، فَقَصّهَا. فَعُبّرَتْ لَهُ بِمَوْلُودِ يَكُونُ مِنْ صُلْبِهِ يَتْبَعُهُ أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَيَحْمَدُهُ أَهْلُ السّمَاءِ، فَلِذَلِكَ سَمّاهُ مُحَمّدًا[1].

وحدّث ابن إسحق عَنْ حَسّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فقَالَ : وَاَللّهِ إنّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، إذْ سَمِعْت يَهُودِيّا يَصْرُخُ عَلَى أُطَمَةٍ بِيَثْرِبَ : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ. فاجْتَمَعُوا، وقَالُوا : وَيْلَك مَا لَك؟ قَالَ : طَلَعَ اللّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَدَ الّذِي وُلِدَ بِهِ. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فقلتُ لسَعِيد بْنَ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ حَسّانَ[2] : ابْنُ كَمْ كَانَ حَسّانُ مَقْدَمَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَدِينَةَ؟ قَالَ : ابن سِتّينَ سنة، وَقَدِمَهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، فَسَمِعَ حَسّانُ مَا سَمِعَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ[3].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 149/2.

(2) هو سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت (..- نحو 115هـ؟ =..- نحو 734م). من شعراء الحماسة، من سكان المدينة المنورة. انظر الأعلام. الزركلي : 97/3.

(3) انظر سيرة ابن هشام. ابن هشام : 159/1.

[مرضعات النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وأمّا أَظْآرُه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فثلاث؛ أوّلهنّ ثُوَيْبَةَ المكيّة جارية لأبي لهب، وحَلِيمة السّعدية، وأمّ أَيْمَن حاضنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمّا ثُوَيْبَةَ فجارية لأبي لهب، وأعتقها لإرضاعها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسُئِل بعد موته في النّوم : ما لقيتَ؟ فقال : لم أَلْقَ بعدكم خيرًا، غير أنّي سُقيتُ في هذه؛ يعني بعتق ثُوَيْبَةَ، ويُروى أنّه أشار إلى فقرة إبهامه، وقال : بعتقي ثُوَيْبَةَ. قيل : أَرضعته سبعة أيّام، وقيل : مع عبد الله بن جحش وابنها مَسْرُوح[1].

وفي الصّحيحين أيضاً في دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «**أَرْضَعَتْنِي وَأَبَاها ثُوَيْبَةُ..**» الحديث[2].

ثمّ جاءت حَلِيمة السّعدية في نسوة من بني سعد يلتمسن الرّضَعَاء في سنة شهباء[3] لم تُبق للنّاس شيئاً. قَالَتْ : فَخَرَجَتْ عَلَى أَتَانٍ لِي قَمْرَاءَ مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا، وَاَللهِ مَا تَبِضّ بِقَطْرَةٍ وما نَنَامُ لَيْلَتَنَا جمعاء مِنْ بكاء صَبِيّنَا مِنْ الْجَوْعِ. مَا فِي ثَدْيَيّ مَا يُغْنِيهِ وَلا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَدّيهِ، لَكِنّا نَرْجُو الْفَرَجَ، وشَقّ عَلَى الرّكب حال أتاني لا تلحق مِن ضَعْفها، فقَدِمْنَا مَكّةَ، فلم تَبقَ مِنّا امْرَأَةٌ إلّا عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتأباه؛ لأَنّا إنّما نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِمّنْ له أَبٌ، ونَقُولُ : يَتِيمٌ مَا عَسَى أَنْ

---

(1) انظر سبل الهدى والرشاد. الصالحي الشامي : 375/1.

(2) انظر صحيح البخاري في باب ﴿وَرَبَائِبُكُمُ ..﴾. صحيح مسلم في الرضاع. بَاب تَحْرِيمِ الرَّبِيبَةِ وَأُخْتِ الْمَرْأَةِ.

(3) أيْ ذات جدب وقحط.

تَصْنَعَ أُمّهُ وَجدّهُ. فَلَمّا أَجْمَعْنَا الرّجوع، ولم تَبْقَ امْرَأَةٌ إلّا وأَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فقُلْت لِصَاحِبِي : أَكْرَهُ الرّجوع مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي بلا رَضِيع، فَلَآخُذَنّ ذَلِكَ الْيَتِيمِ. فقَالَ : افعلِي، لعلّ فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ : فَذَهَبْتُ فإذا به مُدرَجٌ في ثَوب صُوفٍ أَبيَضَ مِنَ اللّبَنِ، يَفُوحُ مِنه المِسْكُ، وتَحتَه حَرِيرَةٌ خَضْرَاء، رَاقِدٌ على قَفَاه يَغِطّ. قالت : فأشفَقْتُ أَنْ أوقظَه مِن نَومِهِ لحُسنِهِ وجَمَالِه، فَدَنوتُ مِنه رُوَيدًا، فَوَضعتُ يَدِي عَلى صَدرِهِ، فَتبَسّمَ ضَاحِكًا، وَفَتَح عَينيه يَنْظُرُ إليّ، فَخَرجَ مِن عَينَيهِ نُورٌ، حتّى دَخَل خِلاَلَ السّماءِ وأنا أَنظرُ، فَبَادَرتُ تَغْطِيَة وَجهِهِ بِردَائِي، لِئلاّ تَرَى أمّه ذَلك، وَقَبلتُ بَينَ عَيْنَيه، وَأَعطَيتُهُ ثَدْيِي الأَيمَنَ، فأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَحَوّلتُه إلى الأيْسَر فَأَبَى، وَكَانَت تِلكَ حَالُه بَعدُ[1].

قال أهل العلم : أعلمه الله أنّ له شريكاً، فألهمه العَدْل.

فَرَوِيَ وَرَوِيَ أخوه ضُمْرَة، ونَامَا، وَمَا كُنّا نَنَامُ قَبْل، وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا. فَإِذَا إِنّهَا لَحَافِلٌ بما رَوِينَا منه وشَبِعْنَا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا أَحَدٌ. فقال زوجي : لَقَدْ أَخَذْنا نَسَمَةً مُبَارَكَةً. فبات عندي ثلاث ليالٍ، فانتبهت في الثّالثة، فإذا رجل عليه ثياب خضر يتلألأ نورًا قاعدٌ عند رأسه، يقبّل بين عينَيه، فأَنْبَهتُ صاحبي رويدًا، فنظر وقال : اكتُمِي شأنك. فخرجنا وحملته معي على أَتَانِي، فَوَاللهِ لَقَطَعَتْ بِالرّكْب مَا يَقْدِرُ عليّ شيءٌ من حُمُرِهم، ويقول صواحبي : يا بنت أَبِي ذُؤَيْبٍ، ارْبَعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَك؟ فَأَقُولُ : بَلَى إِنّهَا هِيَ وَاللهِ. فَيَقُلْنَ : وَاللهِ إِنّ لَهَا لَشَأْنًا.

---

(1) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 162/1. الروض الأنف. السهيلي : 145/2.

[حادثة شقّ الصّدر]

فقَدِمْنَا مَنَازِلَ بَنِي سَعْدٍ، وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا أَجْدَب مِنْهَا، فترُوحُ غنمها شِبَاعًا، فَنَحْلُب وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُب غيرنا قَطْرَةَ، ويَقُولُونَ لِرُعَاتِهِم : وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا مع رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ. فيفعلون، والحال كما هي. ونحن نَتَعَرّفُ مِن اللهِ زيادة الْخَيْرَ حتّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ، وهو غُلَام جَفْر. لأنّه كان يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمّهِ، ويودّنا أن لا يفارقنا لبَرَكَتِهِ. فقلتُ لأُمّه : لَوْ تَرَكْته عِنْدِي حتّى يَغْلُظَ، فَإِنّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَأَ مَكّةَ، فردّته إلينا، فإنّه مع أخيه في بَهْم لنا خلف بيوتنا، إذ أتى أخوه يشتدّ، فقال : أَخِي القُرشيّ أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فشقّا بطنه، فهما يُسَوّطَانِه. قالت : فخرجنا نحوه، فَوَجَدْنَاهُ قَائِمًا مُنْتَقِعًا وَجْهُهُ، فَالْتَزَمْناه، وقُلْنَا : مَا لَك يَا بُنَيّ؟ قَالَ : رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَاب بِيضٌ أَضْجَعَانِي وَشَقّا بَطْنِي، فَالْتَمَسَا فيه شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ، ثمّ غسلاً قلبي، فأنقياه، ثمّ ردّاه كما كان، ثمّ قال أحدهما : زِنْه بعشرة من أمّته. فوزنني بعشرة، فوزنتهم. ثمّ قال بمائة، فوزنتهم، ثمّ قال بألف، فوزنتهم، فقال : دَعْه، فلو وزنته بأمّته لوزنهم. فرجعنا به إلى خِبائِنا، وكان ينزل عليه رجلان فيغيان في ثيابه، ولا يظهران، فقال أبوه : لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ أُصِيبَ، فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ، وما به إلاّ بدّ آل فلان؛ لِما يرون مِن بركته، أليس كان لنا عشرة أعنز عِجَاف، فغنمنا اليوم ثلاثمائة. فأقدمناه على أمّه وهو ابن خمس سنين وشهر، فقالت أمّه : لم وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ؟ فقلتُ : تَخَوّفْت عَلَيْهِ الْأَحْدَاثَ، فَأَدّيته كَمَا تُحِبّينَ. فَقَالَتْ : اصْدُقِينِي. فَأَخْبَرْتُهَا. فَقَالَتْ : أَتَخَوّفْتْ عَلَيْهِ الشّيْطَانَ؟ فَقُلْت : نَعَمْ. فَقَالَتْ : دَعِيه، كَلّا وَاللهِ، مَا له عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ. وأخبرتها بما رأت حين حملت به[1].

---

(1) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 162/1. الروض الأنف. السهيلي : 146/2.

[طفولة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

فَلَمّا بَلَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتّ سِنِينَ تُوُفّيَتْ أُمّهُ آمِنَةُ بِالْأَبْوَاءِ - بَيْنَ مَكّةَ وَالْمَدِينَةِ - وكَانَتْ قَدِمَتْ بِهِ عَلَى أَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْنِ النّجّار، فَمَاتَتْ في رجوعها بِهِ إلَى مَكّةَ. فكان مع عبد المطّلب[1].

وقالت أمّ أيمن : أتاني يهوديان يوماً نصف النّهار بالمدينة، فقالا لي : أَخرجي لنا أحمد. فأخرجته فنظرا إليه مليًّا حتّى إلى سرّته، فقال أحدهما : هذا نبيّ هذه الأمّة، وهذه دار هجرته، وسيكون لهذه البلدة مِن القتل والسّبي أمر عظيم. فأخبرتُ أمّي، فخرجنا من المدينة خوفًا[2].

فلمّا بلغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمان سنين هلك عبد المطّلب بعد الفيل بِثَمَانِي سِنِينَ، وسِنُّه مائة سنة وعشر، وقيل : اثنتان وثمانون، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَ جنازته يبكي، فوليه أبو طالب، واسمه عبد مَنَاف، وقيل اسمه كُنيته[3].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 181/2.

(2) انظر سبل الهدى والرشاد. الصالحي الشامي : 121/2.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 188/2.

فَائِدَةٌ

[إخوة الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرّضاعة]

إخوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رضاعه ثُوَيْبَة وعَمّهُ حَمْزَةَ - رضي الله عنه - وأبو سلمة بن عبد الأسد وَعَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ ومَسْرُوح بن ثُوَيْبَة. واختُلِف هل كان له أخ من أبيه وأمّه، فقيل : لم يكن لعبد الله ولا لآمنة ولد غير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: كانت لهما بنت تسمّى فاطمة، ماتت صغيره. ومَن قال إنّ أمّ أيمن أرضعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل أسامة بن زيد أخاه من الرّضاعة. وإخوته من لبن السّعدية عَبْدُ اللهِ وَأُنَيْسَةُ وأبو سفيان بنو الْحَارِثِ، وَحُذَافَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ وَهِيَ الشَّيْمَاءُ، غَلَب ذَلِكَ عَلَيها فَلَا تُعْرَفُ إِلّا بِهِ، وكَانَتْ تَحْضُنُهُ مَعَ أُمّه إِذَا كَانَت عِنْدَهُم[1]. وكانت ترقصه، وتقول[2] :

هَـذَا أَخٌ لِـي لَـمْ تَلِـدْهُ أُمِّـي ... وَلَيْسَ مِنْ نَسْلِ أَبِي وَعَمِّي

فَدَيْتُــهُ مِــنْ مُخْــوَلٍ مُعَــمِّ ... فَأَنْمِــهِ اللَّهُــمَّ فِيمَــا تُنْمِــي

ومِن إخوته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رضاعا سعد بن أبي وقّاص، وأيمن، وضُمْرة بن حَليمة، ولمّا آخى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بين أصحابه، آخى بين نفسه وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وخرّج النّسائي وغيره أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعليّ : «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا**»[3].

---

(1) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 160/1.

(2) انظر سبل الهدى. الصالحي: 381/1. ومُعَمٍّ مُخْوَلٌ : إذا كان كريم الأعْمام والأخْوال

(3) الثابت في الصحيح وعند النسائي أنّ النبي عليه السلام قال هذا الكلام لزيد وليس لعليّ بن أبي طالب كما سيذكره ابن مرزوق بعد قليل، وإنّما رواه عليّ. انظر السنن الكبرى للنسائي في الخصائص. باب ذكر الأخبار المؤيدة لما تقدم ووصفه. رقم الحديث 8578.

قلتُ : وفي الصّحيح أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في أبي بكر : «وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ..» الحديث[1].

وقال لزيد[2] حين تخاصموا في ابنة حمزة : «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»[3]. هذا بعض الكلام فيما يتعلّق بقوله : "أَبَانَ مَولدُه عَنْ طِيب عُنصُرِه"، وهو مُبيّنٌ للسّبب الّذي أوجب أنْ يُتعجَّب بقوله : "يا طِيب مُبْتَدَإٍ".

وأمّا قوله : "ومُخْتَتَم"؛ أيْ ويا طِيب مُختتَم منه، وهو تعجّب أيضاً من الآيات الّتي ظهرت عند وفاته، إذ مراده بـ "مُختتَم" حال وفاته، وهو الظّاهر، وهو مستلزمٌ التعجّب من طِيب ما بينهما، وبعضهم حمله على مدّة حياته، وهو خلاف الظّاهر. لا يُقال : هو أعمّ فائدة. لأنّ اللّغة لا تُثبت ما فيها من الفائدة، وأيضاً فإنّ النّاظم لم يذكر حال مدّة حياته وما ظهر على يدَيه من الآيات، ولم يذكر وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلاّ هنا، فيُحمل عليه.

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ في الصلاة. بَاب الْخَوْخَةِ وَالْمَمَرِّ فِي الْمَسْجِدِ. ورواه غيره.

(2) هو زيد بن حارثة بن شراحيل (أو شرحبيل) الكلبي (..- 8هـ=..- 629م). صحابي. تبناه النبي - قبل الإسلام - وأعتقه وزوجه بنت عمته. واستمر الناس يسمونه (زيد بن محمد) حتّى حرم التبنّي. وهو من أقدم الصحابة إسلاماً. جعل له الامارة في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها. انظر الأعلام الزركلي : 57/3.

(3) سبق تخريجه قبل قليل.

[آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند وفاته]

ولا بدّ من ذكر بعض الآيات الّتي ظهرت عند وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى يُعلم السّبب المُوجب للتعجّب.

وكانت وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة يوم الاثنين لليلتَين خلتَا من ربيع الأوّل، وقيل : لليلة، وقيل غير ذلك، والصّحيح عندهم أنّه مات يوم الاثنين لاثنتَي عشرة ليلة خلَت من ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة، وهو ابن ثلاث وستّين سنة على الصّحيح، ذكره البخاري من غير طريق عن عائشة[1]، ومن غير طريق عن ابن عبّاس[2]، ورواه غيره من غير طريق عن ابن عبّاس[3]. وفي "الموطّأ" عن أنس أنّه توفّي وهو ابن ستّين سنة[4]. وقال دَغْفَلُ بْنُ حَنْظَلَةَ النّسّابة : توفّي وهو ابن خمس وستّين سنة[1]. ورواه عمار بن أبي عمار عن ابن عبّاس[2]. قال البخاريّ: ولا يُتابع عليه عن ابن عبّاس[3].

---

(1) انظر صحيح البخاري في المناقب. بَاب وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(2) انظر صحيح البخاري في المناقب. بَاب هِجْرَةِ النَّبِيِّ عليه السلام وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

(3) مثل مسلم. انظر صحيحه في الفضائل. بَاب كَمْ أَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ. وأحمد. انظر مسنده : 399/5. رقم الحديث : 3429.

(4) انظر الموطّأ في صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بَاب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والحديث صحيح.

(1) رواه الترمذي في الشمائل : ص 324. رقم الأثر : 382. وقال الترمذي : وَدَغْفَلُ لاَ نَعْرِفُ لَهُ سَمَاعًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً.

(2) رواه مسلم في الفضائل. بَاب كَمْ أَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ.

(3) انظر التاريخ الصغير. البخاري : 55/1.

ولم يختلف عن عائشة أنّه توفّي وهو ابن ثلاث وستّين سَنَة، وهو قول الباقر محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وجرير بن عبد الله، وعمرو بن عبد الله أبي إسحق السّبيعي، ومحمّد بن إسحق.

وفي صحيح البخاري أنّ عائشة - رضي الله عنها - قالت : مات رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي ويَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي - في رواية : حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي - وَجَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ رِيقِهِ وَرِيقِي عِنْدَ مَوْتِهِ - تَعْنِي : مِنْ أَجْلِ السّوَاكِ الّذِي أَتَى بِهِ أَخُوها عَبدُ الرّحمَنِ، وَلَيَّنْتُهُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ورَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وقال : «**فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**». فعلمنَا أنّه خُيِّرَ، فَلَم يَخْتَرْنَا، وكاَن يُحَدِّثُنَا أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ نَبيّ حتّى يُخيَّر في اللّحاق بالله وفي البقَاءِ مُدَّةً، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، وَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، ويَقُولُ : «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لسَكَرَاتٍ**». فتوفّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وفي مسند ابن أبي شيبة كان فيمن غسّله عليّ، قال : «فَالتَمَسْتُ مِنْهُ مَا يَكُونُ مِن الميّتِ، فلَمْ أَجِدْه، فَقُلتُ : طِبْتَ حَيًّا وَمَيّتًا»[1]. وتقدّم هذا بتمامه.

واختلفوا في نزع قميصه للغسل، فسمعوا صوتاً : لاَ تَنْزِعُوا عنه قميصه. وعزّى أهل بيته - رضي الله عنهم - الخضرُ عليه السّلام، واستأذن عليه ملَك الموت، ولم يستأذن على أحد قبله[2]. ومن آياته

---

(1) انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب مَرَضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَفَاتِهِ.

(1) سبق تخريجه.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 368/1.

شهود جبريل وميكائيل وخازن الدّنيا وخازن الجنّة موتَه، ومعهم آلاف من الملائكة، سمعوا حفيف أجنحتهم وكثرة استرجاعهم[1]، ولا يرون أحدًا، وسطعت رائحة طَيّبة، لم يجدوا مثلها قطُّ. ومن آياته بعد موته حزن حماره عليه حتّى تردّى في بئر، وكذا ناقته، فإنّها لم تأكل ولم تشرب حتّى ماتت[2].

وظهور ما أخبر به أنّه كائن بعد موته، وما لا نهاية له، ولا عدَّ يحصيه بما ظهر من بركته على أصحابه وعلماء أمّته، ونصر أمّته على الكفّار، وحفظ منزلته وشرفه، حتّى أنّ جَهْجَاها الغفاري أخذ قضيبه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من يَدِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وتناوله ليكسره على رُكْبَتِهِ، فصاح به النّاس، فأخذته الأكلة في ركبته، فقطعها، ومات قبل الحَوْل. ذكره القاضي في "الشّفا"[1].

(1) أيْ يقولون : إنّا لله وإنّا إليه راجعون

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 315/1.

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 331/1.

[ابن مرزوق يروي قصة اليهودي مع قبر النبيّ عليه السلام]

وما اتّفق في العهد القريب في حكاية مشهورة سمعتها - فيما يغلب على ظنّي الآن - من شيخنا الإمام المحدّث أبي الحسن علي النّويري[1] إمام مقام المالكية بحرم الله الشّريف - رحمه الله - سنة اثنين وتسعين وسبعمائة [792هـ] بالمسجد الحرام، ومِن غير واحد، أنّ يهوديّا جاور بمدينة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأظهر التنسّك الفائق، حتّى سكن رباطاً يقرب من مسجده - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في بيت منه بعض زواياه يلي رأسه العزيز المشرّف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقصد الحفر تحت الأرض، حتّى يصل إلى جسده الطّاهر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يحفر قليلاً قليلاً، ويحمل التّراب فيلقيه خارج المدينة، ولا يُفطَن له، حتّى بقي لوصوله - فيما يقدّر - زمن قريب، أظنّ أنّي سمعت نحو ثلاثة أيّام، فرأى مَلِك مصر يومئذٍ - وهو المعروف بالملِك النّاصر[2] رحمه الله - النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النّوم، فأخبره بالقصّة وبصفة اليهودي، وقال له : أدركني. فركب مع مَن خفّ من أصحابه نُجُباً، وحمل معه مالاً جزيلاً، فبلغ المدينة في تلك المدّة القريبة، فلم يرع أهلها إلاّ قدومه، فأمر أنْ يحضر كلّ من سكن المدينة ليأخذ العطاء، فعمّهم بالعطاء، وهو لا يرى الصّفة، فقال : هل بقي أحد؟

---

(1) هو نور الدين أبو الحسن علي بن الشهاب أحمد بن الكمال عبد العزيز بن القاسم بن الشهيد الناطق النويري المكيّ إمام مقام المالكية بها (المتوفى سنة 799 عن 75 سنة). انظر تذكرة الحفاظ وذيوله. الذهبي: ص 210.

(2) هو صلاح الدين الأيوبي.

قالوا : لا، إلاّ رجل من كبار الزّهّاد المتعبّدين لا يحضرك. فقال : لا بدّ من حضوره. فأُحضِر، فإذا هو بصفته، فأُخِذ، فأقرّ، وأراهم المكان، وأعلمهم بقصده، فقُتل شرّ قتلة، وصار إلى لعنة الله وغضبه، فاحتاطوا حينئذٍ، وحفروا من جوانب الرّوضة الكريمة الشّريفة إلى أبعد ما أمكنهم، ورفعوه بالبناء المرصوص المحكم، بحيث لا ينال مثل تلك الفعلة، ورفعوا البناء من سائر الجوانب، فلا يظهر القبر الكريم اليوم لأحد، ومن حينئذٍ لا يُمكَّن من سُكنى ذلك البيت إلاّ مَن يُعرف نسبه، ويُوثق بدينه وأمانته.

[ابن مرزوق يذكر تاريخ تواجده في مَكّة المكرّمة]

قلتُ : وقد نزل ذلك البيت شيخُنا العلاّمة محبّ الدّين ابن العلاّمة جمال الدّين ابن هشام المصري، وكنتُ أنا معه - رحمه الله - سنة اثنين وسبعين وسبعمائة [772هـ]. منّ الله علينا بالعَوْد إلى حَرَمه وحَرَم رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والممات بأحدهما، بجاه سيّد المرسلين وخاتم النّبيّين محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[غسل النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفينه ودفنه]

ووَلِي غسله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّ والعبّاس وابناه الْفَضْلُ[1] وَقُثَمُ، وأسَامَة وَشُقْرَانُ مَوْلَيا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَوْس بْن خَوْلِيّ الأنصاريّ - بدري - أسنده عَلِيٌّ إلى صدره، والعبّاس وابناه يقلّبونه، ومَوْلَياه يصبّان الماء، وعَلِيٌّ يغسله، وعليه قميصه، يدلّكه به، ولا يباشر جسده[2].

وكُفّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَاب بِيضٍ سُحُولِيّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ، ليس فيها قميصٌ ولا عِمامة، كذا في الصّحيح[3].

ودُفن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأربعاء في حجرة عائشة - رضي الله عنها - لرواية الصدّيق - رضي الله عنه - أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «**مَا دُفِنَ نَبِيٌّ إِلَّا حَيْثُ قُبِضَ**»[4].

فحُفر له تحت فراشه، وصلّى النّاس عليه أَرْسالاً؛ الرّجال حتّى إذا فرغوا، دخل النّساء، حتّى إذا فرغن، دخل الصّبيان، ولم يؤمّ النّاس أحد. ودفنه عَلِيٌّ والعبّاس وابناه وعبد الرّحمن بن عوف، وقيل: حضرهم

---

(1) هو الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب الهاشمي (.. - 63 هـ = .. - 683 م) من رجالات قريش، حزما وإقداما. كان أحد زعماء المدينة في ثورتها على بني أمية. وأظهر في وقعة الحرة بسالة عجيبة، وقتل فيها. انظر الأعلام. الزركلي: 149/5.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي: 575/7.

(3) روت ذلك عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. انظر صحيح البخاري في الجنائز. بَاب الثِّيَاب الْبِيضِ لِلْكَفَنِ.

(4) رواه أبو يعلى في مسنده: 32/1. رقم الحديث: 23. والحديث ضعيف.

أسامة وأوس بن خوليّ، وآخرهم خروجاً من القبر قُثَم، فهو آخر النّاس عهدًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وقُبض صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصّحابة ممّن رآه وسمع منه رضي الله عنهم، صحّ ذلك عن الإمام أبي زرعة الرّازي رحمه الله[2].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 575/7.

(2) هوعبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء، أَبو زُرْعَة الرازيّ (200 - 264 هـ = 815 - 878 م): من حفاظ الحديث، الأئمة. من أهل الريّ. زار بغداد، وحدّث بها، وجالس أحمد بن حنبل. كان يحفظ مئة ألف حديث، ويُقال: كلّ حديث لا يعرفه أبو زرعة ليس له أصل. توفي بالريّ. له " مسند ". انظر الأعلام. الزركلي: 194/4. انظر ما صحّ عنه في تدريب الراوي. السيوطي : 220/2.

[إرهاصات ظهور النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

قوله : "يومٌ تفرَّسَ.." البيت؛ إنْ كان المراد بقوله : "مولده" الزّمان، ف "يوَم" بدل منه، وإن كان المراد المكان على المعنى الّذي قرّرنا، فهو مبتدأ، والخبر محذوف، والتّقدير : ومن آياته يومَ.. أو فيما يُذكر من آياته يومَ.. نحو قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾[1]؛ أيْ فيما يُتلَى عليكم مَثَل الجنّة.

وقوله : "تَفَرَّسَ فيه"؛ أيْ ظهر لهم في ذلك اليوم من الأمارات الّتي أخبرهم بها علماءهم وكهّانهم في ظهور أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنّه كائن، وأنّ ما أنذرهم كهّانهم من خراب مُلْكهم، وتشتيت أمرهم، وتفريق قبائلهم على يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويد أصحابه القائمين بشريعته، أنّ ذلك حالٌّ بهم، وهو ما أراد النّاظم بقوله : "البُؤسِ والنِقَمِ".

والمراد بـ "يومَ" الزّمان الّذي كانت فيه الفِرَاسَة، لا الّذي هو مقابل اللّيلة؛ نحو : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2]. وسَبْك كلامه أظهر زمان مولده، وهو يومَ كذا، أو مِن آياته زمان تَفَرّس الفُرْس فيه؛ أيْ في ذلك الزّمان؛ أيْ ظنّوا بما رأوا من الآيات أنّهم قد أُعلِموا بحلول البؤس والنِقَم بهم، وذلك البُؤس وتلك النِقَم هو تمزيقهم كلّ مُمَزّق، كما دعا عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وعود ضمير "فيه" على "يوم" أظهرُ مِن عَوْده على النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لاحتياج هذا إلى تقدير

---

(1) سورة الرعد : من الآية 35.

(2) سورة المائدة : من الآية 3.

مضاف؛ أيْ في آياته، ويحتاج أيضاً إلى تقدير عائد على "يوم"؛ لأنّ الجملة بعده صفة له.

وقوله : "وباتَ إيوانُ كسرَى" معطوف على "تَفرّسَ"؛ أيْ يوم وقع فيه التفرّس. وصيرورة إيوان كسرى منصدعاً؛ أيْ منشقًّا مكسورًا كما صار شمل أصحاب كسرى متفرّقًا غير ملتئِم؛ شبّه انصداع الإيوان بعد التئامه بانصداع شمل أصحاب كسرى وتفرّقهم بعد التئامهم واجتماعهم.

وقوله : "والنَّارُ خامِدَةُ.." البيت؛ معطوف على إيوان؛ أيْ وصارت النّار في ذلك اليوم - أيْ نار فَارِس الّتي كان لها ألف سنة لم تخمد - خامدة الأنفاس في ذلك اليوم؛ أيْ سكنت أنفاسها الّتي هي كناية عن اضطرامها.

"مِنْ أَسَفٍ عَلَيهِ"؛ إنْ كان المراد بالأسف الحزن، فضمير "عليه" يعود على انصداع الإيوان، ولا يعود على "الإيوان"، ولا على "شمل"، ولا على عدم التآمه، ولا على جميع ذلك. كما جوّز ذلك كلّه بعضهم. أمّا الأوّل؛ فظاهر؛ إذ لو حزنت على نفس الإيوان لخمدت قبل انصداعه. وأمّا الثّاني؛ فلأنّه ليس مقصودًا بالإخبار، وإنّما أتى به على سبيل التّشبيه، فلا يعود إلاّ على الأوّل، نصّ على ذلك المحقّقون. وأمّا الثّالث؛ فإنْ كانت لفظة "غير" مخفوضة نعتاً لـ "شمل"، أو منصوبة حالاً منه، فعِلّته كالّذي قبله، وإنْ كانت منصوبة خبرًا ثانياً لـ "بات"، أو حالاً من "إيوان"، فعِلّته كالأوّل؛ لأنّ عَوْده على المسند إليه أولى. وأمّا الرّابع؛ فما يبطل عَوْدَه على كلٍّ مُفردا، يُبطل عَوْدَه على الجميع، ولا يصحّ أيضاً أن يعود على "كسرى"، وهو ظاهر.

وإن كان المراد "بالأسف" الغضب، فالضّمير عائد على النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّ ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سببٌ في ترك عبادتها، ويصحّ عَوْده على صَدْع الإيوان، وتكون "على" سببيَّة.

وقوله : "والنَّهرُ سَاهِي العَيْن"؛ أيْ وصار النّهر ساكن العين؛ أيْ سكنت جَرْية عَينه الّتي هي مادّته من السَّدَم؛ وهو الحزن على ما حزنت عليه النّار، أو صار لسُكون جَرْيَتِه كصاحب العين الباصرة الّتي سكنت عَينه عن الإطراف؛ لكونه ورد عليه خبر يُحزنه، فبقي باهتاً، شاخص البصر، متحيّرًا في أمره، متفكّرًا، لا يدري ما يصنع.

وقوله : "وَسَاءَ.." البيت؛ معطوف على "تَفَرّس" أيضاً، أو على "بات"؛ أيْ ويوم أحزن المدينةَ المدعوة "سَاوَة" غيضُ بُحيرتها؛ أيْ انتقاص ماء بُحيرتها، بحيث لم يبق فيها شيء، كذا قيل، حتّى إنّ لهيب النّار يصعد من قعرها، كأنّما طفح أرضها خزفاً، وكذا أحزنها أيضاً أن رُدّ واردها - وهو الّذي يأتي البحيرة ليستقي من مائها - بالغيظ؛ أيْ مع الغضب، حين ظَمِئ؛ أيْ عطش، فأتاها ولم يجد شيئاً، فرجع غضبان. وغِيض الماء إنّما كان من ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الّذي أحزن "سَاوَة".

وقال بعضهم : «إنّ قوله : "سَاوَة" على حذف مضاف؛ أيْ أهلها، أو سَمَّي أهلها باسمها؛ لأنّهم الّذين حزنوا من أجل فقد مائهم الّذي كان به قِوام عيشهم، ولم يعهدوه ولا آباءهم اتّفق له مثل ذلك قبل هذا الوقت».

قلتُ : ويلزمه أنْ يُقدّر مثل ذلك في قوله : "والنّار"؛ أيْ وأهلها؛ لأنّ اللاّزم واحد، والظّاهر أنّه أسند ذلك إلى نفس النّار والماء مجازًا؛ أو تنزيلاً لهما منزلة العاقل؛ لقوله بعدُ: "كأنَّ بالنارِ.." البيت؛ أيْ فصارت نار فَارِس - الّتي خمدت - كأنّ بها من الأوصاف التّي من جملتها البلل، مثل أوصاف ماء بُحيرة "ساوة" قبل غَيْضه؛ أيْ صارت مبتلّة باردة كبلل ماء بُحيرة "ساوة" وبرودته من الحزن، وصار هو؛ أيْ ماء بحيرة "ساوة" الّذي غاض حتّى جفّ مكانه، وصار يلتهب كأنّ به من الأوصاف الّتي منها الضّرم، مثل أوصاف نار فارس قبل خُمودها من حزنه أيضاً، فالحاصل أنّ كلاً من نار فارس وماء بُحيرة "ساوة" انتقل إلى كلّ منهما أوصاف الآخر من الحزن على تغيير حال الكفر.

وخصّ النّاظم من أوصاف الماء البلل دون البرودة مثلاً، ومن أوصاف النّار الاضطرام دون الحرارة مثلاً؛ لأنّ النّار لا تبقى حقيقتها مع الاتّصاف بالبلل، فإنّها في غاية اليبوسة، ولذا تفرق الأجزاء، والبلل يصل الأجزاء المتفرقة، كما يفعل الماء بالتّراب، ووصْفها بالبرد لا يُخرجها عن حقيقتها؛ قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾[1]. فخاطب النّار، والماء أيضاً إذا اتّصف بالاضطرام - الّذي هو غاية اليُبس - خرج عن حقيقته؛ لحدوث التّفريق فيه بعد الاتّصال، ووصْفه بالحرارة لا تُخرجه عن حقيقته؛ لأنّه يُقال ماء حار، ولا يقال ماء يفرّق الأجزاء. وفيه نظر بُعد.

---

(1) سورة الأنبياء : من الآية 69.

وقوله : "والجنُّ.." البيت؛ معطوف على "إيوان" أو على "والنّار"؛ أيْ وصارت الجنّ عند ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهتف؛ أيْ تصوّت على الجبال وفي بطون الأودية، وترفع أصواتها بالإعلام بما أظلّ النّاس من نبوّة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما سترى بعض أخبار ذلك.

ويحتمل أنْ يكون معنى تهتف؛ أيْ تقول قولاً عن غير تحقيق، وذلك أنّها قبل ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت غير ممنوعة من استراق السّمع، ولذلك أكثر إصابة الكهّان في ذلك الوقت؛ لأنّهم يسمعون من الملائكة ما يكون من الحادثات في الأرض على التّحقيق، فلمّا مُنعوا بعد ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من استراق السّمع بالشُّهُب، إلاّ مَن خطف الخطفة، جعلوا يتكلّمون من غير تحقيق، ولذلك ولقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْجِنِّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُضِيفُ إِلَيْهَا الكَاهِنُ مِائَةَ كَذْبَةٍ**»[1]، كثر كذب الكهّان بعد ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والمعنى : وَصَارَت الجنّ يوم ذاك تهتف؛ أيْ تقول قولاً غير محقّق؛ شبّه كلامها الّذي لا محصول له بسماع صوت من غير تحقيق لشخص، ويحتمل أنْ يريد - وهو الأوفق لِما قبله – أنّها تحيّرت؛ إمّا لأنّها أُبهم عليها الأمر لمّا رُجمت بالشُّهُب، ولذلك قالوا : اضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعلموا ما هذا الّذي حدث. وإمّا حزناً لِما فاتها من مساعدة النّاس إيّاها على الكفر بنبوّة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأدركها من أحد الأمرين خَبَال، بحيث لا تدري ما تقول، فلم

---

(1) رواه مسلم عن عائشة مرفوعا في السلام. بَاب تَحْرِيمِ الْكَهَانَةِ وَإِتْيَانِ الْكُهَّانِ.

يبق لها إلاّ الهتف بالصّوت، وكثر في عرفنا اليوم استعمال الهُتاف فيمن يأمل ما لا يُدرِك، ويسعى في غير تحقيق، أو يتكلّم فيما لا يعقل[1].

وقوله : "والأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ"؛ يحتمل أنْ يريد الأنوار المحسوسة الّتي ظهرت عند ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمّه وغيرها كما قدّمنا، ويحتمل أنْ يريد الآيات المذكورة وغيرها، سمّاها أنوارًا؛ لأنّها تهدي سبيل الحقّ، كما يهدي النّور سبيل الحسّ.

وقوله : "سَاطِعَةٌ"؛ إشارة إلى ارتفاع شأنها، وعلوّ مرتبتها على الدّوام؛ لا أنّها تقتصر على ظهورها لسطح الأرض :

ويَصْعَدُ حتّى يَظُنَّ الجَهُولُ ... بأنَّ لَهُ حاجَةً في السّماء[2]

قوله : "والحَقُّ يَظْهَرُ"؛ معطوف على ما تقدّم أيضاً، فيحتمل أنْ يريد: الحقُّ يظهر في إخباراته - عليه السّلام - من معناها ومن لفظها؛ لأنّ لفظها طابق معناها. ويحتمل أنْ يريد بالحقّ حقيقة أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ وصار تحقيق نبوّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ولادته يظهر من معناه؛ أيْ من خَلْقه وخُلُقه.

"ومِنْ كَلِمٍ"؛ أيْ ومن ألفاظه الّتي لا مِثل لها، فإنّه لا يقول إلاّ حقًّا، حتّى كمَّل برهانَه الوحيُ المتلوّ؛ وهو القرآن. ويحتمل أنْ يريد بالحقّ العام؛ أيْ ضدّ الباطل، فيندرج فيه أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(1) والعرف وفي عصرنا الحالي بالجزائر يقال "يُهَتْرِف" لهذا المعنى بدل "يهتف".

(2) البيت لأبي تمام الطائي من قصيدة يرثي بها خالد بن يزيد الشيباني ويذكر أباه. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 152/2.

والمعنى : أنّ هذا الّذي تواترت آياته، وتظافرت معنىً ولفظًا - وهي كلّ يوم في زيادة، لا يُنقص الآخرُ فيها الأوّل - حقٌّ لا شكّ فيه؛ لأنّ الحقّ ظهر من معنًى ومن كَلِم. ويحتمل أنْ تكون "مِن" لبيان جنس الحقّ؛ أيْ الحقّ الّذي هو المعنى، والكَلِم يُظهره. و"يَظْهَرُ" : إمّا بمعنى يتبيّن، أو بمعنى يعلو.

بقي هاهنا سؤال، وهو أنْ يُقال : أمّا حزنُ الجنّ لمبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فظاهرٌ؛ لأنّ أكثرهم عَصاهُ، وأمّا انصداع إيوان كسرى، فإهانة له وذلّ وصَغار، كسائر الملوك فيما أصابهم حينئذٍ، وأمّا خُمود النّار واضطرام مكان الماء بعد غَيْضه، فإنّما يحسن ذلك - إنْ كان - لإهانتهم؛ كانصداع الإيوان. لكنّ النّاظم إنّما قال : كان ذلك فيهما مِن حزنهما، وذلك لا يصحّ، فإنّ الجمادات - وكلّ ما لا يعقل - لا يُوصف بالكفر ومُشاقّة الله ورسوله، بل كلّها منقادة خاضعة لأمر الله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1]. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[3]. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ..﴾ الآية[4]. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن

(1) سورة الإسراء : من الآية 44.

(2) سورة آل عمران : من الآية 109.

(3) سورة فصلت : من الآية 11.

(4) سورة الأحزاب : من الآية 72. والآية بتمامها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ .. ﴾ الآية[1]. وأدلّة ذلك كثيرة، فاللاّئق بالنّاظم أنْ يقول مِن فرح وفرحاً.

قلتُ : إنْ كان المراد أهل النّار وأهل "ساوة"، فلا إشكال، وإنْ كان المراد ذاتهما، فيكون حزن النّار على نفسها من أجل أنّها لا تُوقد، والماء من أجل أنّه لا يجري، وإنْ كانا فرحَين بولادة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضاً فإنّ النّاظم إنّما قال : "كأنّ"؛ فهو شبّه حالهما بحال الحزين.

لا يُقال : التّشبيه إنّما هو لِما انقلب من صفتَيهما، لا للحزن.

لأنّا نقول : يُجعل التّشبيه متسلّطًا على الجميع. لكنّ هذا الجواب لا يتمشّى لنا في قوله : "منْ أَسَفٍ عَلَيْهِ". ويحتمل أنْ يُقال : قوله : "حزنًا"؛ أيْ باعتبار اعتقاد الكفّار ذلك، وإنْ كان في الحقيقة في نفس الأمر فرِحًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(1) سورة الفرقان : من الآية 17. ويقصد الآيتين وليس الآية، وهم بتمامهما : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

[ذكر بعض الأخبار الّتي أشار إليها النّاظم]

ولا بدّ من ذكر بعض ما أشار إليه النّاظم من خبر الإيوان والنّار والبُحيرة وهَتْف الجنّ وغير ذلك ممّا أُنذِر به الفُرْس.

وذلك أنّه لمّا وُلد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتَجَسَ؛ أيْ ارتعد تلك اللّيلة إيوان كِسْرَى أَنُوشِرْوَانَ بْنَ قَبَاذِ بْنِ فَيْرُوزَ، وسَقَطت من قَصْرِهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةٍ، وكتب إليه صاحب اليمن يُخبره بأنّ بُحيرة "ساوة" غاضت تلك اللّيلة، وكتب إليه صاحب فارس يُخبره بأنّ بيوت النّيران قد خَمَدت تلك اللّيلة، وَلَمْ تَكُنْ خَمَدَتْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ عَامٍ، وكتب إليه صاحب الشّام يُخبره بأنّ وادي "السَماوَةَ" انقطع جَرْيه تلك اللّيلة، ثمّ أَخْبَرَهُ الْمُوبَذَانُ - وَمَعْنَاهُ الْقَاضِي والْمُفْتِي بِلُغَتِهِمْ - أَنَّهُ رَأَى[1] إبِلًا صِعَابًا، تَقُودُ خَيْلًا عِرَابًا، فَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهِمْ، فَأَرْسَلَ كِسْرَى عَبْدَ الْمَسِيحِ بْنَ عَمْرِو بْنِ حَيَّانَ الْغَسَّانِيّ إِلَى سَطِيحِ الكاهن، وَكَانَ مِنْ أَخْوَالِهِ يَسْتَخْبِرُهُ عِلْمَ ذَلِكَ، وَيَسْتَعْبِرُهُ رُؤْيَا الْمُوبَذَانِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَحُرْ إِلَيْهِ سَطِيحٌ جَوَابًا، فَأَنْشَأَ عَبْدُ الْمَسِيحِ يَقُولُ:

أَصَمّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ الْيَمَنْ ... أَمْ فَادَ فَازْلَمّ بِهِ شَأْوُ الْعَنَنْ
يَا فَاصِلَ الْخُطّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ ... أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيّ مِنْ آلِ سَنَنْ
وَأُمّهُ مِنْ آلِ ذِئْبِ بْنِ حَجَنْ ... أَبْيَضُ فَضْفَاضُ الرّدَاءِ وَالْبَدَنْ
رَسُولُ قَيْلِ الْعُجْمِ يَسْرِي ... لَا يَرْهَبُ الرّعْدَ وَلَا رَيْبَ الزّمَنْ

---

(1) أيْ في المنام

تَجُوب بِي الْأَرْضُ عَلَنْدَاةٌ شَزَنْ تَرْفَعُنِي وَجْنًا وَتَهْوِي بِي وَجَنْ
حتّى أَتَى عَارِيَ الجآجي وَالْقَطَنْ تَلُفّـهُ فِـي الـرّيحِ بَوْغَـاءُ الـدّمَنْ

الغِطْرِيفُ : السيّد الشّريف. وَفَادَ يَفُودُ : مَاتَ. وَازْلَمّ : قُبِضَ أو ولّي، يكون مقصورًا على الثّاني من إزلامّ. وشَأْوُ الْعَنَنْ : الْمَوْت وَمَا عَنّ مِنْهُ. الفَضْفاض : الواسع. القَيّل : الملِك، وأصله التّشديد كسيّد، وهو ذو القول النّافذ. والعَلَنْدَاةُ : النّاقة الشّديدة. شَزَنْ : غليظ. والوَجْن : جمع وَجِين، سُكّنت جيمه تخفيفًا، وهو متين الأرض ذو الحجارة الصّغار. والجآجي : جمع جُؤْجُؤ؛ أيْ الصّدر، جُعل كلّ موضع منه جؤجؤًا مجازًا كالمفارق. بَوْغَاءُ : التّراب الهابي. والدّمَن : جمع دمنة، وهي ما قرب من الدّار؛ تبول المواشي فيه وتبعَر.

فَلَمّا سَمِعَ سَطِيحٌ شِعْرَهُ، رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ : عَبْدُ الْمَسِيحِ عَلَى جَمَلٍ مُشِيحِ – أيْ مسرع – جَاءَ إلَى سَطِيحِ، وقد أَوْفَى عَلَى الضّرِيحِ، بَعَثَك مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ لِارْتِجَاسِ الْإِيوَانِ، وَخُمُودِ النّيرَانِ، وَرُؤْيَا الْمُوبَذَانِ؛ رَأَى إبِلًا صِعَابًا، تَقُودُ خَيْلًا عِرَابًا، قَدْ قَطَعَتْ دِجْلَةَ، وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا. عَبْدَ الْمَسِيحِ، إذا كَثُرَتْ التّلَاوَةُ، وَظَهَرَ صَاحِبِ الْهِرَاوَةِ، وَخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ، وَفَاضَ وَادِي السّمَاوَةِ، فَلَيْسَتْ الشّامُ لِسَطِيحٍ شَامًا، يَمْلِكُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ وَمَلِكَاتٌ عَلَى عَدَدِ الشّرُفَاتِ، وَكُلّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. ثُمّ قَضَى سَطِيحٌ مَكَانَهُ[1].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 143/1.

قالوا : وقد كان أقضى مُلكهم عشرة من الرّجال وامرأتان، فنقص عن عدد الشّرفات اثنان، ولعلّه خطأ في النّقل، وَكَانَ سَطِيحٌ جَسَدًا مُلْقًى لَا جَوَارِحَ لَهُ، وَجْهُهُ فِي صَدْرِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ رَأْسٌ وَلَا عُنُقٌ، لَا يَقْدِرُ عَلَى الْجُلُوسِ إِلّا إذَا غَضِب انْتَفَخَ فَجَلَس. وذُكر عن وَهْب بْنِ مُنَبّهٍ أنّه قيل له[1] : أَنّى لَك هَذَا الْعِلْمُ؟ فقال : لِي صَاحِب مِنْ الْجِنّ اسْتَمَعَ أَخْبَارَ السّمَاءِ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ حِينَ كَلّمَ اللهُ مُوسَى، فَهُوَ يُؤَدّي إلَيّ مِنْ ذَلِكَ مَا يُؤَدّيهِ. والله أعلم[2].

ثمّ رجع عبد المسيح إلى كسرى فأخبره بذلك، فاغتمّ، وهاله ما سمع، ثمّ تَعَزَّى، وقال : إنْ بقي منّا أربعة عشر ملِكا يدور الزّمان، ثمّ هلك وملَك بعده ابنه هرمز، ثمّ دخل بينهم الاختلاف، وتشتّت أمرهم كلّ الشّتات، ثمّ اجتمعوا على يَزْدَجْرِدْ، وهو آخر ملوكهم، وقد غلبهم المسلمون على أطراف أرضهم، ثمّ كانت حروب القادسية معهم، إلى أنْ قهرهم الإسلام، وفُتحت بلادهم على يد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، والحمد لله، وذلك بدعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُمزَّقوا كلّ ممزّق لمّا مزّقوا كتابه، وصدق خبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال لسُراقة : «كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى»[3]. وكان كذلك، فإنّه حين قُدم بهما على عمر - رضي الله عنه - دعا بسُراقة، فألبسه إيّاهما؛ لأنّه سمع ذلك مِن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بلغه عنه، ولم يكن للفُرس

---

(1) أيْ سَطِيحٌ.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 134/1.

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى : 357/6. رقم الأثر : 13414.

ملِك بعدُ[1]. وإلى هذا التّشتيت أشار النّاظم بقوله : "كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيرَ مُلْتَئِمِ". ولمّا أعزّ الباري كتاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّذي كتب إليهم، بقي لهم عزّهم الدّنيوي، وقال فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**النّصارَى ذاتُ قُرُون إلى يَوْمِ القِيامَةِ**»[2].

ومن هَتْف الجنّ الّذي أشار إليه النّاظم ما رُوي في بعض الطّرق عن عثمان بن أبي العاص[3] أنّ أمّه فاطمة قالت : شهدت آمنة لمّا ولدت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمّا ضَرَّ بها المخاض، رأيتُ النّجوم تتدلَّى، حتّى لقد خشيتُ أنْ تقع عليَّ، فلمّا ولدته خرج منها نُور أضاء له البيت الّذي نحن فيه، فما شيء أنظر إليه إلاّ النُّور[4].

ثمّ سمعوا هاتفاً يهتف على جبل الحجون :

فَأُقْسِمُ مَا أُنْثَى مِنَ النَّاسِ أَنْجَبَتْ ... وَلاَ وَلَدَتْ أُنْثَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدَةْ[5]

كَمَا وَلَدَتْ زُهْرِيَّةٌ ذَاتُ مَفْخَرٍ ... مُجَنَّبَةٌ لُؤْمَ القَبَائِلِ مَاجِدَةْ[6]

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 127/1.

(2) لم أقف عليه مسندًا.

(3) هو عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد بن دهمان، من ثقيف (.. – 51 هـ = .. – 671 م) صحابي، من أهل الطائف. أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على الطائف، فبقي في عمله إلى أيام عمر، سكن البصرة إلى أنْ توفي. انظر الأعلام. الزركلي : 207/4.

(4) انظر سبل الهدى والرشاد. الصالحي الشامي : 341/1.

(5) في سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي : "والده" بدل "واحدة".

(6) ثمّة بيت ثالث وهو : فَقَدَ وَلَدَتْ خَيْرَ البَرِيَّةِ أَحْمَدَا ... فَأَكْرِمْ بِمَوْلُودٍ وَأَكْرِمْ بِوَالِدِهِ

وهتف آخر على أبي قبيس فقال :

يَـا سَـاكِنِي البَطْحَـاءَ لاَ تَغْلَطُـوا ... وَمَيِّـزُوا الأَمْـرَ بِعَقْـلٍ مَضِـي

أُخْـتُ[1] بَنِـي زُهْـرَةَ مِـنْ سِـرِّكُمْ ... فِـي غَـابِرِ الـدّهر[2] وَعِنْدَ البَدِي

وَاحِـدَةٌ مِـنْكُمْ فَهَـاتُوا لَنَـا ... فِيمَا مَضَى للنَّاسِ أَوْ مِمَّا بَقِي[3]

وَاحِـدَةٌ مَـنْ خَيْـرُكُم[4] مِثْلُهَـا ... جَنِينُهَـا مِثْـلُ النَّبِـيِّ التَّقِـي[5]

ومن ذلك ما في البخاري حين تفرّس عمر في رجل - رآه - الكهانةَ، وقال : مَا أَخْطَأَ ظَنِّي قَطُّ إلاَّ فِي هَذَا. الحديث[6].

ومن ذلك أنّ سَواد بنِ قارب الدّوسي[7] وله صحبة وكان يتكهّن، وقدم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحسُن إسلامه، وأخبره أنّ رَئِيَّه أنشده أبياتاً ثلاث ليال متواليات، فقال : سَواد بنِ قاربِ[8] :

---

(1) في سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي : "إن" بدل "أخت".

(2) في سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي : "الأمر" بدل "الدهر".

(3) في سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي : فيمن مضى في الناس أو من بقي.

(4) في سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي : "غيرهم" بدل "خيركم".

(5) انظر الأبيات في سبل الهدى والرشاد. الصالحي الشامي : 352/1.

(6) انظر صحيح البخاري في المناقب. بَاب إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(7) هو سواد بن قارب الأزدي الدوسي (..- نحو 15هـ=..- نحو 636م). كاهن شاعر في الجاهلية، صحابي في الإسلام. له أخبار. عاش إلى خلافة عمر ومات بالبصرة. انظر الأعلام. الزركلي : 144/3.

(8) انظر الأبيات في الروض الأنف. السهيلي : 321/2.

أَتَـانِي رئيّـي بَعْـدَ هَـدْءٍ وَرَقْـدَةٍ وَلَـمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْت بِكَاذِبِ
ثَـلَاثَ لَيَـالٍ قَوْلُـهُ كُـلّ لَيْلَـةٍ أَتَـاك نَبِـيّ مِـنْ لُـؤَيّ بْـنِ غَالِـبِ
فَرَفّعْـت أَذْيَـالَ الْإِزَارِ وَشَـمّرَتْ بِي الْعِرْمِسُ الْوَجْنَا هُجُولُ السّبَاسِبِ
فَأَشْـهَدُ أَنّ اللهَ لَا شَـيْءَ غَيْـرُهُ وَأَنّـك مَـأْمُونٌ عَلَـى كُـلّ غَائِـبِ
وَأَنّـك أَدْنَـى الْمُرْسَـلِينَ وَسِـيلَةً إلَى اللهِ يَا بْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ
فَمُرْنَـا بِمَـا يَأْتِيك مِـنْ وَحْـيِ رَبّنَـا وَإِنْ كَانَ فِيمَا جِئْت شَيْب الذّوَائِبِ
وَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ بِمُغْنٍ فَتِيلًا عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

وكان رَئِيُّه قال له أوّل ليلة[1] :

عَجِبْـتُ للجِـنّ وتَطْلَابِهـا وَشَـدّهَا العِـيسَ بأقتَابِهـا
تَهْوِي إِلَى مَكّةَ تَبْغِي الْهُدَى مـا صَـادقُو الجِـنّ كَكُـذّابِها
فارحلْ إلى الصّفوَةِ من هاشِمٍ لَـيسَ قُـدَاماها كأذنابِهـا

وما هذا المعنى بالّذي يطمع في استقصائه، فحظّنا الإشارة إليه.

---

(1) انظر الأبيات في سبل الهدى والرشاد. الصالحي الشامي : 208/2.

[أقوال في معنى الأبيات]

وممّا يوافق بعض المعاني الّتي حملنا عليها قوله : "مولدُه"؛ أيْ كرم آبائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قول البحتري[1] :

وإذا أبُو الفَضْلِ استَعَارَ سجيّةً   للمَكْرُمَاتِ، فَمِنْ أبي يَعْقُوبِ

شَرَفٌ تَتَابَعَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ   كَالرّمْحِ أُنْبُوباً عَلَى أُنْبُوبِ

وقول مهيار مولى العلويّين[2] :

وَإِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ ثَوَى المُلْكُ فِيهِمُ   فَلَم يَنْوِ مِنْ بَعْدِ الحُلُولِ تَرَحُّلاَ

أُصُولهُمُ مَوْصُولَةٌ[3] بِفُرُوعِهِمْ   إِذَا قَامَ مِنْهُمْ آخَرٌ كَانَ أَوَّلاَ

فَمَا يَشْهَدُونَ الحَرْب إلاَّ إِذَا غَلَتْ   وَلاَ يَشْتَرُونَ الحَمْدَ إلاَّ إِذَا غَلاَ

وهذا باعتبار طِيب الأصالة، وإلاّ فالحقيقة ما قال الآخر[4] :

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِن شَيبَانَ مَحْتِدُه   فَقُلْتُ كَلاَّ وَلَكِنْ مِنهُ شَيْبَانُ[5]

وَكَمْ أَب قَدَ عَلاَ بِابْنِ ذُرَى حَسب   كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

---

(1) انظر البيتين في الحماسة المغربية. الجرّاوي التادلي : 410/1.

(2) انظر الأبيات في ديوانه.

(3) المحفوظ : "منصورة" بدل "موصولة".

(4) هو ابن الرومي يمدح إسماعيل بن بُلْبُل. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 332/2.

(5) المحفوظ : قالوا أبو الصَقْرِ من شيبانَ قلتُ لهم   كلاّ لعَمْري ولكن منهُ شيبانُ

بل كما عَلت الدّنيا والآخرةُ.

ومن معنى قوله : "والحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنىً ومِنْ كَلِم" قول قيس بن الخَطِيم الأوسي الْمُظَفَّرِيّ[1] من أبيات :

مَتَى ما تقـدْ بالباطـلِ الحـقَّ يأْبَـهُ   وإن قـدْتَ بـالحـقِّ الَّرواسِـي تنقـدِ
إذَا مَا أَتَيـتَ الأمـرَ مِنْ غيـرِ بَابـهِ   ضَلَلتَ وإنْ تدخُلْ من الباب تَهْتَدِ

(1) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد (.. - نحو 2 ق هـ= .. - نحو 620م). شاعر الأوس، وأحد صناديدها، في الجاهلية. أدرك الإسلام وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه. شعره جيد، وفي الأدباء من يفضله على شعر حسان. انظر الأعلام. الزركلي : 205/5.

في البيت الأوّل مع الّذي قبله حذف التّقابل؛ لأنّه ذكر في الأوّل أنْ "لا طيب يعدِل ترباً ضمّ أعْظمه"، وهو مُستلزم الإخبار عن طِيب ختامه، وفي الثّاني إبانة مولده عن طِيب عُنصره، وهو مُستلزم الإخبار عن طِيب المُبتدأ، فحذف من الأوّل طِيب المبتدأ؛ لدلالة ذكره في الثّاني، ومن الثّاني طِيب المُختتم؛ لدلالة ذكره في الأوّل. وإضافة "مَوْلد" و"عُنصر" للتّشريف والاختصاص. وتنكير "مبتدأ" و"مَختتَم" للتّعظيم والنّوعية. والنّداء في قوله : "يا طِيب" المراد به التّعجّب؛ لأنّه لا يُنادَى حقيقةً إلاّ العاقل أو المنزّل منزلته، والعرب إذا استعظمت شيئاً نادته على سبيل التعجّب. وقال بعضهم : «إنّ التّقدير : يا مُتعجّبا تأمّل طِيب مُبتدإ..». وهذا لا بأس به، ويساعده النّقل. قال : «أو تكون "يا" لتنبيه السّامع لِما يرد عليه».

قلتُ : وهذا يحتاج إلى نقل، فإنّهم لم يعدّوا هذا من مَحَالّ كونها للتّنبيه. وليس هذا النّداء من باب : ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾[1] و﴿يَـٰنَارُ كُونِي﴾[2]. لاحتمال أنْ يخلق الله تعالى لهما الإدراك.

وفي قوله : "ومُختتَم" إيجاز الحذف؛ إذ التّقدير : منه؛ فهو مِن الحذف مِن الأواخر لدلالة الأوائل؛ نحو : ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[3]؛ أيْ كثيرًا، ووجه حذف "منه" من "مُختتَم" مع دلالة

---

(1) سورة سبأ : من الآية 10.

(2) سورة الأنبياء : من الآية 69.

(3) سورة الأحزاب : من الآية 35.

المتقدّم عليه تَأَتّي القافية، وإيهام أنّ طِيب المبتدأ مقصور عليه، لا يُشارَكُ فيه، وطِيب المختَتَم مطلق؛ يشاركه فيه أمّته الجارون على سُنَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله : "يوم.." البيت إلى قوله : "ساطِعة" من الأيضاًح بعد الإبهام الكائن في "مولد"، فهو من الإطناب.

وأتى بالفعل في قوله : "تفرّس" ليفيد التجدّد؛ لأنّ هذا شأن المتثبّت أنْ يكرّر النّظر مرّة بعد أخرى؛ كقوله[1] :

.... بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهم يتَوَسَّمُ.

و «أل» في "الفُرس" للعهد؛ أيْ الّذين كان عندهم علمُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكتب.

وقوله : "أنّهم.." البيت؛ من الأيضاًح بعد الإبهام الكائن في "تفَرَّس"، ومفعول "تفَرَّس" "أنّهم.."؛ أيْ تفرّسوا إنذارهم، ويصحّ أنْ يكون التّقدير : لأنّهم.. ومفعول "تفَرَّس" محذوف؛ أيْ هلاكهم، ففيه – على هذا – إيجاز الحذف.

و «أل» في "البؤس" و"النّقم" للجنس.

وأجاز بعضهم نصب "يوم"، وألزم لذلك أنْ يكون فيه حشوًا، قال: والحشو للتّوكيد جائز، لا سِيَّما في الشِّعر، لحفظه الأوزان والقوافي المستدعاة.

---

(1) هو شطر من بيت لطريف بن عمرو بن تميم العنبري. والبيت بتمامه :

أَوَ كُلّما وَرَدَتْ عُكاظَ قَبِيلَةٌ ... بَعَثُوا إِليّ عَرِيفَهُمْ يتَوَسَّـــمُ

انظر البيان والتبيين. الجاحظ : 69/3.

قلتُ : الرّواية بالرّفع، ولو سُلّم صحّة النّصب، فالجملة بعد "يوم" صفة، والرّابط الضّمير المجرور بـ "في"، فليس بحشوٍ.

وعبّر بلفظ "بات" دون صار؛ إشارة إلى أُفُول شمسهم، وغروب مُلْكهم، وإيذانًا بانقراض ضياء نهارهم، وأيضاً مصيبة اللّيل أشقّ على النّفوس من مصيبة النّهار. وبهذا يندفع قول بعضهم : «إنّما قال : "بات"؛ لأنّه بات سليماً، وأصبح متصدّعاً. ولو قال : انصدع، لتمّ قصده، لكن أتى بـ "بات" للوزن، ولو قال : صار، لتمّ الوزن، ولما احتاج لتكلّف الإخبار بأنّه بات كذلك، ولعلّه ما انصدع إلاّ بعد زمن المبيت». انتهى.

وهذا كلام متدافع، فإنّه قال : "أتى بـ "بات" ليفيد أنّه بات سليماً"، ثمّ قال : "انصدع تفي بمقصوده، وإنّما قال : بات للوزن، ثمّ رجع إلى ما قال أوّلاً".

ثمّ قال : «وتقدير باقي البيت "كَشَمْلِ أَصْحَاب كِسْرَى غَيرَ..". ولفظ "غير" منصوب خبر "صار"، ولا يُقدّر "بات"؛ لأنّ المقصود الإخبار عمّا لحقهم من سوء الحال، وتفرُّق شملهم باللّيل لا يدلّ على سوء الحال؛ لأنّ اللّيل ليس من أوقات التئام الشّمل، بل من أوقات تفرقته، وانفراد كلّ ببيته».

قلتُ : وهذا كلام ساقط؛ فإنّه حمل التآم الشّمل على الاجتماع الحسّي، وما علم أنّ انفراد كلٍّ ببيته في اللّيل هي حال الْتِآم الشّمل، فإنّه دليل الأمان والطّمأنينة، وأنّ الْتِآم شملهم باللّيل لمصيبة تنزل بهم هو عين تفريق الشّمل، فالأَوْلى في توجيه إتيانه بـ "بات" ما ذكرناه.

وإنّما قال : "كَشَمْلِ أَصْحَاب كِسْرَى"؛ فأوقع الظّاهر موقع المضمر، ومقتضى الظّاهر: كشمل أصحابه؛ لزيادة التلذّذ بذكره؛ مخبرًا عنه بما أصابه من البلايا، وليُتوصّل بذكره إلى التّورية الّتي تذكر بعدُ - إن شاء الله تعالى - في علم البديع، حتّى يكون التّعبير عنه باللّقلب كناية عن كسره، كما قالوا في : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[1]؛ أيْ يدا جَهَنَّميّ.

وقال : "منصدعٌ" دون انصدَعَ؛ تنبيهًا على أنّ الانصداع لا يفارقه بعدُ؛ لإيذان الاسم بالثّبوت، وكان كذلك؛ فإنّهم مُزّقوا إلى يوم القيامة.

وأمّا حِكمة التّعبير بـ "مُلْتَئِم" دون "لا يلتئم" - مع أنّ نفي الفعل الّذي هو المطلق يستلزم نفي الاسم الّذي هو المقيّد - فَحِفْظُ القافية.

وإضافة "الإيوان" للتّحقير أو للتّعظيم على سبيل التهكُّم؛ نحو : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[2].

وتنكير "مُلْتَئِم" للتّقليل.

و «أل» في النّار و"النّهر" و"الماء" للعهد، وهي في "الأنفاس" و"العين" نائبة عن الضّمير.

والتّعبير بالاسم في "خامدة" و"ساهي" مثله في "منصدع".

وتنكير "أسف" و"سدم" و"بلل" و"ضرم" للتّعظيم أو النّوعيّة؛ إذ التّقدير : من سدم عليه، ومن ضرم حزناً، فهو إذًا من إيجاز الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

---

(1) سورة المسد : من الآية 1.

(2) سورة الدخان : الآية 49.

وقوله : "من بلل" و"من ضرم" من الأيضاح بعد الإبهام الكائن في "ما". وتنكير "حزنًا" كتنكير "بلل".

وبنى الفعل للمفعول في "رُدَّ واردها" تنبيهًا على أنّه كالمصدود قهرًا، لا سِيَّما مع قوله : "حين ظَمِي"؛ فإنّ الظّمآن لا يصدّه عن ورود الماء إلاّ المانع القويّ، فصار قوله : "حين ظَمِي" كالدّليل على ما قصد من القهر، ونظيره ما قرّر الزّمخشري[1] وغيره في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾[2].

وفي قوله : "خامِدَة الأنفَاسِ" و"غَاضَت" إجمال فسّره بقوله : "من بلل". و"من ضرم" راجع إلى "ساهي العين"؛ لأنّهم إنّما حَكَوا الاضطرام عن مكان بُحيرة "ساوة"، ولا يبعُد رجوعه إلى نهر السّماوة أيضاً، على سبيل تشبيه انقطاع جَرْيَته بانقلابه إلى ضدّه.

و «أل» في الجنّ للجنس أو للعهد في مُسْتَرِقِي السّمع.

وقال : "تهتف" دون هاتفة؛ لأنّ هتفها يتجدّد ويتنوّع، وليس بلازم حالةً واحدة، وأيضاً فلأنّ هتفها صوتُ كلامها، والكلام من الأعراض السيّالة كالحركة والزّمان، فهو يتجدّد، فناسب الفعل، بخلاف "منصدع" و"خامدة" و"ساهي".

وجمع "الأنوار" إعلاماً بكثرة الآيات.

وقال : "ساطعة" لدوام سطوعها إلى يوم القيامة.

---

(1) قال الزمخشري في قوله تعالى "يُهْرَعُونَ" : يسرعون كأنّما يُدفعون دفعاً. انظر الكشاف : 390/2.

(2) سورة هود : من الآية 78.

وجملة قوله : "والحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنىً ومِنْ كَلِم" من التّذييل الخارج مَخْرج المَثل؛ نحو : ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[1] في وجه.

وعبّر بالفعل في "يَظْهَر" لأنّه يتجدّد ويزداد : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾[2]. وهذا النّوع من التّذييل يحسن أنْ يُعَدّ من حيث كونه تذييلاً من علم المعاني، ويُعَدّ من عِلم البيان؛ فإنّ فيه تشبيهاً؛ لأنّ المعنى إعلام نبوّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودلائل رسالته حقّ، ولذا كانت ظاهرة من معناها ومن ألفاظها، كما أنّ الحقّ يظهر من معناه ومن كلماته؛ أيْ ألفاظه، وهذا كقوله : ..فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ[3]، ومن علم البديع، فإنّه من المذهب الكلامي؛ إذ يُقال : ما الدّليل على صحّة ما ادّعيتموه من حقيقة نبوّته؟ فيُقال : لأنّ الحقّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنىً ومِنْ كَلِم، وهو أيضاً من هذا الوجه يشبه الاستئناف البياني؛ كقوله[4] :

لَوْ اختصرتُم من الإحْسَانُ زُرْتكُم   والعَذْب يُهجَر للأفْراطِ في الخَصَر

فإنّه يحسن أنْ يُقال : كيف تمنع كثرة الإحسان من الزّيارة؟ فيُقال: العذْبُ.. إلى آخره.

---

(1) سورة سبأ : من الآية 17.

(2) سورة مريم : من الآية 76.

(3) البيت من شعر المتنبي، وسبق توثيقه، وهو بتمامه :

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

(4) هو أبو العلاء المعري. والخصر: البرودة المؤلمة. انظر البيت في خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي : 136/1.

إسناد "أبان" إلى "مولده" من المجاز العقلي. والنّداء في "يا طيب" من مجاز التّشبيه؛ لتشبيه ما تعجّب منه – لعظمته - بمُنادَى يَسمع؛ كأنّه قيل له: هذا أوانك فاحضر. ويشبه أنْ يكون "أبان" من مجاز التّضمين، وهو راجع إلى التّشبيه؛ أيْ أفصح، ولذا عُدِّيَ بـ "عن".

وانظر هل يكون قوله : "بِحُلُولِ البُؤسِ والنِّقَم" من التّشبيه. وتشبيه "إيوان كِسرى" بـ "شمل أصحابه"؛ من تشبيه محسوس بمحسوس.

وأمّا قوله : "خَامِدَة الأنْفَاس" و"سَاهِي العَيْنِ" فمن الاستعارة بالكناية؛ لتشبيه "النّار" بشخص كَظم غَيْظه، ولم يكد يتنفّس؛ لِما به من الكمد، ولم يُذكَر الشّخص، وذُكِر لازمه من "الأنفاس"، و "الماء" بشخص بُهِتَ وتَحَيّر لِما ورد عليه من الخبر المحزن، فلم يُذكر، وذُكر لازمه، وهو "سهو العين"، أو بميّت لا يبصر بعينه، ولا ينبعث شعاعها، الشّبيه بالماء الجاري، والجامع أنّ بعض أجزاء الماء والشّعاع يخلف بعضاً.

وإسناد "ساوَة" إلى "أنْ غَاضت" من المجاز العقلي، أو يكون شبّه "ساوَة" بمَن يحزن. وإسناد "ساء" إلى "أنْ غاضت" لازمه. وإنْ كان التّقدير: أهل النّار وصاحب النّهر وأصحاب "ساوة"، فيكون ذلك من مجاز الحذف.

[حقيقة المشابهة]

وأمّا قوله : "كأنّ بالماء.." البيت، فهذا من النّوع الّذي هو أخصّ باسم المشابهة منه من التّشبيه، وذلك أنّ المراد بالتّشبيه "إلحاق النّاقص في وجه التّشبيه حقيقة، أو ادّعاء بالزّائد"، فإنْ أُريد مجرّد الجمع بين شيئَين في أمر، فالأحسن ترك التّشبيه إلى الحُكم بالتّشابه؛ ليكون كلّ من الطّرفين مشبّهاً ومشبّهاً به، لئلاّ يُرجّح أحد المتساويين على الآخر، كقول الصّابي[1] :

تَشَابَهَ دَمْعِي إِذْ جَرَى وَمُدَامَتي ... فمِنْ مِثْل مَا في الكأسِ عَيْنَي تَسْكبُ

فَوالله ما أَدْري أَبالخمر أسْبَلَتْ ... جُفـونيَ أمْ مـن عَبْرَتـي كُنْـتُ أشْـرَبُ

وقول الآخر[2] :

رَقّ الزجاجُ وراقتِ الخمرُ ... فتشـابها فتشـاكلَ الأمـرُ

فكأنّمـا خمـرٌ ولا قـدحٌ ... وكأنّمـا قـدحٌ ولا خمـرُ

(1) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون. أبو إسحاق الصابئ (313 - 384هـ= 925 - 994م). نابغة كُتّاب جيله. كان أسلافه يعرفون بصناعة الطب، ومال هو إلى الأدب، وكان صلباً في دين الصابئة، له كتاب (التاجي) في أخبار بني بويه. انظر الأعلام. الزركلي : 78/1.
وانظر البيتين في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 59/2.

(2) هو الصّاحب بن عبّاد. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 44/7.

إلاّ أنّ جهة التّشبيه عند الصّابي متّحدة، وهي عند النّاظم على التّعاكس، ويجوز في هذا النّوع التّشبيه أيضاً، فتشبّه غرّة الفَرَس بالصّبح وبالعكس متى أُرِيد ظهور "منير" في "مظلم".

وقيل : إنّ قوله : "حزنًا" استعارة؛ لتشبيه خمودها بالحُزن، وهو مجاز إفراديّ في ضمنه مجاز تركيبيّ، وهو نسبة الحُزن إلى "النّار"؛ لأنّ فاعل المصدر ضمير "النّار"، ومثل هذا في نسبة "الضّرم" إلى "الماء"، والتّقدير فيه أيضاً حزنًا.

واستعارته "الأنوار" لـ "الآيات" من استعارة محسوس لمحسوس، أو لمعقول، أو لهما جميعاً، والجامع: الدّلالة، وارتفاع حيرة الظّلام بالنّور، كارتفاع حيرة الجهل بعِلم النبوّة والحقّ.

في البيت الأوّل الجمع؛ لجمع "المبتدأ" و"المُختَتَم". وقوله : "مُختَتَم" راجع للبيت الّذي قبله، و"مبتدأ" لـ "مولده"، فهو من اللفّ والنّشر المعكوس. ولا يبعد أنْ يُقال : إنّ تكرير لفظ "طِيب" في البيت من التّجنيس التّام. وألفاظ "الطِيب" و"العُنصر" و"المبتدأ" و"المُختَتَم" من مراعاة النّظير. كما أنّ "المبتدأ" و"المُختَتَم" من الطّباق، وهما أيضاً من الموازنة.

و "تفرّس الفُرس" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق. ولفظ "أُنذِروا" و"حلول البؤس والنّقم" من مراعاة النّظير.

وفي قوله : "وَبَاتَ إيوَانُ.." وما بعده من الأبيات "**التّلميح**"، وهو بتقديم اللاّم على الميم من لَمَحه؛ إذا أبصره ونظر إليه، وكثيرًا ما يُغلط فيه، فيقال بتقديم الميم على اللاّم[1].

---

(1) أيْ : التمليح. وانظر خزانة الأدب وغاية الأرب. تقي الدين الأزراري : 406/1.

[حقيقة التّلميح]

وحقيقتُه : «أَنْ يُشَارَ إِلَى قِصَّةٍ أَوْ شِعْرٍ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِهِ»[1]؛ كقول ابن المعتزّ[2]:

أَتَــرَى الجيــرَةَ الــذين تَــدَاعَوْا ... عنـدَ سَيرِ الحَبيب وقتَ الزَّوالِ

علمــوا أنّنــي مُقـيمٌ وقلبــي ... راحــلٌ فـيهمُ أمــام الجِمــالِ

مثلُ صَاع العَزيزِ في أَرحُلِ القَوْ ... مِ ولا يعلمـونَ مـا فـي الرِّحَـالِ

وقول أبي تَمَّام[3] :

لَحِقْنَا بِأُخْرَاهُمْ وَقَدْ حَوَّمَ الْهَوَى ... قُلُوبـاً عَهِـدْنَا طَيْرَهَـا وَهْـيَ وُقَّـعُ

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ ... بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِدْرِ تَطْلُعُ

نَضَا ضَوْؤُهَا صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وانْطَوَى ... لِبَهْجَتِهَـا ثَـوْبُ السَّـمَاءِ الْمُجَـزَّعُ

فَــوَاللَّهِ مَــا أَدْرِي أَأَحْــلَامُ نَــائِمٍ ... أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرَّكْبِ يُوشَعُ

أشار الأوّل إلى أمر يوسف عليه السّلام؛ بجَعل صَاع العزيز في رَحْل أخيه[4]، والثّاني إلى قصة يُوشَع بن نُون، وقتاله الجبّارين، واستيقافه الشّمس حتّى يفرغ من قتالهم[1].

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 388.

(2) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي : 406/1.

(3) انظر الأبيات في الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. الحسن بن بشر الآمدي : 83/2.

(4) وذلك في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾. سورة يوسف : الآية 70.

(1) انظر تفسير القرطبي : 130/6.

وهو هنا الإشارة إلى الآيات الكائنة منذ ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممّا تقدّم ذكره، وهو في هذا البيت – خصوصاً - الإشارة إلى هزيمة أصحاب كِسرى، ومن هنا يمكن أنْ يكون ورّى بكسرى عن الكَسْر كما تقدّمت الإشارة إليه، وذِكْره مرّتين من التّكرير.

وفي "منصدع" و"ملتئِم" موازنة وطباق. ولفظ "الأصحاب" و"الشّمل" و"الالتئام" من مراعاة النّظير، وكذا "الإيوان" و" كِسرى".
وقوله : "ملتئِم" من التّخيير؛ إذ يصحّ أنْ يقول بدله: مُنْتَظِم، وإنّما اختاره؛ لأنّه الأوفق بـ "منصدع"، ولو قال : وهو مُتَبدِّد، لكان الملائم مُنْتَظِم، ولولا ذلك لكان نفي الانتظام أولى؛ لأنّه أعمّ من الالتئام، إذ قد ينتظمون ولا اِلْتِئام بين قلوبهم.

وفي قوله : "الأنفاس" و"أسف" قلب البعض؛ ومنه :

وَقَالُوا : أيْ شَيْءٍ مِنْهُ أَحْلَى   فَقُلْتُ : المُقْلَتَانِ المُقْتِلاَنِ[1]

وهما أيضاً من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق.

و "خامدة" و"الأنفاس" و"ساهي العين" من المناسبة.

و"النّار" و"النّهر" من الطّباق الخفيّ؛ لأنّ النّهر مكان الماء.

و"ساهي العين" يحتمل أنْ يكون من التّورية المرشّحة؛ لأنّ العين المقترنة بالنّهر معناها القريب الجارية، والمُراد بها هنا البعيد، وهي الباصرة المضافة للمستعار منه.

---

(1) صاحب هذا البيت هو أبو القاسم عمر بن عبد الله الهرندي. انظر البيت في الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. المؤيد بالله : 53/3.

و"خامدة" و"ساهي" من المناسبة.

و"أسف" و"سدم" من الموازنة، كما أنّ "والنّار.." إلى "..أسف" و"الماء.." إلى "..سدم" يقرُب منها.

و"وَسَاءَ سَاوَةَ" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، وكذا "غاضت" و"الغيظ"، وهذا أيضاً من الشّبيه بالمضارع، وهو الأرجح فيه، وكذا "رُدَّ" و"الوارد"، و"غاضت" و"بحيرتها" و"واردها" و"ظَمِي" من مراعاة النّظير. وكذا "ردّ" و"الغيظ". وألفاظ "الماء" و"النّار" و"البلل" و"الضرم" من الطّباق ومن الموازنة.

[حقيقة العكس والتّبديل]

وفي قوله : "كأنّ.." البيت، نوع من القَلْبِ يسمّى : "العَكْسُ والتَّبْدِيلُ"[1]، ويقع على وجوه :

بين أحد طرَفي جُملة؛ نحو : عَادَات السَّادَات سَادَات العَادَات، وكلامُ المُلُوك مُلُوك الكَلام، وقول المتنبّي[2] :

فَلاَ مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلاَ مَالَ في الدُّنْيا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

وبين طَرَفي جُملتَين : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾[3]. ومن هذا قول النّاظم : "بالنّارِ ما بالماء" و "بالماءِ ما بالنَّارِ"[4].

وشطرا البيت يقربان من الموازنة، وفيه التّقسيم؛ لإضافته لـ "النّار" ما وصفها به، ولـ "الماء" ما وصفه به.

و"من ضرم" من التّسهيم.

و"الأنوار ساطعة" و "الحقّ" و "الظّهور" و "المعنى" و "الكلم" من مراعاة النّظير. وإضافة "الهتف" إلى "الجنّ"، و"السّطوع" إلى "الأنوار"، و"الظّهور" إلى "الحقّ" من التّقسيم، كما أنّه في قوله : "وبات.." إلى آخر الأبيات، فإنّه أضاف إلى "الإيوان" و "الأصحاب" و "النّار" و "النّهر" و "خامدة" و "ساهي" و "ساوة" وغيرها، إلى كلّ ما يليق به، وهو ظاهر.

---

(1) انظر البيت في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 84/2.

(2) ويسمى العكس المعنوي. انظر حقيقته في البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني: 440/2

(3) سورة يونس : من الآية 31.

(4) انظر انظر وجوه العكس والتبديل في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 144/7.

وفي البيت الأخير الجمع؛ لجمع "المعنى" و "الكلم" في ظهور الحقّ منهما. ولا يبعد أنْ يكون فيه التّسهيم. ويمكن أنْ يكون من تشابه الأطراف؛ لأنّه افتتح بـ "هتف الجنّ"، وختم بـ "الكَلِم"؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]. ويشبه أنْ يكون من العكس والتّبديل؛ لأنّ "الهتف" ألفاظ، وقد قدّمها، و"الأنوار ساطعة" معانٍ وقد أخّرها، ثمّ قدّم ما أخّر، وأخّر ما قدّم في قوله : "مِن معنًى ومِن كَلِم".

---

(1) سورة المائدة : الآية 118.

الإعراب

لا محلّ لجملة "أبان.." إلى "..عنصره" لاستئنافها.

وعن طيب : متعلّق بـ "أبان"، و"عن" للمزايلة في غالب أمرها؛ نحو : أطعمته عَن جُوع، وأَسْقيتُه عن العَيْمَة؛ أيْ جعلتُ الجُوع زائلاً عنه بَعيدًا منه، كما أنّ المعنى في البيت جعل مولده - طيب عنصره - بعيدًا من كلّ ريب وشكّ؛ بالبيان والظّهور لِمن كان لا يعلمه، وأكثر عبارتهم عن هذه بالمجاوزة.

ويا : حرف يُنادى به البعيد. وطيب مبتدأ : منادى مضاف منصوب. ومنه : صفة لمبتدأ، وقدّمنا في التّفسير صحّة كونه مفعولاً لم يُسَمَّ فاعله. والمراد بهذا النّداء التّعجّب كما تقدّم. ويجوز أنْ يكون المنادى محذوفاً؛ أيْ يا قوم، و"طيب" : مفعول بمضمر؛ أيْ انظروا طيبَ ابتدائه واختتامه، والمعنى على التعجّب. وقال سيبويه في قول الصلتان العبدي[1] :

أَيَا شَـاعِراً لا شَـاعِرَ اليَوْمَ مِثْلُهُ   جَرِيرٌ ولكِنْ في كُلَيب تَوَاضُعُ

«إنّه منصوب بمضمر على معنى التّعجّب والاختصاص، والمُنادَى محذوف»[2]. وقيل : المنادَى الطّيب؛ أيْ تعال أشهده.

---

(1) هو قثم بن خبية العبدي، من بني محارب ابن عمرو (.. - نحو 80هـ= .. - نحو 700م). شاعر حكيم. وله قصيدة في الحكم بين جرير والفرزدق. انظر الأعلام. الزركلي : 190/5. وانظر البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 174/2.

(2) انظر الكتاب. سيبويه : 237/2. وانظر البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 174/2.

يوم : بدَل من "مولده"؛ بدل شيء من شيء، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ: ذلك يومٌ. وأجاز بعضهم نصبه على الظّرفية في كلام لا تحقيق له أشرنا إلى بعضه في المعاني.

وجملة "تفَرَّس.." إلى آخر البيت : صفة لـ "يوم".

وأنّ واسمها وخبرها بتأويل مصدر مفعول لـ "تفَرَّس"؛ أيْ تفرّسوا إنذارهم، أو مفعوله محذوف، و"أنّ" - على حذف حرف الجرّ؛ أيْ تفرّسوا هلاكهم بأنّهم.. - فتحتمل "أنّ" النّصب والجرّ على القولين.

وبحلول : متعلّق بـ "أُنذِروا"، وباءه للتّعدية.

وبات : من أخوات "كان"، وهي بمعنى "صار". وإيوان : اسمها. وكشمل أصحاب كسرى : خبرها. وجملة "وهو منصدع" : اعتراضية بين اسم "بات" وخبرها، ويجوز كونها حالية عند من أجاز عمل كان وأخواتها في الحال، واعترضه بعضهم بأنّه يعطي بمفهومه أنّ إيوان كسرى إنّما يشبه شمل أصحابه إذا كان منصدعاً، وهذا يعطي أنّ الإيوان كان قبلُ له حالتان؛ حالة انصداع، وحالة نَفْيه، وهذا لا يصحّ، ويجوز أنْ يكون في موضع خبر "بات"؛ لأنّ الجملة المُخبَر بها في باب "كان" قد تُشبَّه بالحالية، فتلي الواو، نصّ عليه في "**التّسهيل**"[(1)]، ومنه[(2)] :

وكانُوا أُناساً يَنْفَحُون[(3)] فأَصْبَحُوا وأَكْثَـرُ مـا يُعْطُونَـكَ النَّظَـر الشَّـزْر

---

(1) انظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك : ص 55.

(2) صاحب هذا البيت هو أعشى تغلب. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 5/2.

(3) ويروى : يَنْضَحُونَ.

وكشمل : على هذا خبر ثانٍ، أو حال من ضمير "منصدع".

وقوله "غير" الأَولى نصبه على الحال من "شمل"، عامله المجرور الّذي هو خبر. واعترضه بعضهم بما اعترض : جعل "وهو منصدع" حالاً. وقال شيخنا أبو العباس القصّار: «يصحّ خفضه نعتاً لـ "شمل"». وهو مع إضافته إلى معرفة معناه على التّنكير؛ لأنّ "كِسرى" الأوّل معرفة؛ لأنّه أَنوشِرْوَانَ، والثّاني غير معيّن، كأنّه قال : كشمل أصحاب ملِك الفرس؛ لأنّ الشّتات الواقع بينهم إنّما هو بعد أَنُوشِرْوَانَ.

وتقدّم أنّ "والنّار" معطوف على "إيوان كسرى". و"خامدة" : عطف على "كشمل"، ويضعف أنْ يكونا اسم "صار" وخبرها، وهي مُضمرة، كما يضعف جَعل "النّار" مبتدأ، و"خامدة" خبرًا؛ لأنّه يعطي أنّ ذلك كان شأنها دائماً، وإنّما صارت كذلك لأجل الحزن على ما ذُكر، وهذه الوجوه بعينها في قوله : "والنّهر سَاهِي العَيْن". وإضافة "خامدة" و"ساهي" من إضافة الصّفة المشبّهة إلى موصوفها؛ أيْ خامدة أنفاسُها، وسَاهٍ عينُه.

و"مِن" في "مِن أسف" و"مِن سدم" للتّعليل، وتتعلّق الأُولى بـ "خامدة"، والثّانية بـ "ساهي".

و"عليه" تتعلّق بـ "أسف"، وإنْ قدّرتَ "ساهي" منصوباً؛ ففتحته منوّنة ضرورة. و«أل» في "الأنفاس" وفي "العين" نائبة عن الضّمير، أو هو محذوف على الرّأيَين، وتقدّم أنّ "ساء" معطوف على "بات"، هذا هو الأرجح، وفيه غير هذا ذكرناه في "**الاستيعاب**".

وساوة : مفعول. و"أنْ" وصلتها فاعله؛ أيْ غِيض بُحيرتها.

ورُدّ : فعل ماضٍ مبني للمفعول، الأصل رُدْدَ، ثمّ أُدغِمْ، والمفعول النائب "واردها". وبالغيظ، وحين : متعلّقان بـ "رُدّ"، والباء للمصاحبة. وأجاز القصّار في مجرورها أنْ يكون حالاً من الوارد، كما أجاز أنْ يكون عامل "حين" "الغيظ".

وظَمِي : فعل ماضٍ؛ أصله الهمز، ثمّ يُسهّل بإبداله ياءً لكسر ما قبله، وهو مبني على الفتح، لكنّه سُكّن ضرورة، وهو من الضّمائر المستحسنة، وفاعل "ظَمِي" "الوارد"، والجملة في موضع خفض بإضافة "حين" إليها؛ أيْ ظَمِأَ به.

وما : في "ما بالماء" : اسم "كأنّ"، وهي موصولة، صلتها "بالماء".

ومن بلل : يتعلّق بما يتعلّق به "بالماء"، و"من" للبيان.

وبالنّار : خبر "كأنّ" مقدّماً.

وحزناً : حال من "النّار" المذكورة أوّلاً؛ أيْ ثبت بالنّار حال كونها ذات حزن، والعامل فيه هو العامل في الخبر، ولا يصحّ جعله مفعولاً له عند مَن يشترط اتّحاد الفاعل؛ لأنّ عامله ثبت، وثابت العامل في الخبر وفاعله ضمير يعود على "البلل" الكائن بالنّار، وفاعل الحزن "النّار".

وقوله : "وبالماء.." إلى آخره : كلّ كلمة معطوفة على مقابلتها، وليس من العطف على معمولَي عاملَين، وإنْ كان في هذه العبارة بحث؛ لأنّ هذه الواو عطفت "بالماء" على "بالنّار"، و"ما بالنّار من ضرم" على "ما بالماء من بلل"، وتلك القاعدة على رأيْ من أجازها هي كقولهم : "فِي الدّارِ زيدٌ والحُجرةِ عَمْرو".

قالوا : «وعُطفَت "الحجرةُ عمرو" على "الدّار زيد"، ولم يُعد الجار بعد الواو، ولو أُعِيد، لخرج من القاعدة كما هنا»[1].

والجنّ تهتف : مبتدأ وخبر. وكذا "الأنوار ساطعة"، وكذا "الحقّ يظهر"، وهذه الجملة والجمل قبلها كلّ معطوفة على الّتي يليها إلى "وبات"؛ أو هي كلّها معطوفة على جملة "بات"، وقد تقدّم. واعترض بجملة التّشبيه بين المتعاطفات.

ومن معنى : متعلّق بـ "يظهر"، وتقدّم غير هذا الوجه. ومن كلم : عطف عليه، و"من" فيهما لابتداء الغاية، أو لبيان الجنس كما تقدّم.

(1) الْمَشْهُور عَن سِيبَوَيْهٍ منع هذه الصورة، وَبِه قَالَ الْمبرد وَابْن السراج وَهِشَام، وَعَن الْأَخْفَش الْإِجَازَة، وَبِه قَالَ الْكسَائي وَالْفراء والزجاج، وَفصل قوم مِنْهُم الأعلم، فَقَالُوا : إِن ولي المخفوض العاطف؛ نحو "في الدّارِ زيدٌ والحُجرةِ عَمْرو" جَاز، لِأَنَّهُ كَذَا سُمع، وَلِأَن فِيهِ تعادل المتعاطفات، وَإِلَّا امْتنع، نَحْو "فِي الدَّار زيد وَعَمْرو الْحُجْرَة". انظر مغني اللبيب. ابن هشام : ص 632.

اَلْإِشَارَاتُ

[السّعادة أصلها التّخصيص]

في قوله : "أبان.." البيت؛ إشارة إلى أنّ السّعيد مَن سعد في بطن أمّه، والشّقيّ مَن شقي فيه، كما أتى في الصّحيح من الأخبار، وأنّه لا يستحقّ أحد على الله شيئاً، يخصّ من يشاء بما يشاء، وأنّ السّعادة أصلها التّخصيص؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**كُنْتَ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ والطِّينِ**»[1]. وفيه إشارة إلى أنَّ المبدأ إذا كان حسنًا قَوِي الرّجاء بالتّمادي عليه غالباً، وأنّ الختام بفضل الله يكون مِسكاً :

إنّ الهِـلاَلَ إذَا رأيـتَ نُمُـوَّهُ أَيْقَنـتَ أَنْ سَيَصِـيرُ بَـدْراً[2]

فمَن سبقت له من الله السّعادة، فيا طيب مبتدأ منه ومختَتَم، ومَن ظهر عليه في ابتداءه الانقطاع إلى الله، والرّكون إلى عبادة مولاه، فعسى أنْ يطيب اختتامه ومنتهاه، وجديرٌ أنْ يتفرّس فيه أعداء الدّين من شياطين الإنس والجنّ أنّه يحلّ بهم – بسببه – البؤس والنّقم، فإنّه لا أشدّ على الشّياطين والعصاة ممّن يراقب الله، فإنّه يغضب لغضبه، ويخشاه، ولا سِيَّما إنْ كان عالماً : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3]. وليس على الشّياطين أشدّ منهم، فإنّهم يعلّمون النّاس بمكائدهم وعداوتهم، وما يريدون منهم، وهذا كما رنّ إبليس يوم ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أبو شياطين الجنّ. وكما تفرّس الفرس في ذلك، وهم رؤساء الكفّار في زمانهم، فهم أعلى شياطين الإنس.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) البيت من قصيدة قالها أبو تمام يعزي عبيد الله بن طاهر عن ابنين طفلين ماتا في يوم واحد. وسبق توثيقه.

(3) سورة فاطر : من الآية 28.

[فراسة المؤمن]

وإذا كان هذه فِراسة الكافر، فكيف بفِراسة المؤمن؛ كفراسة ورقة بن نوفل فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا خديجة رضي الله عنها[1]، ومن حديث أبي سعيد أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بنورِ اللَّهِ**»[2].

وقد اشتهر عن عمر - رضي الله عنه - في ذلك ما لا يخفى. وقوّتها على حسب قوّة الإيمان، فمَن كان أقوى إيماناً، كان أقوى فراسةً؛ قال : الكِنانيّ : «الفِرَاسَةُ : مُكَاشَفَةُ اليَقِينِ، وَمُعَايَنَةُ الغَيْبِ، وَهُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الإيمَانِ»[3].

وقال شَاهْ الْكَرْمَانِيّ - وكان لَا تُخْطِئُ فِرَاسَتُهُ - : «مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ الْمَحَارِمِ، وَأَمْسَكَ نَفْسَهُ عَنْ الشَّهَوَاتِ، وَعَمَّرَ بَاطِنَهُ بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ، وَظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَتَعَوَّدَ أَكْلَ الْحَلَالِ، لَمْ تُخْطِئْ فِرَاسَتُهُ»[4].

وسُئل النّوري[5] : عن تولّدِ الفِراسة. فقال : من قوله تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1]. فَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِن ذَلِكَ النُّورِ أَتَمَّ، كَانَ

---

(1) وذلك عندما قال لها : «وَالَّذِي نَفْسُ وَرَقَةَ بِيَدِهِ، لَئِنْ كُنْتِ صَدَّقْتِينِي يَا خَدِيجَةُ، لَقَدْ جَاءَهُ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى، وَإِنَّهُ لَنَبِيّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَقُولِي لَهُ: فَلْيَثْبُتْ». انظر الروض الأنف. السهيلي : 382/2.

(2) سبق تخريجه.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 387/2.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 389/2.

(5) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري بغدادي المولد والمنشأ، بغوي الأصل. صحب السريّ السقطي، وابن أبي الحواري. وكان من أقران الجنيد رحمه الله.مات سنة : خمس

حُكْمُهُ بِالفِرَاسَةِ أَصْدَقَ، أَلاَ تَرَى كَيفَ وَجَب السُّجُودَ لِمَنْ نَفَخَ فِيهِ مِن هَذَا الرُّوحِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ.. ﴾ الآية[2]»[3].

وكان الخوّاص مع جماعة، فمرّ بهم شاب حسن الوجه والهيئة، طيّب الرّائحة، فقال الخوّاص لأصحابه : «يَقَعُ لِي أَنَّ الشَّاب يَهُودِيٌّ». فكرهوا مقالته. فقال لهم الشّاب : «أيْ شَيءٍ قَالَ الشّيْخُ فِيَّ؟» فاحتشموا، فألحّ، فأخبروه. فجاءه وأكبَّ على رأسه، وأسلم. فسُئل عن السّبب، فقال : «نَجِدُ في كُتبنا أنّ الصِدّيقَ لاَ تُخطِىءُ فِرَاسَتُه، وَامتَحَنْتُ المُسلِمِينَ، وقُلتُ : إنْ كَانَ فِيهِم صِدّيقٌ فَفِي هَؤُلاَءِ؛ لأَنّهُمْ يَقُولُونَ حَدِيثَهُ سُبحانه، وَيَقْرَءُونَ كِتابَهُ، فَلَبّسْتُ عَلَيكُم، فَلَمّا اطّلَعَ الشّيْخُ عَلَيَّ، عَلِمْتُ أنّه صِدّيقٌ». وصار الشّاب من كبار الصّوفية[4].

وتسعين ومائتين. وكان كبير الشأن، حسن المعاملة واللسان. انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 83/1.

(1) سورة الحجر : من الآية 29.

(2) سورة الحجر : الآية 29. أو سورة ص : من الآية 72. وهي بتمامها : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 389/2.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 393/2.

[التّوبة وآثارها]

وقوله : "وبات.." البيت؛ إِذَا جَاءَ نَهْرُ اللهِ بَطَلَ نَهْرُ مَعْقِلٍ[1]، فإذا أظلّت جنود الله وأولياؤه تشتّت شمل الكافرين، وانهزم أعداؤه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾[2]. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[3]. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾[4]. وكذا إذا وردت الأخلاق الحميدة – الّتي هي جند الله تعالى – على ضدّها الّتي هي جند إبليس، فإنّها تُصيّر إيوان إبليس منصدعاً، كما تُصيّر شمل أعوانه من الشّياطين – الّذين يُحرّضون على الأخلاق الذّميمة الموقعة في العصيان – غير ملتئم، وأوّل مبتدأ تلك الأخلاق التّوبة والإقلاع عن المعاصي، كما أنّ ظهوره – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أوّل الإيمان في ذلك الزّمان، فبالتّوبة يتكس إيوان كسرى، ويتبدّد شمل أصحابه، وتتطهّر أرض صاحبها – وهي قلبه – من الخبائث، كما تطهّرت الأرض من الكفر بمبعث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «التَّائِبِ مِنَ الذَّنْب كَمَنْ لاَ ذَنْب لَهُ»[5].

فالحمد لله الّذي جعل التّوبة تُطهّر من أدران المعاصي، كما تُطهّر النبوّة أدران الكفر. تاب الله علينا توبة صادقة كما يحبُّ ربّنا ويرضى بمنّه.

---

(1) هذا مثل.

(2) سورة محمّد : الآيتان 7 و8.

(3) سورة الإسراء : الآية 81.

(4) سورة الأنبياء : الآية 18.

(5) رواه ابن ماجه عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ مرفوعا في الزهد. بَاب ذِكْرِ التَّوْبَةِ. والحديث سنده ضعيف.

وقوله : "والنّار.." البيت؛ إذا صحّت التّوبة واستقامت، خَمَدت أنفاس نار النّفس الأمّارة، وسَهَت عين نهرها من الشّهوات الّتي كانت متوالية عليها كتوالي ماء النّهر، فلا يُرى لنار غضبها - الّذي كان - اضطرامٌ، ولا لماء خمرها - الّذي أَلِفت شربه - انسجام؛ حزناً منهما على إهمالهما، فتعود النّفس مرتاضة ذلولاً ساكنة مطمئنّة، بعد أنْ كان ركوبها لا يُستطاع؛ لجماحها بتلاطم أمواج بحرها، وبغِيض ماء بحرها الفيّاض من الشّهوات بقلعها عن مرادها كرهاً، ويسوءها ذلك حين تأتي ظامئة إلى ما أَلِفت من شهواتها لتَرِدَ منها كما اعتادت، فتُرَدّ بالغيظ لقهرها بالمنع من شهواتها، وتنحية أسباب المعاصي عن حضرتها، وذلك غِيض ماء بُحيرتها، كما ساء ساوة ما ذُكر. والإشارة بـ "ساوة" - المشبهة ما اشتُقّ من السّوء - إلى النّفس الأمّارة بالسّوء، فتصبح النّفس بعد التّوبة كأنّ بنار غضبها من البلل ما كان بنار شهوتها، وبماء شهوتها من الضَرم ما كان بنار غضبها؛ حزناً منهما على تبديل حالهما. وشياطين الجنّ يهتف بعضهم ببعض - إخبارا عن التّائب - : ألاَ إنَّ هذا قَد حُرِمتم مَرافقتَه، والاستكبار به. ثمّ أصبحت أنوار الله الّتي كسبها بسبب طاعته تسطع عليه، والحقّ يظهر من معناه ومن كلامه؛ لأنّ توبته صادقة، ولو كان مُرائياً، لما ظهر عليه شيء من ذلك، بل كان لم يزل متخبّطاً في ظلام عصيانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[1]. اللّهمّ تُب علينا توبةً صادقة، تسطع علينا أنوارها، وتذهب عنّا بها من المعاصي أغيارها، بمنّك وجودك، إنّك سميع الدّعاء.

---

(1) سورة التوبة : الآية 119.

عَموْا وَصَمُّوا فَإِعْلانُ البَشَائِرِ لَمْ تُسْـمَعْ وَبَارِقَـةُ الإِنْـذَارِ لَـمْ تُشَـمِ

مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ بِــأَنَّ دِيــنَهُمُ المُعْــوَجَّ لَـمْ يَقُـمِ

وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ مُنْقَضَةٍ وِفْقَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

حتّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِـنَ الشَّـيَاطِينِ يَقْفُـو إِثْـرَ مُنْهَـزِمِ

كَـــأَنَّهُمْ هَرَبـــاً أَبْطَـــالُ أَبْرَهَـــةٍ أَوْ عَسْكَرٌ بِالحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِي

نَبْـذاً بِــهِ بَعْــدَ تَسْـبِيحٍ بِبَطْنِهِمَــا نَبْذَ المُسَبِّحِ مِـنْ أَحْشَـاءِ مُلْتَقِمِ

شَرْحُ الْغَرِيْبِ

العَمَى : ذَهاب البصر، وعَمِيَ يَعْمَى عَمىً : ذَهَب بَصره. وعَمُوا للجماعة، أصله عَمِيُوا، استُثقِلت ضمّة الياء فحُذفت[1]، ثمّ حُذفت[2] لالتقائها ساكنة مع الواو، وكانت أولى بالحذف؛ لأنّ الواو ضمير الفاعل، وحُرّكت الميم بالضمّ لتصحّ الواو. ورجل أَعْمَى، ورجال عُمْيٌ وأَعْمِيَاء، وتَعَامَى : أَرَى ذلك من نفسه وليس به. وعَمِيَ عليه الأمر : التبس وجهل الصّواب. قيل : «وهو المراد هنا». وهو محتمل، إلاّ أنّ الظّاهر أنّه من ذي البصر مجازًا. ورجلٌ عَمِ القلب؛ أيْ جاهلٌ. وامرأةٌ

(1) أيْ الضمّة.

(2) أيْ الياء.

عَمِيَةٌ عن الصّواب، وعَمِيَةُ القلب على فَعِلَةٍ. وفيهم عَمِيَّتُهُمْ؛ أيْ جهلهم. والنّسبة إلى أَعْمَى أَعْمَوِيٌّ، وإلى عَمٍ عَمَوِيٌّ. والأعْمَيَانِ : السّيل والجمل الهائج. وعَمَّيتُ المعنى تَعْمِيَةً؛ ومنه المُعَمَّى من الشّعر. وقُرِئَ : ﴿فَعُمِّيَتْ﴾[1]. بالتّشديد. وقولهم : ما أعْماهُ؛ أيْ ما أَعْمَى قلبه للكثير الضّلال، لا لمن لا يبصر بعينه؛ لأنَّ ما لا يَتَزَيَّدُ، لا يُتَعَجَّب منه[2].

وصَمَّ الرّجل صَمَمًا؛ إذا لم يسمع، ويُتجوّز به فيمن لم ينتفع بسمعه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾[3]. وأصل صَمُّوا صَمِمُوا؛ كَفَرِحُوا، ثمّ أُدغِم لاجتماع المِثلين. ورجلٌ أَصَمُّ : بيّن الصَمَمِ. ورجب الأَصَمّ؛ لأنّه لا يُسْمَع فيه صوت مُستغيث ولا حركةُ قتال ولا قعقعةُ سلاح؛ لأنَّه شهر حرام. وصَمَامِ صَمَامِ : تصامُّوا في السّكوت. وأَصَمَّهُ الله فصَمَّ. وأَصَمَّ أيضاً بمعنى صَمَّ. وقول الكميت : ..تُسائِلُ مَا أَصَمَّ عَن السُّؤَالِ[4]؛ أيْ : شيئاً قد صَمَّ عنه. وأَصْمَمْتُهُ : وجدته أَصَمَّ. وتَصَامَّ : أَرَى من نفسه الصَّمَم وليس به. وصَمَّتْ حصاةٌ بدَمٍ؛ أيْ كثرة الدّماء فلا يُسمعُ لحصاة فيها وقعٌ؛ لأنّها لا تقع على الأرض. وهذا أراد امرؤ القيس بقوله : صَمِّي ابنةَ الجَبَلِ[5]. وقيل : أراد الصّدى. ﴿فَعَمُوا

(1) سورة هود : من الآية 28. وهذه قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف، وأمّا الباقون فقرأوها بالتّخفيف. انظر المبسوط في القراآت العشر. النيسابوري : ص 238.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2439/6. مادة عمى.

(3) سورة البقرة : من الآية 18.

(4) صدره : أشيخًا كالوَلِيدِ بِرَسْمِ دَارٍ. انظر لسان العرب. ابن منظور : 351/9.

(5) البيت بتمامه : بُدِّلْتُ من وَائِلٍ وَكِنْدَةَ عَدْ وانَ وفَهْمًا صَمِّي ابنَةَ الجَبَلِ
انظر ديوانه : ص 146.

وَصَمُّوا﴾[1]. بفتح العين والصّاد، وقرأهما الأعمش وابنُ وَثَّاب والنّخعي بالضمّ[2].

الإِعْلاَنُ : الإظهار. أعْلَنْتُ الأمر إعلاناً : أظهرته. والعَلانِيَةُ : خلاف السرّ. وعَلَنَ الأمرُ يَعْلُنُ عُلوناً. وعَلِنَ – بالكسر – يَعْلَنُ عَلَناً. حكاه ابن السكّيت. والعِلانُ : المُعالَنَةُ. ورجلٌ عُلَنَةٌ : يبوح بسرِّه. وعُلْوَان الكِتاب : عُنْوَانُه. وعَلْوَنْتُهُ؛ أيْ عَنْوَنْتُهُ[3].

والبَشَائِرُ : جمع بِشارة بالكسر والضمّ، وهي الاسْم، وبَشَرْتُ الرّجلَ أَبْشُرُهُ – بالضمّ – بَشْراً وبُشوراً، من البُشرى. وكذا الإِبْشارُ والتَبْشِيرُ، ثلاثُ لغاتٍ. وبَشَرْتُهُ بمولودٍ فأَبْشَرَ إِبْشَاراً؛ أيْ سُرَّ. وأَبْشِرْ بخَيرٍ، بقطعِ الألف. ومنه : ﴿وَأَبْشِـرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ﴾[4]. وبَشِرْتُ بكذا –

---

(1) سورة المائدة : من الآية 71.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1967/5. مادة صمم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2165/6. مادة علن.

والأعمش هو سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، (61 – 148هـ = 681 – 765م). تابعي، مشهور. أصله من بلاد الريّ، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض. انظر الأعلام. الزركلي: 135/3.

وابن وثاب هو يحيى بن وثاب الأسدي بالولاء، الكوفي (.. – 103 هـ = .. – 721 م) إمام أهل الكوفة في القرآن. تابعي ثقة. قليل الحديث. من أكابر القراء. انظر الأعلام. الزركلي: 176/8.

والنخعي هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبوعمران، من مذحج (46 – 96هـ = 666 – 815م) من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظاً للحديث. من أهل الكوفة. مات مختفياً من الحجاج. انظر الأعلام. الزركلي: 80/1.

(4) سورة فصلت : من الآية 30.

بالكسر - أَبْشَرُ؛ أيْ اسْتَبْشَرْتُ. وبَشِرْتُ به : سُرِرْتُ به. وألف بُشْرَى للتأنيث. وبَشَرَاي؛ كَعَصَاي، وفي التّثنية بَشرِتَيْ. والبِشارَةُ المطلقة : الخَير، ولا تكون بالشرّ إلاّ بتقييد؛ نحو : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. وتَباشَروا : بَشَّرَ بعضُهم بعضاً. والتَباشِيرُ : البُشْرى. وتَباشِيرُ الصّبح : أوائلُه، وكذا أوائلُ كلِّ شيء، ولا يكون منه فعل. والبَشيرُ : المُبَشِّرُ. والمُبَشِّراتِ : الرّياحُ المبشّرة بالغَيْث[2].

وتُسْمَعْ : من السَّمْع، ويكون واحداً وجمعاً، ومنه : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾[3]؛ لأنّه في الأصل مصدر سَمِعْتُ الشّيء سَمْعاً وسَمَاعاً. وقد يُجمع على أَسْمَاعٍ، ثمّ أَسْمَاعٌ على أَسَامِعَ. وسَمْعَكَ إليَّ؛ أيْ اسْمَعْ منّي. وسَمَاعِ؛ أيْ اسْمَعْ. ورياءً وسُمْعَةً : ليرى النّاس ويسمعون. واسْتَمَعْتُ له، واسَّمَّعْتُ بالإدغام، وتَسَمَّعْتُ؛ أيْ أصغيتُ إليه. وتَسَمَّعْتُ، وسَمِعْتُ إليه وله بمعنىً. وتَسامَعَ به النّاسُ. وأَسْمَعَهُ الحديثَ، وسَمَّعَهُ : شتمه. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[4]؛ أيْ لا سَمِعْت؛ قاله الأخفش. "وَأَسْمِعْ بِهِ"؛ أيْ ما أَسْمَعَهُ. والمُسْمِعَةُ : المغنِّيَةُ. والسِمْعُ بالكسر : الذّكرُ الجميلُ[5]. وفروع المادة كثيرة.

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 21.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 590/2. مادة بشر.

(3) سورة البقرة : من الآية 7.

(4) سورة النساء : من الآية 46.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1231/3. مادة سمع.

بَرَقَت السّماء : فهي بَارِقَة، وأَبْرَقَت أيضاً، ونشأت سحابة بَارِقَة : جاءت ببَرْق. ويُتجوَّز به للسّيف، فيُقال : بيده بَارِقَة. و : «**الجَنَّةُ تَحْتَ البَارِقَةِ**»[1]؛ أيْ تحت السّيوف. ومنه بَارِقَة الإنذار. وبَرَقَ السّيف وغيره يَبْرُقُ بُرُوقاً : تلألأ. والاسمُ البَريقُ. وبَرَقَتْ السّماء بَرَقَاناً : لَمَعَتْ. وأَبْرَقَ الرّجلُ : لَمَعَ بسيفه. وأمّا رَعَدَ الرّجل وبَرَقَ فمعناه تهدَّدَ. ورَعَدَتِ المرأة وبَرَقَتْ : تَزيَّنَتْ. وممّا يقرب من المادة البَرِيقَةُ : للّبن يُصَب عليه إهالةٌ أو سمنٌ قليلٌ، والجمع البَرائِقُ. وابرُقُوا الماءَ بزيتٍ؛ أيْ صُبُّوا عليه زيتاً قليلاً. وبَرَقوا طعاماً بزيتٍ أو سمن بَرْقاً. وهي التَّباريقُ، وهو شيءٌ منه قليل ليُسَغْسِغُوه؛ أيْ لم يكثروا دُهْنَهُ[2].

وشِمْتُ البرق – بوزن بِعْت –؛ إذا نظرتَ إلى سحابته أين تُمطِر. وشِمْتُ السّيفَ : أغمدته[3]. وهذا هو المراد هنا؛ أيْ بارقة الإنذار المشبّه بالسّيوف البَارِقة لم تُغمَد، ولم تُوضَع عن رؤوسهم بعدُ.

وقيل : «"لم تُشَم"؛ أيْ لم يَلتفِت إليها، ولا نَظر».

وحُكي عن أبي منصور[4] : «النّظر عامٌ، والشَّيم للبرق خاصّة»[5].

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ مرفوعا : 247/5. رقم الحديث : 9513.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1448/4. مادة برق.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1963/5. مادة شيم.

(4) هو أبو منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر، وسبقت ترجمته.

(5) انظر كتابه فقه اللغة وسر العربية : ص 213.

وشِمْتُ السّيف أيضاً : سَلَلْتُهُ. فهو من الأضداد. وشِمْتُ مخايلَ الشّيء : تطلّعتَ نحوها منتظراً له. وانْشامَ الرّجلُ؛ إذا صار منظوراً إليه[1].

والخبَر : بالتّحريك واحد الأخبار، وأَخْبَرْتُهُ به وخَبَّرْتُهُ بمعنىً. والاستِخْبارُ والتَخَبُّرُ : السّؤال عن الخَبَر. ومِن أين خَبَرْتَ هذا؟ أيْ علمت. والاسم الخُبْرُ بالضمّ؛ وهو العِلم بالشّيء، والخَبِيرُ : العالم. ولأَخْبُرَنَّ خُبْرَكَ؛ أيْ لأعلمنَّ عِلمك. وخَبَرْتُهُ أَخْبُرُهُ خُبْراً بالضمّ، وخِبْرَةً بالكسر؛ أيْ اخْتَبَرْتَه. يُقال : صدّقَ الخَبَرَ الخُبْرَ[2].

والكَاهِن : الّذي يدّعي عِلم الغيب. وقيل : «الّذي له صاحب من الجنّ؛ يُخبره ببعض الكائنات». وقال الجوهري : «الكاهِنُ معروف، والجمع الكُهَّانُ والكَهَنَةُ. وكَهَنَ يَكْهُنُ كِهَانَةً؛ ككَتَب يكتُب كِتابة؛ إذا تَكَهَّنَ. فإذا أردتَ صار كَاهِناً قلتَ : كَهُنَ بالضمّ، كَهَانَةً بالفتح. والكَاهِنَان : حيّان[3]»[4].

والدِّين : الملّة والطّاعة، والجمع الأدْيانُ. وقيل : «الدِّين : الطّريقة الملتزَمة من عَقْد وقول وعمل». ودانَ بكذا دِيانَةً وتَدَيَّنَ به، فهو دَيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ. ودَيَّنْتُ الرّجل تَدْييناً؛ إذا وكَلْتَهُ إلى دينه؛ وقوله[5] :

لاهِ ابْنُ عَمِّكَ لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ عَنِّي ولا أنت دَيَّاني فَتَخْزوني

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1963/5. مادة شيم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 641/2. مادة خبر.

(3) وهما بنو قريظة، والنضير، نسبة لجدهم الكاهن بن هارون.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2191/6. مادة كهن.

(5) أيْ قول ذي الإصبع. انظر الصحاح. الجوهري : 5/ 2119.

قال ابن السكيت : «أيْ لا أنت مالِكي فتسُوسَني»[1]. ودَانَ له؛ أيْ أطاعه. ويحتمل أنْ يكون الدِّين من دَانَهُ دِيناً؛ أيْ أذلَّه واستعبده. يُقال : دِنْتُهُ فَدَانَ؛ وفي الحديث : «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ**»[2].

اعْوَجَّ الشّيء فهو مُعْوَجّ، أصله مُعْوَجَجٌ؛ أيْ صار ذا عَوَج ، والعِوَج بكسر العين في المعاني، وبالفتح في غيرها.

وقال الجوهري : «العَوَج، بالتّحريك : مصدر عَوِج – بالكسر – فهو أعْوَجُ. والاسم العِوَجُ بكسر العين.

قال ابن السكيت : ما انتصب كالحائط والعُود؛ قيل فيه عَوَجٌ بالفتح، وبالكسر ما كان في أرضٍ أو دِينٍ أو مَعاشٍ؛ يُقال : في دِينِهِ عِوَجٌ. واعْوَجَّ الشّيء اعْوِجَاجاً. يُقال : عصا مُعْوَجَّةٌ؛ ولا تكسر الميم. وعوَّجتُ الشّيء فتَعَوَّج»[3].

ولم يَقُم : قيل : إنّه من قَام الأمرُ؛ أيْ دَام. وأَقَامَه الله : أَدَامه؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[4]. ومنه أَقَامَ بالمكان إِقَامَةً. والهاء عوض من عَين الفعل؛ لأنّ أصله إِقْوَاماً. وقد تقدّم. ومَقَامٌ بالفتح والضمّ؛ إمّا

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2117/5. مادة دين.

(2) سبق تخريجه.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 331/1. مادة عوج.

(4) سورة البقرة : من الآية 3.

المكان أو المصدر، وقُرِئ : ﴿لاَ مُقَامَ لَكُمْ﴾[1]؛ بالفتح للموضع، وبالضمّ للمصدر، و : ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2]؛ أيْ موضعًا[3].

قلتُ : ويحتمل أنْ يكون من مَقَام الرّجل قِيَاماً؛ وهو انتصاب القَامة، تُجوّز به هنا للاعتدال؛ لأنّ المُعوجّ ضدّ المُستقيم. وقيل معنى لم يَقُم : لم يثبت. وقَامَت الدّابة : وقفت، أو مِن قَامَت السّوق : إذا نَفَقَت.

والاسْتِقَامَةُ : الاعتدالُ. يُقال : اسْتَقامَ له الأمر. ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[4]؛ أيْ في التوجُّه إليه دون غيره. وقَوَّمْتُ الشّيء فهو قَوِيمٌ؛ أيْ مُستَقيمٌ. وما أقْوَمَهُ، شاذٌّ. و : ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[5]؛ أُنِّث بمعنى الملّة. والقَوَامُ : العَدْلُ. ومنه : ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[6]. وقَوَامُ الرّجل وقُومِيَّتُه: قَامَتُهُ وحُسْن طوله. وقِوامُ الأمر بالكسر : نظامه وعِماده وملاكه الّذي يقوم به. يُقال : فلانٌ قِوامُ أهل بيته وقِيامُهم : للّذي يُقيم شأنهم؛ ومنه : ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾[7] [8]. والفروع كثيرة.

---

(1) سورة الأحزاب : من الآية 13. روى حفص عن عاصم الضمّ، وروى الباقون الفتح. انظر المبسوط في القرآت العشر. النيسابوري : ص 356.

(2) سورة الفرقان : من الآية 66.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2016/5. مادة قوم.

(4) سورة فصلت : من الآية 6.

(5) سورة البينة : من الآية 5.

(6) سورة الفرقان : من الآية 67.

(7) سورة النّساء : من الآية 5.

(8) انظر الصحاح. الجوهري : 2016/5. مادة قوم.

وعَايَنْتُ الشّيء عِيَانًا : إذا رأيته بعينك، و : "لقيته عَيْنَ عُنَّةٍ"؛ إذا رأيته عِيَاناً[1]. هو لك عبدُ عَيْنٍ : أيْ كالعبد لك ما دُمت تراه، فإنْ غبتَ فلا[2]. وفروع المادة متّسعة.

الأُفُق : النّاحية بسكون الفاء وضمّها؛ ومنه : أُفُقُ السّماء. وهو المراد هنا، وجمعه آفَاق. ورجلٌ أَفَقيٌّ بفتح الهمزة والفاء، إذا كان من آفاقِ الأرض. ويُقال بضمّها، وهو القياس[3].

والشُّهُب : جمع شِهَاب، وهي شُعْلَةُ نارٍ ساطعةٌ.

والمراد هنا : النّجوم الّتي تقذف الشّياطين عند استراق السّمع من الملائكة؛ من قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[4].

وفلان شِهاب حربٍ : للماضي فيها. ويُجمع أيضاً شُهْبانٌ؛ كحِسَاب وحُسْبان[5].

مُنَقَضَّة : أصله مُنْقَضِضَةٌ؛ اسم فاعل من انقَضَّ الطّائر؛ أيْ هوى في طيرانه، ومنه انْقِضَاض الشُّهب، قال بِشْر بن أبي خازم[6] :

---

(1) في الصحاح للجوهري : رأيته عِياناً ولم يَرَكَ.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2170/6. مادة عين.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1446/4. مادة أفق.

(4) سورة الصافات : من الآية 10.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 159/1. مادة شهب.

(6) هو بشر بن (أبي خازم) عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل (.. - نحو 22 ق هـ= .. - نحو 598م). شاعر جاهلي فحل. من الشجعان. من أهل نجد. له قصائد في الفخر والحماسة جيدة. توفي قتيلا في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية. انظر الأعلام. الزركلي : 54/2.

والعيرُ يُرْهِقُها الغبَار[1] وجَحْشُها   ينقضُّ خلْفهُما انْقِضَاض الكَوْكَبِ

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي[2] :

فانقضّ كالدِّرِّيّ يتبعُه   نَقعٌ يثورُ تَخالُهُ طُنُبا

ولم يستعملوا منه "تفَعَّلَ" إلاّ مُبدلاً، قالوا : تَقَضِّي، فاستثقلوا ثلاث ضادات، فأبدلوا من إحداهن ياءً، كما قالوا : تَظَنِّيَ من الظنّ. قال العجّاج :

تَقَضِّيَ الْبَازِي؛ إذا الْبَازِي كَسَرْ   ....[3].

وقَضَضْنا عليهم الخيل، فانْقَضَّتْ عليهم. وانْقَضَّ الحائطُ : سقط[4].

والوِفْقُ : من المُوَافقَة؛ أيْ انقضَّت الشُّهب مُوَافِقَة جهة ما في الأرض من صنم؛ أيْ انقَضَّت نحو الصّنم. وقيل معناه : «وافق حال

وانظر البيت في كتاب الحيوان. الجاحظ : 461/6.

(1) ويروى : الخبار. ويروى أيضاً : الحمار.

(2) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح (98 - نحو 2 ق هـ = 530 - نحو 620م) شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائها. كان كثير الأسفار. عمّر طويلا، ولم يدرك الإسلام. في شعره حكمة ورقة، وكانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب. وكان غزلا مغرما بالنساء. انظر الأعلام. الزركلي : 31/2.

الدري : الكوكب المنقض يدرأ على الشيطان. النقع : الغبار الساطع. تخاله طنبا : يريد : تخاله فسطاطا مضروبا. وانظر البيت في كتاب الحيوان. الجاحظ : 458/6.

(3) البيت الشعري بتمامه : تَقَضِّيَ البازِي إذا البازِي كَسَرْ   أَبْصَرَ خِرْبانَ فَضاءٍ فَانْكَدَرْ
انظر لسان العرب. ابن منظور :518/4.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1102/3. مادة قضض.

انقِضَاض الشُّهب حال انتكاس الأصنام». وقيل : «وِفْقُ الشّيء مِثله، ومعنى وِفْقها؛ أيْ مُوَافقَتها». انتهى.

والوَفْقُ من المُوافقةِ بين الشّيئين؛ كالالتحام. يقال : حَلوبَتُهُ وَفْقُ عِياله؛ أيْ لها لبنٌ قَدْرُ كفايتهم، لا فضلَ فيه. وأتيتك لوَفْقِ الأمرِ، وتَوْفاقِ الأمرِ، وتِيفاقِهِ. قال الأحمر[1] : كان ذلك لميفاقِ الهلالِ، وتيفاقِهِ، وتَوْفاقِهِ؛ أيْ حين أُهِلَّ الهلالُ[2].

الصَّنَم : ما كان مصوّرا، والوَثَن : ما كان غير مُصوّر[3]. وقيل : «الصَّنم؛ ما كان من حجر وغيره، والوَثَن؛ ما كان مِن غَير حَجَر كالنّحاس». وقيل : «هما بِمَعنًى واحد»[4].

وقال الجوهري : «هو وَاحِدُ الأَصْنَامِ، يُقال : إنّه مُعرب شَمَن، وهو الوَثَن»[5].

غَدَا إلى كذا؛ أيْ سار غُدْوَة. وغَدَا عن ذلك؛ بمعنى ذهب. وغَدَا يَغْدو غُدُوًّا : نقيض الرّواح. وقوله تعالى : ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾[6]؛ أيْ بالغَدَواتِ، فعبَّر بالفعل عن الوقت؛ كآتيتك طلوع الشّمس؛ أيْ وقته. وغَادَاهُ : غَدَا

---

(1) هو خلف بن حيان، أبو محرز، المعروف بالأحمر (.. - نحو 180هـ= .. - نحو 796م). راوية، عالم بالأدب، شاعر، من أهل البصرة. كان أبواه موليين من فرغانة، أعتقهما بلال بن أبي موسى الأشعري. انظر الأعلام. الزركلي : 310/2.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1567/4. مادة وفق.

(3) حكاه ابن منظور عن ابن عرفة.

(4) انظر الفرق بينهما في لسان العرب. ابن منظور : 349/12.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1969/5. مادة صنم.

(6) سورة الأعراف : من الآية 205.

عليه. والغَادِيَةُ : سحابةٌ تنشأ صباحاً. والاغتِداءُ : الغُدُوُّ. وأصل الغَدْ غَدْو؛ حُذفت واوه بلا عوض؛ قال لبيد[1]:

وما النَّاسُ إلاّ كالدِّيارِ وأَهْلِها　　　بها يومَ حَلُّوها وغَدْواً بَلاقِعُ

والنّسبة إليه غَدِيٌّ، وغَدَوِيٌّ. والغُدْوَةُ : ما بين صلاة الغَدَاة وطلوع الشّمس. والجمع غُدًا. وآتيك غَدَاة غَدٍ. وبالغَدَايَا والعَشَايَا؛ لازدواج الكلام. ولو لا هذا لقيل : الغدَاوِي[2].

والطَّرِيق : السّبيلُ، يُذكَّر ويُؤنَّثُ؛ الطَرِيقُ الأعظم، والطَرِيقُ العُظمى، والجمع أَطْرِقَةٌ وطُرُقٌ. ويحتمل أنْ يكون من طَرِيقَةُ الرّجل؛ أيْ مَذهبه؛ يُقال : ما زال فلانٌ على طَرِيقَةٍ واحدةٍ؛ أيْ على حالةٍ واحدةٍ[3].

والوَحْيُ : الكلام الخفيّ، والكتاب، وجمعه وُحِيٌّ؛ كحُلَى وحُلِيّ. والإشارة أيضاً، والكتابة، والرّسالة، والإلهام، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. ولذا فسّر بعضهم الوحي بالإلقاء في خفاء، يُقال : وَحَيْتُ إليه الكلامَ، وأوْحَيْتُ إليه الكلامَ؛ وهو أنْ تكلِّمه بكلامٍ تُخْفِيه. ووحَى الله إلى أنبيائه. وأوْحى : أشار. ووَحَيْتُ بخبرِ كذا[4] : أشرتُ.

---

(1) هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري (.. - 41هـ= .. - 661م). أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه سلم، وهو من المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلاّ بيتاً واحدًا. انظر الأعلام. الزركلي : 240/5.

بلاقع : أي قفار. انظر البيت في الصحاح. الجوهري : 2444/6. .

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2444/6. مادة غدا.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1513/4. مادة طرق.

(4) كذا في جميع النسخ الخطية، وفي الصحاح للجوهري : وَوَحَيْتُ إليهِ بِخَبَرِ كذا.

والوَحَى والوَحَاة : الصّوتُ. سمعتُ وَحَاةَ الرَّعْدِ؛ لصوته الممدود الخفيّ. والرَّعد يَحَى وَحاةً[1].

مُنْهَزِم : من انهزم العدوّ؛ أيْ ذهب لوجهه وتفرّق، وهَزَمْتُ الجيش هَزْماً وهَزيمَةً، فانْهَزَموا. والهَزْمَةُ : النُقْرَةُ في الصّدر، وفي التفَّاحة؛ إذا غمزتها بيدك ونحو ذلك. وهَزْمُ الضَريع : ما تكسَّر منه. والتَهَزُّمُ : التّكسُّر. وتَهَزَّمَ السِقاءُ، إذا يبِس فتكسَّر. واهْتِزامُ الفرَس : صوت جَرْيِه. وتَهَزُّم البناء : تهدّم[2].

وقيل : «مُنْهَزِم؛ موال؛ أيْ مَرميّ بمهماز، وهي الشّهاب».

يَقْفُو : من قَفَوْتُ أثره أقفُوه قَفْواً وقُفُوًّا : اتَّبعته. وقَفَيْتُ على أثره بفلان؛ أيْ أَتْبَعته إيَّاه[3]. ومنه : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم ﴾[4]. ومنه الكلام المُقَفّى، وقَوَافِي الشِّعر؛ لأنَّ بعضها يتبع أثر البعض.

والإِثْر بكسر الهمزة وسكون الثّاء وبفتحهما : ما بقي من رسم الشّيء وضربة السّيف، تقول : خرجْت في إِثْرِهِ وأَثَرِهِ. وسُنَنُ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : آثارُهُ. وبكسر الهمزة وسكون الثّاء : خُلاصة السَمْن. وبضمّ الهمزة وتسكين الثّاء : أُثْر الجَرح. وقد تُنقل كعُسْر وعُسُر. وبفتح الهمزة وسكون الثّاء مصدر أَثَرْتُ الحديثَ أَثْرَة؛ إذا ذكرْتَه عن غيرك. ومنه : حديثٌ مَأْثُورٌ؛ ينقلُه خَلَفٌ عن سلفٍ. وقول عمر – رضي الله عنه

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2519/6. مادة وحى.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2058/5. مادة هزم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1419/4. مادة قوف.

(4) سورة الحديد : من الآية 27.

- في الحَلْف بالآباء : «مَا حَلَفْتُ بِهِ ذَاكِرًا..»[1]؛ أيْ من تلقاء نفسي، لا من ضدّ النّسيان، «وَلاَ آثِرًا»؛ أيْ حاكيًا عن غيري. وأَثَارَةٌ من عِلمٍ وأَثَرَةٌ بالتّحريك : بقيّة منه. وسَمِنت الابل على أَثَارَة؛ أيْ بقية شحم ولا أَثَرًا كان قبل ذلك. والتّأْثير : إبقاء الأَثَر في الشّيء[2].

والهَرَبُ : الفِرارُ[3]. وقال غير الجوهري : «الفِرارُ سَرِيعًا».

وقيل : «المُراد به هنا جَمع هَارِب».

وهَرَب وهَرَّبَهُ غيره تَهْرِيباً. وأَهْرَب الرّجل : جدَّ في الذَهاب مذعوراً. وما له هَارِب ولا قَارِب؛ أيْ صادرٌ عن الماء ولا واردٌ[4]؛ أيْ ليس شيء[5].

والأبطالُ : جمع بَطَل، وهو الشّجاعُ، والمرأة بَطَلَةٌ. وبَطُلَ الرّجل - بالضمّ - يَبْطُلُ بُطولَةً وبَطَالَةً : صار شُجاعاً. وبَطَلَ الأجيرُ - بالفتح - بَطالَةً : تَعَطَّلَ، فهو بَطَّالٌ[6].

أَبْرَهَة : هو صاحب الفيل الّذي جاء يهدم الكعبة، ومعنى أَبْرَهة بالحبشيّة : أبيض الوجه، ويُقال له الأَشْرَم وأبو يَكْسوم.

---

(1) رواه البخاري في الأيمان والنذور. بَاب لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ. ورواه غيره.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 574/2. مادة أثر.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 237/1. مادة هرب.

(4) أيْ من الإبل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 237/1. مادة هرب.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 1635/4. مادة بطل.

وقال الجوهري : «وأَبْرَهَة، من ملوك اليمن، وهو أَبْرَهَة ابن الحارث الرَّائش، الّذي يقال له ذو المَنَار. وأَبْرَهةُ بن الصّباح أيضاً من ملوك اليمن، وهو أبو يَكْسُوم صاحب الفيل، وقال[1] :

مَنَعْتَ مِنْ أَبْرَهةَ الحَطِيما   وكُنْتَ فيما ساءَهُ زَعِيما»[2]

العَسْكَر : تقدّم.

الحَصَى : جمع حَصَاة؛ وهي حجارة صغار صلبة، وتجمع حَصَيات. وحَصَاةُ المِسك: قطعةٌ صُلبةٌ توجد في فأرة المسك. وفلان ذو حَصَاةٍ؛ أيْ ذو عقلٍ ولُبٍّ. وأرضٌ مَحْصَاةٌ؛ أيْ ذاتُ حَصىً[3].

ورَاحَتَيْهِ : تثنية رَاحَة؛ وهي الكفّ، وجمعها رَاحَاتٌ ورَاحٌ[4].

وقيل[5] : «الرَاحَتان بطون الكفّين». والّذي نصّ عليه أهل اللّغة أنّ الرّاحة الكفّ. فانظر هل بينهما فرق[6]. وانظره مع قول النّاظم بعدُ : "بِبَطْنِهما"، فإنّ فيه تكرارًا على هذا التّفسير. لأنّه من إيقاع الظّاهر موقع المُضمر. قال : «وسُمّي بطن الكفّ راحة؛ لانبساطها».

والرَّاحُ أيضاً : الخمر والارتياح[7].

---

(1) أنشده الجوهري ولم يبين قائله.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2227/6. مادة بره.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2315/6. مادة حصا.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 367/1. مادة روح.

(5) رجح ذلك ابن سيده. انظر كتابه المحكم والمحيط الأعظم : 513/3.

(6) لعل الفرق بينهما : أنّ الراحة بمعنى بطن الكف لا تشمل الأصابع ولا ظهر الكف.

(7) انظر الصحاح. الجوهري : 367/1. مادة روح.

ورَمَيْتُ الشّيء : ألقيته فارْتَمَى. ورَمَيْتُ بالسّهم رِمَايَةً ورَمْياً. وراَمَيْتُهُ مُراماةً، وارْتَمَيْنا وتَرامَيْنا. وكانت بينهم رِمِّيّاً ثمّ صاروا إلى حِجَيزَى. ورَمَيْتُ عن القوس وعليها، ولا تقل بها. وخرجت أَتَرَمَّى؛ أيْ على الأغراض وفي أصول الشّجر. وأَرْتَمِي؛ إذا رَمَيْتَ القَنْصَ. وتقول للمرأةِ ولجماعتها : تَرْمِينَ. وأَرْمَيْتُ الحجر من يدي : أَلْقَيْتُه[1].

ونَبَذْتُ الشّيء : أَنْبِذُهُ نَبْذًا؛ إذا ألقيته من يدك. ونَبَّذْتَهُ، شدّد للكثرة. والمَنْبُوذُ : الصبيُّ تلقيه أمُّه في الطّريق[2]. قيل : «والنَّبْذُ الرّمي من اليد، واللَّفْظُ من الفم، والنَّفْثُ من الصّدر».

التّسْبِيحُ : قولك سُبْحَانَ اللهِ؛ أيْ براءته وتنزيهه من كلّ نَقْص، والتَّسْبِيح : التّنزيه.

وسُبْحانَ الله؛ قال الجوهري : «معناه التّنزيه لله، نُصب على المصدر؛ كأنَّه قال : أُبرّئُ الله من السُّوءِ بَراءةً. والعرب تقول : سُبْحان مِنْ كذا، إذا تعجّبت منه. قال الأعشى :

أَقُــولُ لَمَّــا جــاءَني فَخْــرُهُ   سُبْحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفـاخِرِ

وسُبُحَات وَجْه ربّنا بضمّ السّين والباء : جلالته. وسُبُّوحٌ : من صفات الله تعالى. قال ثعلب : كل اسم على "فَعُّول" فهو مفتوح الأوّل، إلاّ السُّبُّوح والقُدُّوس، فضمّهما أكثر. وكذلك الذّرُّوح»[3].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2362/6. مادة رمى.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 571/2. مادة نبذ.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 372/1. مادة سبح.

قال الجوهري : «وقال سيبويه : ليس في الكلام "فُعُّول" بواحدة»[1].

والبَطْنُ : خلاف الظَّهر، وهو مذكّر. وحكى أبو حاتم[2] عن أبي عبيدة أنَّ تأنيثه لغة. وجمعه بُطْنانٌ. وهو جمع البَطْنِ؛ أيْ الغامض من الأرض. وبَطْنانُ الجَنَّةِ : وسَطُها. وبَطَنْتُهُ: ضربتُ بَطْنَهُ. وقيل : بَطَنَهُ، وبَطَنَ له؛ كشَكَرَهُ وشَكَرَ له. وبُطِنَ الرّجل، مبني للمفعول: اشتكى بَطْنَهُ. وبَطِنَ - بالكسر - يَبْطِنُ بَطَناً : عَظُمَ بَطْنُهُ من الشّبع. وابْتَطَنْتُ النّاقةَ عشرة أَبْطُنٍ؛ أيْ نَتَجتُها عشرَ مرات. والبِطْنَةُ : الكِظَّةُ؛ أنْ تمتلئ من الطّعام امتلاءً شديداً. يُقال : ليس للبِطْنَةِ خيرٌ من خَمْصةٍ تتبعها. والبَطِن : الّذي لا يُهِمُّه إلاّ بَطْنُهُ. والمَبْطونُ : العليلُ البَطْنِ. والمِبْطانُ : الّذي لا يزال عظيمَ البَطْنِ من كثرة الأكل. والمُبَطَّنُ : الضّامرُ البَطْنِ. والمرأةُ مُبَطَّنَةٌ. والبَطينُ العظيم البَطْنِ[3].

والمُسَبِّحُ هنا هو يونس عليه السّلام؛ لقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 372/1. مادة سبح.

(2) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (..- 248هـ=..- 862م). من كبار العلماء باللغة والشعر. من أهل البصرة كان المبرد يلازم القراءة عليه. له نيف وثلاثون كتاباً، وله شعر جيد. انظر الأعلام. الزركلي : 143/3.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2079/5. مادة بطن.

(4) سورة الصافات : الآية 143.

والأَحْشَاءُ : جمع حَشَا : وهو ما انضمّت عليه الضّلوع، وحُشْوَةُ البطن بالضمّ والكسر: أمعاؤه. ومن هذا حَشَوْتُ الوسادة وغيرها حَشْوًا. والحائض تَحْتَشِي بالكُرسف لتحبس الدّم[1].

والمُلْتَقِم : الحُوت الّذي التقم يونس عليه السّلام؛ لقوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ ﴾[2].

والتَقَمْتُ اللُقْمَةَ؛ إذا ابتلعتها. ولَقِمْتُها – بالكسر - لَقْماً وتَلَقَّمْتُها؛ إذا ابتلعتُها في مُهلة. ولقمتُ غيري تَلْقيماً. وأَلْقَمْتُهُ حجراً. ورجلٌ تِلْقامَةٌ؛ أيْ كثير اللُقَم[3].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2313/6. مادة حشا.

(2) سورة الصافات : من الآية 142.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2031/5. مادة لقم.

التَّفْسِيْرُ

[العناد أساس الكفر]

يقول : إنّ الكفار الّذين لم يؤمنوا به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من بعد ما رأوا من آيات مولده - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومبعثه القاطعة، وما شاهدوا من أنوارها السّاطعة، وهم إمّا الفُرْس أو قريش - وهو الأظهر - أو اليهود أو كلّ من تحقّق خبره من الكفّار، ولم يؤمن به، عَمُوا؛ أيْ هم كالعُمْي في كونهم لم ينتفعوا بما شاهدوا من معجزاته؛ لأنّ ثمرة الإبصار الجَرْي على شاكلة المُبصَر. وصَمُّوا؛ أيْ هم كالصُمّ في كونهم لم ينتفعوا بما تواتر عندهم من آياته، والتّواتر يقوم مقام المعاينة في إفادة العِلم؛ لأنّ العِلم الحاصل به من الضّروريات، وكأنّه قسّمهم إلى من حضر وشاهد، إلاّ أنّه لم يُقِر بمقتضى ما رأى، وهؤلاء الّذين أخبر عنهم أنّهم عموا، وإلى من لم يحضر، لكن تواترت عنده الأخبار، فلم يصدّق، وهؤلاء هم الّذين أخبر عنهم أنّهم صَمُّوا، فكأنّ الحاضرين لم يروا، والغائبين لم يسمعوا. ويحتمل أنْ يكون الوصفان لمن حضر وحده، أو لمن غاب خاصّة، وهو أبلغ؛ أيْ أنّه ينزل منزلة الأعمى والأصمّ، الّذي لا يتوصّل إليه العِلم؛ لا من طريق البصر، ولا من طريق السّمع؛ كقوله تعالى : ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ ﴾[1]. و : ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ .. ﴾ الآية[2].

---

(1) سورة البقرة : من الآية 18.

(2) سورة هود : من الآية 24. والآية بتمامها : ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله : "فإعْلاَنُ البَشَائِرِ.." إلى آخره؛ أيْ يلزم من صَمَمهم أنّ ما ثبت من إعلان البشائر؛ أيْ إظهار الإخبار بالأمور الّتي تبشّر بصحّة رسالة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإشاعتها؛ كسطوع الأنوار، وإخبار الكهّان، وهَتْف الجانّ وما ذُكر معها، كأنّ الغائب لم يسمع تلك الأخبار، كما لزم من عَمَاهم أنّ ما ظهر من بارق الإنذار؛ أيْ ما لاح لهم ممّا أَنذرهم بانقضاء دولة الكفر وإذلال أهله، الّذي هو شبيه بإشهار السّيف لضرب من لم يدخل في الطّاعة، وكالبرق المنذر بنزول الصّواعق، وكانقضاض الشُّهب المنذر بأمر عظيم، كخراب الدّنيا أو غيره، وذلك كصدع الإيوان، وخمود النّيران، وغَيض الأنهار، كأنّ حاضر ذلك لم يره، وهو معنى : "لَمْ تُشَم"؛ أيْ لم ينظر إليها، أو كأنّ كلاًّ من الحاضر والغائب لم ير ذلك، ولم يسمع به، وحمل البشائر والإنذار على ما ذُكر هو الأَوْفَق لما قبل البيت ولما بعده من المعاني.

وقال بعضهم : «المعنى أنّ الكفّار الّذين أخبرهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بما أعدّ الله من الخير لمن آمن، وبضدّه لمن كفر، ودلّ على صدقه فيما أَخبرَ معجزاتٌ من أقوال وأفعال، كانوا يُعرِضون عن تلك المعجزات، ولا يعملون بمقتضاها، كأنّهم لم يسمعوا ما أَعلَن به - عليه السّلام - من تلك البشائر والإنذارات». انتهى.

وهذا التّفسير وإنْ احتمله اللّفظ، إلاّ أنّه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده؛ من ابتداء حال النبوّة، وفيه نقصٌ؛ لجعله البشائر والإنذارات من المسموعات كما ترى، والنّاظم قسّمها لمرئيّ ومسموع، ثمّ قال :

«"وإعلان.." إنْ قُرِئ بالفتح؛ فجمع "عَلَن"، ويكون "تَسمع" بالتّاء من فوق، وإن قُرِئ بالكسر فمفرد، ويَسمع بالياء من تحت».

قوله : "مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ.." البيت؛ أيْ كان عَمَاهم عمّا شاهدوا من الآيات، وصَمَمهم عمّا سمعوا منها، من بعد ما أَخبرَ أولئك الأقوام الصُمّ العُمي كاهنُهم؛ أيْ كهّان زمانهم؛ لأنّ المراد بالكاهن الجنس، وهم علماءهم الّذين كانوا يخبرونهم بالغيب حسب ما يخبرهم بذلك أصحابهم من الجنّ، الّذين يسترقون السّمع، وفي إخبارهم أنّ أمر محمّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد أطلّ، وقرب مبعثه بِالْحَنِيفِيَّةِ البيضاء والدّين القويم، وبأنّ مبعثه يُذهب دينهم الأسود المعوجّ، وأنّه لم يَقُم؛ أيْ لم يثبت ديناً عند الله تعالى، أو لم يستقِم في حُكْمه.

وفي هذا الإخبار عنهم؛ بأنّ هذا التّعامي والتّصامم كان منهم بعدما تحصّل عندهم من العِلم من كهّانهم بصحّة نبوّته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غاية التّقبيح عليهم؛ فإنّهم كفروا بما علِموا حقيقته من علمائهم، الّذين كانوا يصدّقونهم ويقلّدونهم في إخباراتهم، وينخرط في سلك هؤلاء علماء اليهود والنّصارى ومَن قلّدهم ممّن لم يؤمن به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّهم : ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1]، وكانوا : ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2] قبل مبعثه، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

---

(1) سورة الأعراف : من الآية 157.

(2) سورة البقرة : من الآية 89.

(1) سورة البقرة : من الآية 89.

قال بعضهم : «وقول النّاظم في وصف دينهم المعوجّ ليس من كلام الكاهن، فإنّه إنّما أخبر بأنّ دين محمّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعلو دينهم ويَظْهَر عليه، ليس غَيْرَ. لكنّ النّاظم اعتمد في وصفه بذلك على ما هو ثابت في نفس الأمر».

قال : «وأيضاً في إخبار الكاهن - بأنّ دين الكفر لم يستقِم فيما مضى؛ لأنّ "لم" تعطي ذلك - إشكالٌ؛ لأنّ دين الكفر لا يُدرك استقامته أو اعوجَاجه بالكهانة؛ لأنّ استقامة الإيمان وبطلان الكفر؛ منه ما يُعلم بالبرهان العقلي، ومنه ما يُعلم بالمعجزة، والكاهن وغيره في ذلك سواء». انتهى.

قلتُ : أمّا وصف دين الكفر بالاعوجاج، فسترى ذلك - إنْ شاء الله تعالى - قريباً، وإنّما بنى هذا السّؤال على أنّ المراد كاهن بعينه، وهو "يُونَان"، وروى ألفاظاً نُقلت عنه، ولم يجد فيها وصف دينهم بالاعوجاج صريحاً. وقد قدّمنا أنّ المراد بالكاهن الجنس. وأمّا قوله : "الكاهن لا يعلم عدم استقامة دين الكفر". فضعيفٌ، فإنّ الجنّ يسمعون ذلك من الملأ الأعلى، فيُلقونه إلى أصحابهم من الكهّان. ثمّ ذمّ ملّة الكفر ووصفها بالاعوجاج أمر معروف مشهور من لَدُن بَعْث الله آدم إلى ذريّته إلى هلمّ، لا يخفى عن أحد إلاّ عن معاند، وتأمّل حديث زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ مع أصحابه الّذين تَوَامَرُوا[1] على اجتناب ما عليه أهل عصرهم من الكفر، وطلبهم ملّة إبراهيم[2].

---

(1) توامروا : لغة في تآمروا، بمعنى تشاوروا وتناصحوا.

(2) وهم : وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ الْعُزَى، وَعُبَيْدَ اللهِ بْنِ جَحْشٍ، وَعُثْمَانَ بْنَ الْحُوَيْرِثِ، وَزَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : تَعْلَمُوا وَاللهِ مَا قَوْمُكُمْ عَلَى شَيْءٍ، لَقَدْ

وقوله : "وبَعْدَمَا عَايَنُوا.." البيت؛ أيْ عَمُوا وصَمُّوا بعدما شاهدوا أيضاً بأبصارهم في أفق السّماء - أيْ ناحيتها - من الشُّهب المنقضّة -أيْ الساقطة - جهة ما في الأرض من الأصنام، كأنّ في انقضاضها إلى تلك الجهة إشارة على إهلاكها، وأنّ القذف بها إنّما كان لاضمحلال أمرها، وذلك أنَّ الشّياطين لمّا أغووا الإنس حتّى عبدوا الأصنام، فهي الفتنة الّتي فتنوا بها النّاس، فجدير بالشّياطين أنْ لا يفارقوا الأصنام؛ لأنّها حبالهم الّتي يصطادون بها الإنس - أعاذنا الله منهم بمنّه - ولا جرم كانت الأصنام جهتهم الّتي يقصدونها، ويفرّون إليها؛ لأنّها أعزّ الجهات عليهم، فتتعلّق قلوبهم بها، لا سِيّما عند إشعارهم بهلاكها، فيسرعون إليها كالمودّعين لها، الخائفين عليها، والشُّهب إنّما تقصد الشّياطين حيث توجّهوا، فلذلك كان انقضاض الشُّهب جهة الأصنام.

هذا أولى ما ظهر لي في تفسير "وِفْق"، وتقدّم في الغريب تفسير بعضهم فيه، ويحتمل أنْ يكون "وِفْق" من الاتّفاق؛ أيْ اتّفقت الشُّهب وتظافرت على رجم الشّياطين.

وقوله : "حتّى غَدَا.." البيت؛ أيْ لم تزل الشُّهب تنقضّ جهة الأصنام - وهي جهة الشّياطين - أو تتّفق عليها، حتّى غدا؛ أيْ سار وانحرف عن طريق الوحي الّذي يأتي به المَلَك إلى النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ منهزم من الشّياطين، يتبع إثر منهزم مثله منهم، فلا يقعد بعد

أَخْطَئُوا دِينَ أَبِيهِمْ إبْرَاهِيمَ مَا حَجَرٌ نُطِيفُ بِهِ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَضُرّ وَلَا يَنْفَعُ؟ يَا قَوْمُ الْتَمِسُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنّكُمْ وَاَللّهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ. فَتَفَرّقُوا فِي الْبُلْدَانِ يَلْتَمِسُونَ الْحَنِيفِيّةَ دِينَ إبْرَاهِيمَ . انظر الروض الأنف. السهيلي : 347/2.

مبعث النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أحدٌ منهم على طريق الوحي يسمع منه ما تتكلّم به الملائكة، عندما يقضي الله الأمر، كأنّه سلسلة على صفوان كما ورد في الصّحيح[1]. وقد كانوا يقعدون على ذلك الطّريق قبل ذلك يستمعون الوحي، قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2]. ويضعف أنْ تكون "حتّى" غاية لـ "عَايَنوا"؛ فإنّهم - أعني أكثر الكفّار - لا يُعاينون الشّياطين حتّى تفرّ من الشُّهب، وإن كان بعض الكهّان يدرك ذلك.

وقوله : "مُنهزمٌ.. إثرَ مُنْهَزِمٍ"؛ يريد جنس المنهزمين، والمقصود بالإفراد التّكثير والتّرتيب شيئاً بعد شيء؛ أيْ فلم يزل دأبهم على تعاقب الأوقات الفرار والانهزام، ودأب الشّهب الانقضاض خلفهم والازدحام. ثمّ شبّههم في هربهم وتبدّد شملهم واتّباعهم بالشُّهب وتفريقها عليهم بأبطال أبرهة، وهم الشّجعان من فرسانه؛ حين جاءوهم لهدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل؛ ترميهم بحجارة من سجّيل، فهرب أبطالهم يطلبون النّجاة في سائر الجهات، ولات حين مَهْرب لهم، بل تفرّقت عليهم الحجارة، وترادفت، فلا تخطئ أحدًا منهم. وإذا كان حال أبطالهم في الهرب هذا، فما بالك بجبناءهم.

---

(1) يقصد قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ..». الحديث. رواه البخاري عن أبي هرَيْرَةَ في تفسير القرآن. باب ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. ورواه غيره.

(2) سورة الجن : الآية 9.

وشبّههم أيضاً في هربهم بالعسكر؛ إنْ رُفع عطفاً على "أبطال"، أو بأبطاله؛ إنْ خُفض عطفاً على "أبرهة"؛ الّذين جاهدهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في غزوة حنين، وقد حُشِروا له من كلّ أوب، فأخذ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كفّا من حصى، ورمى به في وجوه ذلك الجمع العظيم، فلم يبق أحد منهم إلاّ أصابه منه في عينه، وولّوا هاربين[1]. وإلى هذا كلّه الإشارة بقوله : "كأنّهم هَرَبًا.." البيت؛ أيْ كأنّ الشّياطين - حالة كونهم هاربين من انقضاض الشُّهب خلفهم - أبطالَ أبرهة حين وّلوا هاربين من انقضاض الحجارة عليهم، أو كأنّهم عسكر - أو أبطال عسكر على التّقديرين - حين ولّوا هاربين من رَميهم بالحصى من راحيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالضّمير في "رَاحَتَيْهِ" عائد على ما عاد عليه ضمير "مَوْلِدُه"؛ وهو النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأباح النّاظم أنْ يشبّه الجنّ - في هروبهم واتّباعهم بالشُّهب - بجيش أبرهة في هروبهم واتّباعهم بالحجارة، أو بجيش الكفّار يوم حُنين في هروبهم، وإصابة الحصى المرمي به من راحتيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيّاهم.

قال بعضهم : «ورفع "عَسْكَر" أولى؛ لأنّ خفضه بتقدير أبطال، ووصفهم بذلك ينافي ما قصد النّاظم من سرعة الفرار؛ لأنّ الشّجاع يتثبّط في فراره، إلاّ بقدر الضّرورة، فلو أبدل أبطالاً بما يؤذن بالجبن، أو يقول "أتباع" أو "فرسان"، لكان أدخل في البلاغة».

---

(1) وسيفصل الإمام ابن مرزوق في هذه الأحداث بعد قليل.

قلتُ : هذا الكلام لا يخلو من قَلَق، فإنّ ظاهره - أوّلاً - أنّ هذا الاعتراض لازم على تقدير أبطال مع عسكر، وهو لازم عن التّصريح به مع أبرهة، فكان حقّه أنْ يقصره عليه، لكن قوله : لو أبدَلَ.. يدلّ على أنّه راعى المصرّح به. ثمّ الجواب : أنّ الأبلغ ما فعل النّاظم؛ لأنّ البطل إذا حلّ به ما لا طاقة له به، يعود أجبن النّاس، لا سِيَّما الأمور الإلهية - أعاذنا الله من عذابه برحمته - فالنّاظم قصد إلى الأخرى، فإذا كان البطل حاله في الفرار سريعاً ما ذُكر، فكيف بالجبان، وهو في غاية البيان.

وقوله : "نَبْذاً بهِ.." البيت؛ أيْ رمى ذلك العسكر بالحصى من راحتَيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نبذًا به؛ أيْ رمى رمياً بذلك الحصى بعد تسبيح الله عزّ وجلّ صادرٌ من ذلك الحصى، ببطنهما؛ أيْ في بطن الرّاحتَين، وذلك من معجزاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك النّبذ الحاصل في الحصى بعد تسبيحه في بطون الكفّين القابضتَين عليه، يشبه نبذ المسبّح - الّذي هو يونس عليه السّلام - من أحشاء مُلتقم له؛ الّذي هو الحوت.

وإنّما قال النّاظم : "رُميَ" بالبناء للمفعول؛ تنبيهاً على أنّ ذلك الرّمي، وإنْ باشرَته كفّاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالرّامي به حقيقة هو الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]. وكذا شبّه نبذه أيضاً بنبذ المُسبّح من أحشاء مُلتقم؛ إذ في هذا التّشبيه جواب عن استبعاد الجاهل أنْ تكون القبضة من الرّجل الواحد والقبضتان من الحصى تصيب عينَي كلّ واحد من عدد الجيش العظيم؛ الّذي لا يكاد

---

(1) سورة الأنفال : الآية 17.

يُحصر. فأجاب النّاظم بتنظيره بما ذكر؛ بأنّ فاعل ذلك النّبذ هو القادر على كلّ شيء، ولهذا النّبذ المستبعَد من الجاهل نظير، وهو نَبْذ يونس من أحشاء الحوت من قعر البحار سالماً، لم تطبخه حرارة معدة الحوت، بعد إقامته في أحشاءه مدّة يُطبخ فيها ما حصل في ذلك المكان ممّا هو أكثف منه، فكلّ ذلك دليل على القدرة العامّة الباهرة، فسبحان مَن عمّت قدرته كلّ شيء.

وناسب التّشبيه أيضاً النّبذ الّذي هو سبب في السّلامة والخلاص من العذاب، مع تسبيح الله تعالى الصادر من المنبوذ، فإنّه لولا رَمَى ذلك الحصى، لحصل تعذيب الكفار للمؤمنين؛ فإنّ الطّائلة - مِن أوّل - كانت لهم؛ قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. ﴾الآية[1]. ثمّ بعد رَمي الحصى سَلِم المؤمنون منهم، ونُصروا عليهم، فكان العذاب على الكافرين، وكذا يونس، فإنّ نبذه سبب في سلامته ونجاته من العذاب اللاّحق له في بطن الحوت لو لم يُنبَذ، وهذا كلّه بركة ذكر الله تعالى.

قال معاذ رضي الله عنه : «مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[1]. وكان هذا الذّكر التّسبيح؛ الّذي هو تنزيه الله – تعالى - عن غير الكمال، ردًا على ما يتوهّمه الجاهل من الاستبعاد.

---

(1) سورة التوبة : من الآية 25. والآية بتمامها : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

(1) رواه أبو نعيم. انظر حلية الأولياء : 235/1.

فَائِدَةٌ جَرَّ إِلَيْهَا الكَلَامُ فِي قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسئلت عنها أيّام كتْبي لهذا المحلّ

وذلك أنّه جَرى - أيّام كَتْبي لهذا المحلّ في بعض المجالس العلمية شرّفها الله تعالى، المعدّة لإقراء تفسير كتاب الله العزيز ببلدنا تلمسان صانها الله تعالى من الأغيار، وضاعف لها ما أنالها من الأنوار[1] - سُؤالٌ عن الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[3]؛ فإنّ الآية الأولى تقتضي أنّه لولا التّسبيح لَلَبِث.. واللّبْث منتفٍ لوجود التّسبيح، والثّانية تقتضي أنّه لولا تدارك النّعمة لنُبذ وهو مذموم، فهو يقتضي انتفاء النّبْذ، وانتفاء النّبْذ هو اللّبث، فهذه تقتضي ثبوت اللّبث لانتفاء النّبذ، والأُولى تقتضي انتفاء اللّبث، وكون اللّبث مُثبتًا منفيًا محال، أو يُقال: الأُولى تقتضي ثبوت النّبْذ، والثّانية انتفاءه.

فأجاب بعض العلماء المحقّقين بأنْ قال: «الأولى[4] في قوّة: لو انتفى التّسبيح، لثبت اللّبْث، والثّانية في قوّة لو انتفت النّعمة

---

(1) في هذا إشارة تاريخية هامة للحركة العلمية التي تميزت بها تلمسان وغيرها من حواضر الجزائر في ذلك الوقت.

(2) سورة الصافات: الآيتان 143 و144.

(3) سورة القلم: الآية 49.

(4) أيْ الآية الأولى.

لنُبِذ، ولمّا كان الواقع من مراد الله – تعالى - أنّ التّسبيح ثابتٌ، كان انتفاءه محالاً، والواقع أيضاً أنّ النّعمة ثابتة، فانتفاءها محال، ولمّا كان ملزوم الشّرطين محالاً، لا جَرَم ترتّب عليه المحال، ونَظَّرَه بقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[1]؛ أيْ لاستُؤصِلوا، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا ﴾[2]؛ وهذه تقتضي عدم الهلاك وإنْ أُنزل المَلَك، ولمّا كان جعل المَلَك على الوجه الّذي طلبوه رسولاً محالاً لِما سبق في علم الله تعالى، لا جَرَم ترتّب عليه المحال»[3].

قلتُ : وهذا صنيعٌ، إلاّ أنّ فيه تكلّفاً، وهو عند التّحقيق مغالطة من تفصيل المركّب؛ لأنّ المحال على الوجه الّذي قرّرنا، إنّما هو من الجمع بين القضيّتَين، لا باعتبار كلٍّ على انفرادها. والحقّ الواضح الّذي لا تكلّف فيه : أنّ الآية الثّانية إنّما نفت النّبذ المُقيّد بكونه مذموماً، ونَفْي المقيّد لا يستلزم نفي المطلق، فلا يلزم نَفْي المُقيَّد على وجه الإلزام، وبه ينتفي اللّبث الّذي نفته الآية الأولى، ومن شرط التّناقض اتّحاد الموضوع، وهذا هو الجواب عن آيتي "الأنعام"، فإنّ الإهلاك الّذي كنّي عنه بقضاء الأمر، إنّما ترتّب على إنزال الملائكة على صورته، لا على صورة

---

(1) سورة الأنعام : من الآية 8.

(2) سورة الأنعام : من الآية 9.

(3) انظر الكليات. الكفوي : ص 788.

الرّجل، واللّبس عليهم الّذي يستلزم بقاءهم هو إنزاله على صفة الرّجل. أو يُقال : يلبِس عليهم الأمر، ثمّ يهلكون[1].

ونقل الغزنويّ[2] : «أنّ معنى "بالعَرَاء" بفضاء الآخرة، وهو يوم يبعثون، الّذي هو غاية اللّبث، كما دلّت عليه الآية الأولى»[3].

وهذا القدر كافٍ، إذ هذا هنا عارض، ولنا على هذا السّؤال كلام أطول من هذا.

---

(1) وهذا صنيع بديع منيع من ابن مرزوق رحمه الله، ويمكن تلخيصه وتبسيطه كما يلي : القضية الأولى : لو لم يُسبّح للَبِث. لكنه سَبَّح فلم يَلْبَث (أيْ نُبِذ). القضية الثانية : لو لم يُسبّح لنُبِذ مَذموماً. لكنّه سَبَّح فنُبِذ (غير مذموم) (أيْ لم يَلْبَث).

(2) هو أبو الفتح الفتح عبدالصمد بن محمود بن يونس بن محمد الغزنوي الحنفي كان حيا عام 487 هـ، صاحب تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء.

(3) نقل هذا التفسير عن ابن جريج، انظر زاد المسير في علم التفسير. ابن الجوزي : 326/4.

[بعض أخبار الكهان الّتي أشار إليها النّاظم]

ولا بدّ من الإشارة إلى بعض ما أشار إليه النّاظم من أخبار الكهّان : فمن ذلك ما رُوي عن فَاطِمَةَ بِنْتَ النّعْمَانِ النّجّارِيّةَ - وكانت بالمدينة - أنّه كَانَ لَهَا تَابِعٌ مِنْ الْجِنّ، وَكَانَ إذَا جَاءَهَا اقْتَحَمَ عَلَيْهَا فِي بَيْتِهَا، فَلَمّا كَانَ فِي أَوّلِ الْبَعْثِ أَتَاهَا، فَقَعَدَ عَلَى حَائِطِ الدّارِ، وَلَمْ يَدْخُلْ، فَقَالَتْ : لِمَ لَا تَدْخُلُ؟ فَقَالَ : بُعِثَ نَبِيّ بِتَحْرِيمِ الزّنَا. فَذَلِكَ أَوّلُ مَا ذُكِرَ النّبِيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمَدِينَةِ[1].

ومنه ما رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيّ[2] فِي "كِتَاب الصّحَابَةِ" عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي لِهْب - قبيلة من العرب - اسْمُهُ لَهَيب، قَالَ : حَضَرْت عند النّبِيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرْت عِنْدَهُ الْكِهَانَةَ، فَقُلْت : بِأَبِي وَأُمّي : نَحْنُ أَوّلُ مَنْ عَرَفَ حِرَاسَةَ السّمَاءِ، وَزَجْرَ الشّيَاطِينِ، وَمَنْعَهُمْ مِنْ اسْتِرَاقِ السّمْعِ عِنْدَ قَذْفِهِم بالنّجُومِ، ولمّا رأينا ذَلِكَ اجْتَمَعْنَا إلَى كَاهِنٍ لَنَا يُقَالُ لَهُ خَطَرُ بْنُ مَالِكٍ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَتَا سَنَةٍ وَثَمَانُونَ سَنَةً[3].

قلتُ : وفي تفسير سورة "الحِجْر" من الثّعلبي : ثلاثمائة وستّون سَنَة[4].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 313/2.

(2) هو محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكيّ، أبو جعفر (.. - 322هـ = .. - 934م) من حفاظ الحديث. له مصنفات خطيرة، منها كتابه في (الضعفاء). وكان مقيما بالحرمين، وتوفي بمكة. انظر الأعلام. الزركلي : 319/6.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 313/2.

(4) انظر تفسير الثعلبي (الكشف والبيان) : 334/5.

وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ كُهّانِنَا، فَقُلْنَا : يَا خطَرُ هَلْ عِنْدَك عِلْمٌ مِنْ هَذِهِ النّجُومِ الّتِي يُرْمَى بِهَا، فَإِنّا قَدْ فَزِعْنَا لَهَا، وَخَشِينَا سُوءَ عَاقِبَتِهَا؟ فَقَالَ : عُودُوا واغْدُوا إليّ في السّحر، ائْتُونِي بِسَحَرْ، أُخْبِرُكُمْ الْخَبَرْ، أَبِخَيْرِ أَمْ ضَرَرْ، أَمْ لِأَمْنِ أَمْ حذَرْ؟ قَالَ : فَانْصَرَفْنَا عَنْهُ يَوْمَنَا، فَلَمّا كَانَ مِنْ غد فِي وَجْهِ السّحَرِ، أَتَيْنَاهُ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ عَلَى قَدَمَيْهِ، شَاخِصٌ إلى السّمَاءِ بِعَيْنَيْهِ، فَنَادَيْنَاهُ. فَأَوْمَأَ إلَيْنَا : أَنْ أَمْسِكُوا. فَانْقَضّ نَجْمٌ عَظِيمٌ مِنْ السّمَاءِ، وَصَرَخَ الْكَاهِنُ بأَعْلَى صَوْتَهُ: أَصَابَهُ إصَابَة.. خَامَرَهُ عِقَابُهْ.. عَاجَلَهُ عَذَابُهْ.. أَحْرَقَهُ شِهَابُهْ.. زَايَلَهُ جَوَابُهْ.. يَا وَيْلَهُ مَا حَالُهْ.. بَلْبَلَهُ بَلْبَالُهْ.. عَاوَدَهُ خَبَالُهْ ... تَقَطّعَتْ حِبَالُهْ.. تغيّرت أَحْوَالُهْ[1]. ثمّ أَمْسَكَ طَوِيلًا، وطفق يَقُولُ : يا لَهْفَ بني قَحْطَانِ.. ويُروى :

يَـا مَعْشَـرَ بَنِـي قَحْطَـانِ   أُخْبِـرُكُمْ بِـالْحَقّ وَالْبَيَـانِ
أَقْسَـمْت بِالْكَعْبَـةِ وَالْأَرْكَـانِ   وَالْبَلَـدِ الْمُـؤْتَمَنِ السّـدّانِ
لَقَدْ مُنِعَ السّمْعَ عُتَاةُ الْجَانّ   بِثَاقِـب بِكَـفّ ذِي سُـلْطَانِ
مِنْ أَجْلِ مَبْعُوثٍ عَظِيمِ الشّانِ   يُبْعَـثُ بِالتّنْزِيـلِ وَالْقُـرْآنِ
وَبِالْهُـدَى وَفَاصِـلِ الفُرْقَـان   تَبْطُـلُ بِـهِ عِبَـادَةُ الْأَوْثَـانِ

قَالَ : فَقُلْنَا : يَا خطَرُ، إنّك لَتَذْكُرُ أَمْرًا عَظِيمًا، فَمَاذَا تَرَى لِقَوْمِك؟ فَقَالَ :

أَرَى لِقَوْمِي مَا أَرَى لِنَفْسِي   أَنْ يَتّبِعُوا خَيْرَ نَبِيّ الْإِنْسِ
بُرْهَانُهُ مِثْلُ شُعَاعِ الشّمْسِ   يُبْعَثُ فِي مَكّةَ دَارِ الْحُمْسِ
بِمُحْكَمِ التّنْزِيلِ غَيْرِ اللّبْسِ

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 314/2.

فَقُلْنَا له : وَمِمَّنْ هُوَ يَا خَطَرُ؟ فَقَالَ : والموت وَالْعَيْشِ.. إنّهُ لَمِنْ قُرَيْشٍ.. مَا فِي حُكْمِه طَيْشٌ.. وَلَا فِي خُلُقِهِ هَيْشٌ.. يَكُونُ فِي جَيْشٍ.. وَأيْ جَيْشٍ.. مِنْ آلِ قَحْطَانَ وَآلِ أَيْشٍ.. والإِيْش : الأَخْلاطُ من كلّ قوم.

فقلنا له : من أيْ البُطُون؟ فقَال : مِن بَطْن وَلَد إِبْرَاهِيم. فَقُلْنا لَهُ بَيّن لَنَا : مِنْ أيْ قُرَيْشٍ هُوَ؟ فَقَالَ : وَالْبَيْتِ ذِي الدّعَائِمِ.. وَالرّكْنِ وَالْأَحَائِمِ.. إنّهُ لَمِنْ نَجْلِ هَاشِمٍ.. مِنْ مَعْشَرٍ أكارم.. يُبْعَثُ بِالْمَلَاحِمِ.. وَقَتْلِ كُلّ ظَالِمٍ.. ثُمّ قَالَ : هَذَا هُوَ الْبَيَانُ.. أَخْبَرَنِي بِهِ رَئِيسُ الْجَانّ.. ثُمّ قَالَ : اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ.. جَاءَ الْحَقّ وَظَهَرَ.. وَانْقَطَعَ عَنْ الإنس الْخَبَرُ .. ويُروى عن الْجِنّ. ثُمّ قال : هَذَا بَيَانِي. وسَكَتَ، فَأَغْمِيَ عَلَيْهِ، فَمَا أَفَاقَ إلّا بَعْدَ ثَلَاثَةٍ أيّام. فلمّا أفاق، قَالَ : لَا إِلَهَ إلّا اللهُ محمّد رَسُولُ اللهِ. ثمّ مات. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «سُبْحَانَ الله سُبْحَانَ الله، لَقَد نَطَق بِمِثْلِ نُبُوّةٍ، وإِنّهُ ليُحْشَر - أو لَيُبْعَثُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمّةً وَحْدَهُ»[1].

ومن ذلك خَبر يُونَان الكاهن، وحاصله : أنّ القوم سألوه - عندما كثر القذف بالشُّهب - عن سبب ذلك، فأخبرهم بأنّ سببه تَزَيُّد مولود بمكّة، يرتفع شأنه، ويكسر الأصنام، ويخمد النّيران، ويمحو عبادة الأوثان. فقالوا : «قد علمنا بهذا المولود». فاستشاروه في قتله، وطلبوه أنْ يرشدهم إلى حيلة توصل إلى ذلك، فأبى، ونهاهم عن التّشاغل بذلك، وأخبرهم : «أنّ ما قدّر الله كائن».

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 363/1.

ومن إخبار الكهّان بأمره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما في أوّل سيرة ابن إسحاق حين رأى رَبِيعَةُ بْنُ نَصْرٍ مَلِكُ الْيَمَنِ الرّؤيا الّتي هَالَته، ففسّرها له سَطِيح[1] وَشِقّ[2]، فكان آخر كلام سَطِيح حين قال لرَبِيعَة : ينقطع أَمْر ذِي يَزَن. قال : ومَن يقطعُه : قال : نَبِيّ زَكِيّ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ قِبَلِ الْعَلِيّ. قَالَ : وَمِمّنْ هَذَا النّبِيّ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ غَالِب بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النّضْرِ، يَكُونُ الْمُلْكُ فِي قَوْمِهِ إلَى آخِرِ الدّهْرِ؟ قَالَ : وَهَلْ لِلدّهْرِ مِنْ آخِرٍ؟ قَالَ : نَعَمْ، يَوْمٌ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوّلُونَ وَالْآخِرُونَ، يَسْعَدُ فِيهِ الْمُحْسِنُونَ، وَيَشْقَى فِيهِ الْمُسِيئُونَ. قَالَ : أَحَقّ مَا تُخْبِرُنِي؟ قَالَ : نَعَمْ، وَالشّفَقِ، وَالْغَسَقِ، وَالْفَلَقِ، إنّ مَا أَنْبَأْتُك بِهِ لَحَقّ[3]. وكان مِن آخر كلام شِقّ : بَلْ يَنْقَطِعُ بِرَسُولِ مُرْسَلٍ، يَأْتِي بِالْحَقّ وَالْعَدْلِ، بَيْنَ أَهْلِ الدّينِ وَالْفَضْلِ، يَكُونُ الْمُلْكُ فِي قَوْمِهِ إلَى يَوْمِ الْفَصْلِ. قَالَ : وَمَا يَوْمُ الْفَصْلِ؟ قَالَ : يَوْمٌ تُجْزَى فِيهِ الْوُلَاةُ، يُدْعَى فِيهِ مِنْ السّمَاءِ بِدَعَوَاتِ، يَسْمَعُ مِنْهَا الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ، وَيُجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ النّاسِ لِلْمِيقَاتِ، يَكُونُ فِيهِ لِمَنْ اتّقَى الْفَوْزُ وَالْخَيْرَاتُ. قَالَ : أَحَقّ مَا تَقُولُ؟ قَالَ : أَيْ وَرَبّ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ رَفْعٍ وَخَفْضٍ، إنّ مَا أَنْبَأْتُك بِهِ لَحَقّ مَا فِيهِ أَمْضٍ[4].

وكلام الكهّان في هذا المعنى كثير، وأنتَ ترى جميعهم يُخبر عن دين الإسلام بأنّه حقّ، ودين الكفر بأنّه باطل، خلاف قول المعترض المتقدّم.

---

(1) اسْمُ سَطِيحٍ : رَبِيعُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ مَازِنِ بْنِ ذِئْب بْنِ عَدِيّ بْنِ مَازِنِ غَسّانَ.

(2) اسم شِقّ : شق ابْنُ صَعْب بْنُ يَشْكُرَ بْنِ رُهْم بْنِ أَفْرَكَ بْنِ قَسْرِ بْنِ عَبْقَرَ بْنِ أَنْمَارِ بْنِ نِزَارٍ.

(3) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 17/1.

(4) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 18/1.

[بعض أخبار القافة]

وأمّا ما ورد في هذا المعنى من أخبار أهل القافة وأهل العلم الّذين قرأوا الكتب، فمن ذلك : ما ذكره محمّد بن عمر الواقدي[1] في حديث أسنده : خرج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوما يلعب مع الغلمان، حتّى بلغ الرّدم، فرآه قوم من بني مُدْلج، فدعوه، فنظروا إلى قدميه وإلى أثره، ثمّ خرجوا في إثره، فصادفوا عبد المطّلب، وقد اعتنقه، فقالوا لعبد المطّلب : ما هذا منك؟ قال : ابني. قالوا : احتفظ به، فإنّا لم نر قطُّ قدماً أشبه بالقدم الّذي في المقام[2] مِن قدمه. فقال عبد المطّلب لأبي طالب : اسمع ما يقولون.

وقالوا : بينا عبد المطّلب يوماً جالس في الحِجْر وعنده أُسْقُف نَجْرَان، وكان صديقاً له، وهو يحادثه ويقول : إنّا نجد صفة نبيّ تقيّ من ولد إسماعيل، هذه[3] مولده، ومن صفته كذا وكذا، وأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بقيّة الحديث : فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدمَيه، فقال : هو هذا، ما هذا منك؟ قال : ابني. قال الأسقف: لا نجد أباه حيًّا. قال عبد المطّلب : هو ابن ابني، قد مات أبوه وأمه حُبلى

---

(1) هو محمد بن عمر بن واقد، أبو عبد الله، الواقدي (130 - 207هـ= 747 - 823م). من أقدم المؤرخين في الإسلام. ولد بالمدينة، انتقل إلى العراق في أيام الرشيد، واتصل بيحيى بن خالد البرمكي، فولي القضاء ببغداد. واستمر إلى أن توفي فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 311/6.

(2) أيْ مقام إبراهيم عليه السلام.

(3) أيْ البلدة.